الفصل السادس

آلية الدولة البوليسية

« لاشيء يستوقف نظر الامريكى لأول مرحلة عند قدومه إلى موسكو أكثر من عنف البوليس وقساوته . وأنه ليخيل اليه أن العاصمة فى حالة حصار . ومن بين جميع القيود المفروضة للمحافظة على السلام والنظام لا شيء أفظع من سلطة الرقابة . وأذكر لكم مثلا يقوم دليلا على المدى الذى تطبق به هذه الرقابة . فقد اعتبرت الرسالة الأخيرة التى بعث بها رئيس الولايات المتحدة وثيقة غير « مأمونة العاقبة » فى جميع أجزائها حتى يمكن أن يسمح للشعب الروسى بقراءتها ، ومن ثم اعملت فيها الرقابة مقصها وقدمتها للقراء مقطعة الأوصال بل ومُحِيَ منها الجزء المنشور فى الصفحة السابعة (والذى يبدأ : ولكن البعض الآن يقبل) وهو الذى يعرض لأراء الذين يرغبون تدخلنا فى الشئون الأوربية . وهكذا لم يسمح لآراء الرئيس ومبادئه أن تنشر وحذفوا النص ومع ذلك أبقوا الخطبة ـ وإنه لمن الصعب إدراك السبب الحقيقى لتطبيق هذا السلطان الواسع فى كثير من الحالات ولكن مما لا شك فيه أن الأمر كله من قبيل الأهواء والنزوات » .

« من رسالة لوزير أمريكا المفوض ديل براون محررة من بطرسبرج فى ٢٧ يناير سنة ١٨٥٣ »

تقرر الدولة اليوليسية مسلك ونشاط المواطنين السوفيت بشتى الطرق . فهى تربى الشعب السوفيتى بروح مستمدة من الآداب الشيوعية للنظام القائم الذى يضع

قواعد قانونية تنظم حياة الشعب وتفرض عليه محظورات وتقيم مشجعات وتسن عقوبات على كل من يتجاسر على خرق هذه القواعد القانونية . وتقف الدولة السوفيتية موقف الحارس اليقظ بكل ما لها من قوة لحماية هذه القوانين المفروضة .

ومسلك الشعب الروسى ونشاطه يقررهما أيضا قوة الرأى العام الذى يتكون عن طريق النشاط الذى تقوم به عدة منظمات عامة . والدور الحاسم فى تكوين هذا الرأى العام إنما يقوم به الحزب الشيوعى والدولة السوفيتية التى تستطيع بوسائلها أن تشكل الرأى العام وأن تصنعه كما تريد وأن تربى العمال بروح من الوعى الاشتراكى » .

وإنى لشديد التأثر بهذه المقدمة التى سقتها فى أول هذا الفصل لأنها فى رأيى أقوى تعريف قرأته للتجنيد القومى وعلى الأخص إذا أدخلنا فى اعتبارنا المصدر الذى جاء منه هذا التعريف ـ لقد نقلته حرفيا من النشرة رقم ٤ من « موسكو بولشفيك » الصادرة فى سنة ١٩٤٧ وهذه المقدمة تتضمن وصفا سوفيتيا للدولة البوليسية الفاشية فى كل مكان ـ هذا النظام الذى تقرر الدولة فى ظله وتنظم مسلك ونشاط مواطنيها منذ ساعة مولدهم وتستمر فى عملها هذا معهم مادامو أحياء . والزعامة الشيوعية لاتؤمن اطلاقا فى قدرة الشعب على تنظيم حياته الخاصة ولا على حكم نفسه . ولقد روّعنى الاخلاص الواضح الذى يسهم به الأفراد من أعضاء الحزب لتحقيق هذه النظرية ولوسائل الدولة البوليسية التى تربى بها الشعب « بروح من الوعى السياسى » . وقد قضى المارشال سكولانسكى (قائد القوات الروسية فى ألمانيا حينذاك) معى عطلة نهاية الأسبوع فى دارى فى فرانسكفورت بألمانيا خلال الأيام الأولى لتحالفنا عندما كانت العلاقات الشخصية بيننا تقوم على الصداقة والصراحة التامة . وقد حدث خلال محادثاتنا

ان انتقدت بشدة وسائل العسف السياسى التى كان الشيوعيون يستخدمونها فى الأراضى المحتلة فى وسط أوربا ولكن سكولاتسكى وهو رجل ذكى أمين لمبادئه نظر لى نظرة استغراب ودهشة قائلا « أنا لا أرى سببا يدعوك لهذا النقد فنحن لا نفعل شيئا فى هذه الأماكن لا نفعله فى بلادنا » .

وفى ديوان « أوجار لى ماسترز » المسمى « سبون ريفير » توجد أبيات رثاء كتبت على شاهد قبر رجل ارتفع إلى السلطان وفى هذه القصيدة يقول :

ما من شعب يمكن أن يكون طيبا

أو يحقق لنفسه خيرا ما دامت مقاليد الأمور ليست فى يد الأقوياء

والحكماء ليستخدموا بها الأغبياء والضعفاء .

وهذا وصف دقيق للنظرية الشيوعية فى التسلط على الطبقات العاملة لدرجة أنها تصلح أن تُنقش على حجر الزاوية فى مقر الكرملين السوفيتى .

والحزب الشيوعى فى الدولة السوفيتية ما يزال يعتنق رسميا النظرية الماركسية التى تقول بأنه كلما تقدمت الاشتراكية ذوت الدولة التى هى أداة الحكم الطبقى . ولما كان الوضع فى الاتحاد السوفيتى كما هو ظاهر على عكس هذه النظرية ، فان الدولة السوفيتية تزداد توسعا وقوة أكثر من أى وقت آخر ، فإن أصحاب النظريات السوفيتية أخذوا يجهدون أنفسهم فى تفسير هذا التضارب و يشيرون إلى الشعب الروسى بأنهم يعيشون فى ظل ظروف خطيرة مهددين بحصار الرأسمالية لهم من جميع النواحى . وقد جاء فى أزفستيا أن ستالين قال فى سنة ١٩٤٧ إن الدولة ستظل قائمة فى ظل النظام الشيوعى ما لم يزل الحصار الرأسمالى وما لم يندمج خطر الهجوم المسلح عليها من الخارج . وإن الدولة ستزول وتذبل حتما إذا استبدلنا بالحصار الرأسمالى حصارا شيوعيا من

جميع الجهات وهكذا تصبح الدولة ضرورة حتمية ما دامت البلاد الشيوعية تعيش وتتطور فى ظروف تحيط بها من جميع الجهات الدول الرأسمالية . وعلى أية حال فقد صرح ستالين فى العام الماضى أن الحصار الرأسمالى لم يعد قويا وممكنا . ومع ذلك ما تزال الدولة تتوسع فى سلطانها البوليسى ، ومع ذلك فلم يفسر واضعو النظريات السوفيتيه هذا التضارب بعد . وكلمة الدولة البوليسيه تستدعى إلى الذهن أول ما تستدعى منظمات البوليس السرى نفسها وإن يكن اللفظ يعنى فى الاتحاد السوفيتى أكثر من ذلك بكثير . ففى الاتحاد السوفيتى تبدأ رقابة الدولة مع الطفولة فى سن مبكرة جدا . والاطفال السوفييت ينشئون على المذهب السوفيتى ليكونوا شيوعيين مترهبين، أما التعليم العام فيأتى فى المرتبة الثانية .

والطفل الشيوعى يُعلّم فى المدرسة أن الاتحاد السوفييتى هو الدولة الديموقراطية الوحيدة وانها الدولة التى تقف وحدها للدفاع عن الحق والعدل والسلام . ويُغْرَس فيه أن الولايات المتحدة دولة استعمارية عدوانية وأن العمال فيها يُسخرون إلى أبعد حدود السخرة وانهم يعيشون مكبلين بالسلاسل . وحين زارت « آن أوهارا ما كورميك » احدى مدارس موسكو سألها أحد الأطفال لماذا يسجن الامريكيون العمال فى أقبية مظلمة .

والطفل يُلْقَى فى روعة دائما أن دمار الديموقراطية السوفيتيه هو الهدف الأول للرأسمالية الغربية ، وأن تحقيق هذا الهدف لا يحبطه إلا جيش روسيا العظيم القوى ولا يمنعه إلا عزم الشعوب السوفيتية العظيمة الموحدة . ونظام التربية كله قائم على ضرورة ضمان استمرار قوة الحزب الشيوعى وانتفاء كل تفكير سياسى اللهم إلا ما يمليه الحزب .

والتعاليم القوميه مرتبطة كل الارتباط بالتعاليم السياسية وهدفها الأكبر هو استثارة الولاء والاخلاص الذى لا يحدّ للاتحاد السوفيتى فى صراعه لتدعيم النظام السوفيتى . ويدخل الأطفال الشيوعيون « منظمة الرواد الحمر » فى نفس السن التى يدخل فيها أطفالنا من بنين و بنات فى صفوف الأشبال فى الكشافة . ويخرج الطفل الروسى من منظمة الرواد ليدخل فى « الكومسمول » وهى منظمة الشباب الشيوعى وهى تقبل الأولاد من سن الرابعة عشر إلى سن السادسة والعشرين . والكومسمول هى مدرسة للتدريب توطئة للالتحاق بالحزب الشيوعى فى المستقبل . ويتلقى الولد أو البنت تدريبا خلقيا وسياسيا فى فرقة الصدمات ، وهذه تؤهلهم فى سن السادسة والعشرين للتخرج ودخول الحزب الشيوعى إذا أثبت المواطن أنه على قدر من الذكاء والكفاية والاستجابة للنظام الذى يتطلبه لحزب الشيوعى من أعضائه . وهكذا يوضع الشاب السوفيتى منذ سن مبكرة جدا فى جو يساعد على نمو فهمه للشيوعية وعلى رسوخ الإيمان فى نفسه بأنه ـ قبل كل شىء ـ مجاهد يحارب للدفاع عن النظام السوفيتى الذى تتهدده الرأسمالية .

أما التعليم العالى فيُحْتَفظ به للأفراد الذين يُظْهِرون تقدما لدرجة بارزة جدا فى الوعى السياسى أو لأبناء الارستقراطيه السوفيتيه الجديدة . ولا ريب أن المستقبل الاقتصادى للشاب أو الشابة السوفيتيه يتوقف إلى حد كبير على تقدمه السياسى .

وليس فى نظام التعليم السوفيتى فى مراحله الابتدائية أى عيب ـ فيماعدا الاضرار الكامنة فى اتجاهاته السياسية ـ يستعصى اصلاحه على الزمن وعلى اهتمام الحكومة وعنايتها به إذا أرادت ذلك .

والأطفال فى بلد يتميز العمل فيه بانه اجبارى على الوالدين ، يصبحون من رواد مـدارس الدولة نصف الوقت فى سن باكرة . وتبذل الدولة السوفيتية غاية العناية بهؤلاء الأطفال. و إذا نحن أخذنا المتوسط القومى أساسا للمقارنة ، فإنى على يقين أنه فيما خلا استثناءات واضحة، فان الرعاية التى تبذل للأطفال الصغار فى الاتحاد السوفيتى لايمكن أن تقل عنها فى أية دولة أخرى فى العالم، كما أن نظام التربية فى الاتحاد السوفيتى يخرج أجيالا من الشبان الجادين المهيئين لحمل عبء المسئولية . أما الأمية فى روسيا فانها تكاد تكون غير خطيرة ففى سنة ١٩٣٩ كانت نسبة الأميين ٨ و١٨ ٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفيتى ، ولاشك أن هذه النسبة قد قلت اليوم بنسبة ملحوظة .

والأمر الذى يؤسف له حقا فى نظام التربية فى الدولة البوليسية هو أن الصغار يلقنون دائما أكاذيب حول العالم الغربى . ومن أسف أنه ليست لديهم فرصة ما للتعرف على حقائق الأشياء بالملاحظة والمقارنة ليدركوا أنهم يعلمون ما يخالف الحقيقة . وذلك لأن الدولة البوليسية تعمل على تكييف عقول الناشئة لتتصطبغ بالولاء والإخلاص والتأييد المطلق للنظام السياسى القائم هناك ، وهذا شر من أساسه .

وحين يخرج الفتى الروسى من نطاق مراقبة اساتذته ، فإنه يقع بطريقة أخرى تحت مراقبة البوليس السرى وعينه التى لاتنام . وفى روسيا يقوم نظام البوليس السرى منذ قرون و إن اختلفت أشكاله . ومنذ قرون أيضا والشعب الروسى يرى فيه نظاما كريها . وكان من أحب النداءات للحزب الشيوعى خلال فترة الثورة الهتاف بسقوط « الأوكرانا » وهى منظمة البوليس السرى القيصرى . وما كاد البلشفيك يستولون على زمام السلطة حتى بادروا إلى إنشاء منظمة جـديدة أسموها القومسيرية العامة فوق العادية للشعب الروسى، وأصبحت هذه المنظمة معروفة لدى الشعب الروسى والعالم باسم

« شيكا » وهى مجموعة الحروف الأولى من اسم المنظمة ، ولا تزال كلمة « شيكا » تحمل طابع الرعب الذى كانت هى أداته والتى قال عنها لينين إن الغرض من الرعب هو الإرهاب . ولعل الذكريات المخيفة والتى لاعداد لها والتى اتصلت باسم « شيكا » من ضمن الأسباب التى حملت على تغيير اسم « شيكا » إلى عديد من الأسماء أمثال « جبيو » و « أوجبير » و « إنكفدى » حتى وصلت إلى الأسم الحالى وهو « امفيدى » وصنوه « امجبى » .

والشيوعيون لم يقيموا نظام البوليس السرى دون أن يقدموا للشعب الذى يريدون تنظيم حياته المعاذير التى تبرر مسلكهم. من ذلك ماجاء فى الطبعة الأولى من دائرة المعارف السوفيتية من « إن أداة الإكراه المتمثلة فى محاكم وسجون الجبيو ستُحتفظ بها مؤقتا طالما استمرت مقاومة البورجوازية ، فإذا ماحبطت هذه المقاومة فإن هذه الأسلحة الارهابية ستذوى وتزول بنفس النسبة التى تذوى وتزول بها المقاومة البورجوازية ، وستختفى الدولة باختفاء النظام الطبقى للمجتمع »

وفى عام ١٩٣٩ صرح ستالين « بأن مهمة الإكراه داخل الاتحاد السوفيتى قد انتهت وذبلت ،فقد انتهى المستغلون ، ولم يعد فى روسيا من يُستخدم الإكراه ضده »

ورغم هذا التصريح فليس فى الأفق ما يدل ولو من بعيد على أن نظام البوليس السرى فى روسيا قد قارب الزوال بل على العكس ، فإن هذا النظام ينمو باطراد ويزداد قوة وسلطانا فى ظل حكم ستالين . وأصبحت هذه الأداة مظهرا من المظاهر التقليدية الدائمة فى حياة الشعب السوفيتى فى ظل الشيوعية ، كما كانت من قبل فى عهد القياصرة . وهذا التضارب العنيف الواقع بين المبادىء الشيوعية الأولى و بين الشيوعية كما يطبقها ستالين كان لابد له أن يُحسم بطريقة ما، ومن ثم وصف الحزب

البوليس السرى اليوم بأنه الملاك الحارس للشعب السوفيتى ضد المكائد الأجنبية وضد عملاء الأعداء من أجانب ومحليين . ووصفت إدارات أمن الدولة على أنها ظاهرة من المظاهر المحبوبة الخيرة للثقافة الاشتراكية. وترى إلى أى حد بلغت القحة بهذا الكاتب الذى وصف فى صحيفة برافدا أخيرا نظام البوليس السرى المخيف بهذه العبارات العجيبة « لقد خدمت منظمات البوليس السرى السوفيتى الشعب بإخلاص خلال ثلاثين عاما . وإن هذا البوليس لمحاط بما هو خليق به من الاحترام والثقة من الشعب فى بلادنا ، فالشعب يتجه إليه ليقوم على حراسة ماحققته ثورة اكتوبر ، كما أن العمال فى الاتحاد السوفيتى يعلمون أشد العلم أن منظمات أمن الدولة والتى كان يسميها الشعب تقليديا « شيكا » قد دافعت بإخلاص عن المصالح الحيوية للشعب وحافظت على الأمن والسلام فى أرض الوطن الاشتراكى ، ولهذا السبب فإن الشعب الروسى لايثق فحسب فى اليد الحديدية لشيكا بل هو يقدم لها كل يوم المساعدة الفعالة فى عملها النبيل لحماية نشاط الملايين من الأعمال الهدامة التى يقوم بها عملاء الدول الاستعمارية ».

ومثل هذا الهراء قد يقنع بعض الذين يعطفون على الشيوعية فى هذه البلاد والذين يعيشون بعيدا عن متناول اليد الحديدية للشيكا . أما الشعب السوفيتى فيعرف حق المعرفة أن الآلاف الذين يضمهم سجن « لوبيانكا » وغيره من السجون وملايين العمال الذين يعملون فى معسكرات السخرة وتعج بهم السجون ماهم إلا مواطنون سوفيتيون أكثرهم لم ير أجنبيا فى حياته البتة، ومن ثم كان من الضرروى أن يفسر هذا . وقدأخذت صحيفة ازفستيا على عاتقها هذا التفسير فقالت : « لقدقويت قوى المقاومة فى الأيام الأخيره فتحول الاستعمار الأمريكى إلى قوة عدوانية تبغى التوسع الصريح، وإن المحاكمات الأخيرة التى تمت فى بلغاريا ورومانيا والمجر وغيرها من الدول لتكشف

عن أن الجاسوسية الرأسمالية قد أخذت تستغل قوى المقاومة الداخلية لتحقيق أهدافها الهدامة » .

وعلى هذا أصبح دوام قيام البوليس السرى السوفيتى مسألة غير منكورة حتى من المواطن السوفيتى الذى يسهل التأثير عليه . وهكذا استغلت فكرة التجسس الرأسمالى لصالح السياسة الخارجية العدوانية لحكام الاتحاد السوفيتى . والحقيقة هى أن الحكومة السوفيتية تجد من المستحيل عليها عمليا بالطبع أن تقوم بالعمل دون منظمات الأمن والبوليس السرى التى تقوم بربط جميع أجزاء الدولة الشيوعية بعضها إلى بعض . وليست مهة هذه المنظمة قاصرة على الرقابة السياسية ، بل هى فى الواقع حجر الزاوية فى البناء الاقتصادى السوفيتى . وقد بدأ الاتحاد السوفيتى بانشاء أول معسكر للسخرة فى جزائر سولوفتسكى فى البحر الأبيض خلال سنة ١٩٢٣ وتوسعت الحكومة السوفيتية فى تطبيق النظام الروسى القديم الخاص بالأشغال الشاقة وجعلت منه نظاما اقتصاديا هائلا لاستغلال وتحسين المناطق المتطرفة فى الاتحاد السوفيتى التى تعتبر الحياة فيها من أشق وأصعب ما يمكن ، والتى لا يمكن أن تجذب العمال الأحرار إلى العمل فيها مهما بلغت المغريات التى تقدم لهم ، ولكن عن طريق الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة استطاعت أن تسخر ملايين العمال فى هذه المناطق مما مكن للنظام السوفيتى أن يركز نفسه فى التوسع فى الصناعات الثقيلة دون أن يهتم بتنشيط انتاج البضائع التى يحتاجها المستهلكون من العمال الأحرار . وتقوم منظمة البوليس السرى « الإمفيدى » بادارة هذه القوة الهائلة من العمال وتؤجر بعضهم بصناعات أخرى ، ولكنها تستخدم الغالبية العظمى فى شبكة واسعة الأطراف من صناعات الدولة .

وقد ألفت كتب كثيرة تصف الحياة التى يعيشها العمال فى معسكرات السخرة وتوضح نظام الأحكام الذى يطبق فى الاتحاد السوفيتى ولكنى أخشى أنها جميعا لم تقنع شعوب البلاد الأخرى بعدم توفر الحرية الشخصية فى الدولة البوليسية. ومن أحدث الكتب فى رأيى التى عالجت هذا الموضوع وقدمت أدق دراسة لنظام معسكرات السخرة كتاب دافيد دالان الذى قوبل بنحد لان الاحصاءات التى ضمنها قد جاوزت حد التصديق عند الشعب الامريكى . ومن وجهة نظرى انه سواء أكان عدد المساجين السياسين فى الاتحاد السوفيتى قد بلغ مليونا اوعشرة ملايين فالخلاف فى تقدير العدد ليس هو المهم فى الموضوع و إنما المهم هو هذه الحقيقة البسيطة وهى أن عددا من افراد الشعب الروسى يجردون فى ظل الحكم الشيوعى من حريتهم الشخصية و يرسلون إلى معسكرات السخرة لاسباب سياسيه واقتصادية فحسب .

وقد ذكر لويس فيشر فى كتابه « التحدى الأكبر » قصة سمعها من ابنه الكابتن جورج فيشر الذى كان أحد الضباط الامريكيين المقيمين فى قاعدتنا العسكرية التى تخرج منها قاذفات القنابل فى بولتافا فى اوكرانيا — . وقد حاول كابتن فيشر أن يشرح للضباط الروس الغرض من عملية جمع الأصوات التى كانت جارية بين صفوف القوات الأمريكية إبان انتخابات الرئاسة فى سنة ١٩٤٤ . فقد قال له احد الملازمين فى الجيش الأحمر « إننى لا أفهم . . . أتعنى أن روزفلت ديموقراطى وأنه كان رئيسا للولايات المتحدة لعدة سنوات ومع ذلك فما يزال فى الجيش الأمريكى جمهوريون ؟ »

وهدف منظمات الأمن فى الاتحاد السوفيتى هو منع الجمهوريين من التداول واستخدامهم لصالح الدولة الاقتصادى لأبعد مدى. وأى فرد يحاول أن يصبأ فى أفكاره السياسية و إن يخرج عن حدود الحزب ، يعرض نفسه للعذاب المقيم ويقع تحت طائلة

القبض والحكم عليه دون محاكمة علنية أو نصوص قانونية أساسية و تفرض عليه الأشغال الشاقة لأمد طويل فى بقاع بعيدة من الأرض السوفيتية .

والأمريكى الذى يعرف هذه الحقيقه تأخذه الدهشة لأول وهلة من أن الشعب السوفيتى لا تبدو عليه أية دلائل تدل على وعيه لهذه الرقابة البوليسية التى تتعقبه فى كل مكان ، ولا على أعمال العسف التى تقوم بها منظمات أمن الدولة . وفى الحق لقد عشت فى موسكو وقتا طويلا قبل أن أدرك أن الشعب السوفيتى مهيىء عقليا لقبول أحداث الاعتقال والنفى كما نحن مهيئون عقليا هنا لحوادث السيارات التى قد تصيبنا ونحن نعبر الطريق . ومقاومته الوقائية لهذه المخاطر مقاومة أتوماتيكية .. و إذا أردنا أن نعرف الصورة الحقيقية فعلينا أن نقوّمه بالأعمال وهذا عمل غاية فى الصعوبة. ولكنى على أية حال استطعت أن أصل إلى بصيص من الحقيقة من ملاحظتى لقلة من أمواج البشر التى تمر بالقنصلية الأمريكية طالبة إما منحها الجنسية الأمريكية أو الاذن لها بدخول أمريكا . فمثلا مربى هذا الرجل الذى كنا نسميه « حارس النحل » ؛ هذا الرجل عاش فى أمريكا عدة سنوات ولكنه فى سنة ١٩٢٣ عاد إلى الاتحاد السوفيتى. وفى مايو من هذا العام انتقد علناً الظروف القائمة فى الاتحاد السوفيتى نقدا حادا وقبض عليه رجال «شيكا» . و بعد سؤاله عن الاتهامات الموجهة إليه بالتجسس حكم عليه فى جلسة سرية (أو ما معناه دون محاكمة رسمية) بالاقامة فى جزائر سولوفوتسكى إلى أجل غير مسمى . وافرج عنه بعد عشر سنوات ونفى إلى مدينة صغيرة فى سيبريا حيث استطاع أن يفلت منها بعد بضعة شهور وأن يعود إلى موسكو بطريقة غير قانونية . وفى موسكو قبض عليه مرةأخرى وحكم عليه بثلاث سنوات لحرقه قرار النفى وأرسل إلى أحد معسكرات السخرة بالقرب من خاباروفسك . و بعد أن أمضى سنتين هناك

فر وعاد إلى موسكو على أمل أن يصل إلى الحدود ، وكان قد أسر إلى صديق بمشروعاته ، فلم يمر يوم حتى كان نزيل سجن لو بيانكا ، وفى هذه المرة أرسل إلى كوليما وحكم عليه بالسجن المؤبد و بقى فى معسكرات الاعتقال هناك حتى يونيه سنة ١٩٤٥، وعندئذ نفى إلى مدينة صغيرة تبعد حوالى ستمائة كيلو متر عن نوفوسبريسك ، وهناك تصنع الضعف والجنون وكان يذرع أرض التندورا بلا هدف وكان كثيرا ما يغفل عن قيد اسمه يوميا فى كشوف المبعدين ،الأمر الذى تلزمهم به السلطات القائمة على النفى. وكان فى بعض الأيام يقوم بذبح غزال أو غيره من حيوانات الصيد ثم يبيع لحمه بأقل من السعر المقرر . ورويدا رويدا اقتنعت السلطات من تصرفاته أنه فقد توازنه العقلى ومن ثم لم تعد تأبه لحركاته ..

وذات يوم فى أغسطس سنة ١٩٤٦ ذهب إلى النهر فظاهرا بالرغبة فى الاستحمام وهناك ترك ملابسه على الشاطىء مما يوحى بأنه غرق ثم بدأ رحلة طويلة من سيبريا إلى موسكو قطع أكثر من نصفها مشيا على قدميه . وحين قابلت هذا الرجل كان قد قضى فى معسكرات الاعتقال وفى النفى حوالى ثلاث وعشرين سنة .

والقصص التى يرويها أمثال هذا الرجل كلها متفقه فى المعنى سواء أكانت وصفا للسنوات الطوال فى جزائر سولوفنسكى فى البحر الأبيض أو فى مناطق خاباروفسك أو كوموسوللسك أو فى مناجم الذهب فى كوليما أو فى معسكرات باجادن وهى ترسم صورة لحمتها التعاسة ورداءة الطعام وخشونة العيش والعمل الجاف المضنى والنظام القاسى والموت المتزايدة نسبته، والذين يقدر لهم أن ينجوا بأعمارهم من هذا السجن الطويل يرسلون عادة ليقضوا بقية أيامهم فى مناطق متطرفة من الاتحاد السوفيتى مثل تاروخارسك وينسى وطشقند وخارقند و بخارى وخازستان . ويندر أن يسمح للشخص الذى يوسم بأنه

خطر سياسيا بأن يعاود الحياة فى إحدى المدن الكبرى بالاتحاد السوفيتى . ويبدو أن هذا النظام القائم على معسكرات الاعتقال والسخرة يسد جزئيا الحاجات الاقتصادية فى الاتحاد السوفيتى . وقد قال لى أحد المساجين السياسين السالفين « ما من رجال أحرار يمكن أن يرضوا القيام بالأعمال المفروضة على المساجين . وطالما أن هناك أعمالا تؤدى فى ظروف مهينة للإنسانية فسيظل نظام معسكرات السخرة قائما فى روسيا »

ومن المظاهر المحزنة فى نظرى لهذه السياسة القائمة على السخرة التى يفرضها البوليس السرى على المذنبين السياسيين، مصير أطفال هؤلاء المنفيين. فهؤلاء الأطفال يشاركون إلى حد ما فى تحمل شناعة الانحراف السياسى الذى ألصق بوالديهم . ولقد مرت بى تجارب شخصية لحالات متعددة من هذا النوع أثناء طلبات قدمت للحصول على الجنسية الأمريكية . وهؤلاء الأطفال يُتركون عادة لرعاية أجدادهم أو بعض أقاربهم المسنين ، ويصبحون عبئا عليهم فوق أعبائهم إذ يزداد عليهم فم جديد فى حاجة إلى الغذاء . وهذا اليتم الصناعى الذى يُفرض عليهم يجعل مجرد بقائهم أحياء جهادا قاسيا. وفى أحسن الحالات يوضع هؤلاء الأطفال فى إحدى المؤسسات الحكومية وتمنح الدولة أولئك الذين لا يذهبون إلى المؤسسات معاشات صغيرة، ولكن من الحالات المحزنة التى مرت بى تبين لى أن هذه المعاشات لا تعدو أن تكون رمزا فقط .

ولما كان معظم هؤلاء الأطفال ينحدرون من أسرات الطبقة المنعلمة فإنهم إذا كانوا فى سن يسمح لهم بالتفكير فى المستقبل فانهم يكونون عادة طموحين إلى التعليم، ولهذا السبب يتراخون فى قبول الدخول فى المؤسسات الحكومية لأنه فى ظل الظروف العادية لا يذهب إلى الجامعة إلا واحد من كل مائة من نزلاء هذه المؤسسات للتنافس القائم بين مطالب العمل ومطالب التعليم. يضاف إلى هذه أن أبناء المساجين السياسيين

يخضعون لسياسة تميز غيرهم عليهم. ووجهة نظر الطبيعة المثقفة من هذا العسف السياسى تنطوى على تسليم عجيب بالقضاء . وقد قال ناقد معروف جدا تنبأ سلفا بحملة التطهير التى وجهت فى سنة ١٩٤٧ ضد المثقفين لأحد أصدقائى «إن سكة حديد سيبريا الجديدة ستبنى خطوطها على عظام أمثالى».. وقد قبض على هذا الرجل فى يناير ١٩٤٨.

والاتحاد السوفيتى ينفى دائما أنه يستخدم الجماهير فى أعمال السخرة . وقد اضطر مولوتوف فى أوائل عام ١٩٣١ تحت ضغط النقد الأجنبى المتزايد ، أن يلقى بيانا فيما يختص باستخدام العمال بالسخرة لانتاج المواد المصدرة ، فقال :

« إننا لم نحاول قط أن نخفى أننا نستخدم العمال المساجين القادرين على العمل والمتمتعين بصحة جيدة فى بعض العمليات الخاصة بالطرق والبلديات . وقد فعلنا ذلك فى الماضى ونحن نفعله الآن وسنفعله فى المستقبل لصالح المجتمع ولخير هؤلاء المساجين لأنه يعوّدهم على العمل ويجعل منهم أعضاء نافعين للمجتمع . ونحن نستخدم المساجين من العمال بصورة أوسع فى بعض الاقاليم الشمالية التى كتب بشأنها كثيرا فى الصحافة الأجنبية البورجوازية فى حملاتها الخاصة بالسخرة ، ولكن هذا العمل لا صلة له بصادراتنا . وعلى أية حال فهذه الخرافات التى تقال حول السخرة يجب أن يوضع لها حد » .

وهذا القول يبدو صريحا ومعقولا لو أنه كان صادقا ولكنه غير صادق . ومن الواضح على الرغم من تعذر الحصول على أرقام دقيقة أن هذا العمل الاجبارى الذى يستمد قوته من موارد أربعة رئيسية ليستخدم على مدى واسع جدا ـ وهذه الموارد الأربعة هى :

(١) العمل الذى يفرض على المسجونين دون محاكمة قانونية ، أى الذين يسجنون بأمر من البوليس السرى أو إحدى منظمات الأمن الداخلى مباشرة ودون محاكمة

(٢) أسرى الحرب .

(٣) المساجين المحكوم عليهم بالشغل من أبناء المناطق الأوروبية التى اجتاحتها جيوش الاتحاد السوفيتى أثناء الحرب .

(٤) العمال الذين تقوم بتشغيلهم هيئة العمال الأحرار المزعومة (من عمال المصانع والمزارع) فى ظل شروط غاية فى التحيز وانتفاء الحرية الشخصية فى اختيار نوع العمل ومكانه .

وقد اختلفت التقديرات فى تعداد العمال المسخرين وتراوحت ما بين بضعة ملايين إلى عشرين مليونا . أما تقديرى الشخصى الذى وصلت إليه بعد بحث كل الموارد الممكنة، فهو أن عدد هؤلاء العمال المسخرين يبلغ حوالى ٨٪ من سكان الاتحاد السوفيتى أى حوالى ١٥ مليونا .

وقد كتب الكثير عن اعمال السخرة فى الاتحاد السوفيتى وكلها تشير إلى الطبقات الثلاثة الأولى التى ذكرتها ولكن قليلين خارج الاتحاد السوفيتى هم من يعرفون بوجود المصدر الرابع وهو هيئة العمال الأحرار المزعومة .

وفى عام ١٩٤٠ أنشأت الحكومة السوفيتية بحكم القانون احتياطيا للعمل . . هذا القانون أقام نظاما لتجنيد الشباب للعمل فى الصناعات والنقل . ولتحقيق هذا الغرض انشأت ثلاثة انواع من المدارس للعمال هى: المدارس المهنية ومدتها سنتان وتعد الصناع الفنيين المهرة ، ومدارس للسكك الحديدية ومدتها سنتان وتعد مهرة الصناع فى اعمال السكك الحديدية ، ومدارس المصانع ومدتها ستة اشهر وتعد الصناع العاديين فى الحرف الجماعية فى دور الصناعة وأعمال البناء .

ويقضى قانون عام ١٩٤٠ بتجنيد ما بين ٨٠٠ الف ومليون عامل سنويا من الذكور الذين تتراوح أعمارهم مابين ١٤ و ١٥ سنة للانخراط فى سلك المدارس المهنية ومدارس السكك الحديدية. ومابين ١٦ و ١٧ سنة للمدارس الأخرى . وهؤلاء الشبان الذين يطلبون لهذه المدارس يعفون من الخدمة العسكرية مدة التدريب المهنى ولمدة اربع سنوات بعد التخرج على أنهم خلال هذه المدة مطالبون بالعمل حيث يوجهون بمعرفة مدير إدارة احتياطى العمل . وتيسر لهؤلاء الطلاب اسباب المعيشة على حساب الدولة مدة الدراسة كما تدفع لهم أجور العمال المنتظمين بعد ذلك .

وفى يونيه عام ١٩٤٧ عـدل هذا القانون ليسمح بدخول البنين مابين الرابعة عشرة والسابعة عشرة والبنات مابين الخامسة عشرة والسادسة عشرة فى المداس المهنية ومدارس السكك الحديدية ودخول الذكور والاناث بين السادسة عشرة والثامنة عشرة فى المدارس الأخرى . وقضت فقرة خاصة فى هـذا القانون بقصر الدعوة إلى العمل فى المناجم وحقول الزيت على الشبان إلى سن التاسعة عشر ولم يذكر أى شىء بشأن التدريب المهنى لهؤلاء .

وقد عنى القانون عناية مستفيضة بوضع الشروط الخاصة بالتعليم المهنى الواقعى فى نظام العمل الاحتياطى ، إلا أن هذا كله يعتبر ثانوى الاهمية بالنسبة للهدف الرئيسى الذى قصد إليه القانون ، وهو توفير إمداد مستمر من الشبان المجندين للعمل مـدة اربع سنوات حينما تقرر سلطات العمل السوفيتية ، وهكذا يوجه الشاب أو الشابة من ابناء الاربعة عشرة والخمسة عشرة الذين لا يظهرون قدرة على مواصلة التعليم العالى أو الذين تنقصهم فرص التعليم إلى القيام بما يفرض عليهم من أعمال شاقة وبعد انتهاء التدريب المهنى ـ الذى قد يكون اسميا والذى قد تتراوح مدته من يوم إلى سنتين ـ يجب على الشاب

المدرب أن يعمل مدة اربع سنوات فى أى مكان ترسله إليه الدولة . وعلاوة على ذلك ـ وهذه ناحية أخرى مهمة ـ فان الطالب ملزم بحكم القانون بأن يظل فى عمله مالم يحصل من مديره على إذن بمغادرة المصنع والعمل فى مكان آخر ، وهكذا يلصق بالعمل طول حياته وتخمد فيه كل كفاية كامنة قد يكون بروزها مساعدا على احترافه عملا مهنيا جديدا ، وعليه أيضا أن يؤدى بعد ذلك خدمته العسكرية التى قد تتراوح بين سنتين وخمس سنوات . وتتوقف المدة على الفرع الذى يوجه إليه .

ولهـذا السبب ، فان مدارس المصانع بالذات لايقبل عليها عامة الشعب . ونظرا لقلة المتطوعين فان حصة هذه المدارس من الشبان تؤخذ عن طريق التجنيد ، وفيما أعلم ليس لأحد حق الاعتراض . والاولاد الذين يتألف منهم الاحتياطى الحر للعمل كانوا جميعا فى ملابس عسكرية ويخضعون كما هو ظاهر للنظام العسكرى . وعند تخرجهم يصبحون أعضاء فى نقابات العمال وهى فى روسيا ليست هيئات مستقلة للمساومة تعمل كما فى بلادنا لتحقيق صالح افرادها من العمال، بل هى هيئات تابعة للدولة السوفيتية وتقوم بدور الوسيط لجمع العمال باعتبارهم أداة من أدوات الدولة . واضراب العمال ممنوع . وقد لقى « فيليب موارى » و« جيم كارى » وغيرهما من زعماء العمال الامريكيين نفس التجربة المسلية التى فزت بها حين حاولوا الزام كوزنتسوف رئيس نقابات العمال فى الاتحاد السوفيتى بالتحدث عن العلاقة الواقعية بين النقابات وافراد العمال ، وعن قوة النقابات فى المساومة والاضراب .

ويبدو أننا والروس فى هذه المسائل لانتكلم عن أشياء متداولة يعرفونها كما نعرفها . وفى احدى المناسبات لخص ستالين لهارى هوبكنز الموقف فى روسيا فى خمس كلمات . وروى لى هوبكنز أنه كان يتحدث إلى ستالين فى المحادثات الاولى الخاصة بقانون

الاعارة والتأجير وقال ردا على شكوى ستالين من بطء وصول بعض المواد المطلوبة لروسيا : إن هذا حدث بسبب الاضراب فى الولايات المتحدة ، فرفع ستالين حاجبيه دهشا وقال « إضراب ؟ !.. أليس لديكم بوليس ؟ ! ! »

والمهمة الاولى لمنظمات البوليس السرى هى عزل المعارضة السياسية لا فى خارج الحزب فحسب ، بل فى داخله وفى المناصب الرئيسية فيه . فالحياة العامة والخاصة لكل فرد من أفراد الحزب هى موضع البحث الدقيق الدائم لقوات البوليس السرى . وكلما علا مركزه فى الحزب زادت الرقابة عليه دقة . والمواطن العادى فى الاتحاد السوفيتى من ناحية اخرى يمارس وعيا سلبيا بالنسبة للبوليس السرى طالما هو مقيم حيث قيد فى سجلات البوليس مؤد لعمله وممتنع عن التعليق ونقد أعمال الحزب الشيوعى أو النظام السوفيتى .

أما إذا تحول قيد أنملة عن الطريق العادى الذى يسلكه ، فإنه يقبض عليه فى الحال كما يقبض على جميع أقاربه ومعارفه فى نفس الوقت .

ويقوم البوليس السرى بأعمال القبض فى الليل عادة وفى جو من الغموض المخيف الذى يرهب حتى الأجانب المتمتعين بالحصانة الديبلوماسية . ومن النكات الشائعة فى موسكو والتى يرويها الروس وعلى فمهم ابتسامة ملتوية ، أن بواب إحدى العمارات يسير فى منتصف الليل فى ممرات العمارة ويدق على أبواب الشقق صائحا بأعلى صوته « لاتخشوا شيئا أيها الرفاق إنها نيران فقط . . . »

ومن الجرائم السياسية العامة المنصوص عنها فى المادة ٥٨ من قانون الجنايات السوفيتى القيام بأى عمل لاتوافق عليه السلطات السوفيتية . والمتهم فى هذه الحالة يحاكم

سريا ولايسمح بنشر أى شيء عن محاكمته . وتقوم بهذه المحاكمات محاكم خاصة من رجال البوليس السرى . وهناك نصان آخران فى القانون السوفيتى مذهلان للغربيين على وجه الخصوص ولكنهما ضروريان لاعمال نظام الدولة اليوليسية . والنص الأول هو المادة ٥٨ ـ ١ ـ ج من القانون الجنائى الذى نفذ اعتبارا من ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٤ وهو كالآتى :

« فى حالة هرب أو فرار احد رجال الخدمة العسكرية من طريق الحدود فإن الأفراد البالغين من أسرته يعاقبون بالسجن وحرمانهم من حريتهم لمدة تتراوح بين خمس وعشر سنوات و بمصادرة املاكهم ، إذا كانوا قد سهلوا بأى طريق ما الاستعدادات الخاصة بهذه الخيانة العظمى أو ساعدوا على ارتكابها أو عرفوا بها ولم يبلغوا السلطات المختصة . أما بقية أفراد الاسرة الذين يعيشون مع الخائن أو يعولهم وقت ارتكاب الجريمة فإنهم يحرمون من حقهم الانتخابى وينفون إلى الأقاليم النائيه فى سيبريا لمدة خمس سنوات » .

ولفظ رجال الخدمة العسكرية فى الاتحاد السوفيتى يشمل كل فرد خدم فى القوات المسلحة فى أى وقت من الأوقات ، أو تلقى أى تدريب عسكرى ، ذلك أن كل هؤلاء بموجب القانون العسكرى السوفيتى يعتبرون أعضاء فى الاحتياطى العامل للقوات المسلحة السوفيتية . وقد كان الرأى ونحن فى موسكو طبقا للمعلومات التى يعول عليها هو أن هذا النص مطبق بصفة عامة . وهذا النص يحيل ملايين الأسر للمواطنين السوفيتيين إلى رهائن ويجعل التهديد الموجه إلى الابرياء غاية فى الفظاعة وفى الحق لقد استفظعت هذا الوضع و بدأت أشك غاية الشك فى أولئك الهاربين الذين يتسللون من الاتحاد السوفيتى تاركين وراءهم نساء وأطفالا .

والنص الثانى هو قرار للجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتى صادر فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ ومنشور فى طبعة سنة ١٩٤٧ للقانون الجنائى الروسى ، وهو خاص بالمواطنين الروس الذين يرفضون العودة إلى الاتحاد السوفيتى وهو كالآتى :

١ ـ إن رفض المواطن الروسى الموظف فى إحدى الادارات الروسية التى تعمل فى الخارج العودة إلى أرض الوطن بناء على طلب السلطات المختصة يعتبر من قبيل الهرب إلى معسكر اعداء العمال الفلاحين و يسلك فى سلك جرائم الخيانة .

٢ ـ يعتبر خارجا على القانون كل شخص يرفض العودة إلى الاتحاد السوفيتى .

٣ ـ يترتب على الخروج على القانون مصادرة جميع أملاك وأموال المواطن الخارج على القانون و إعدامه رميا بالرصاص خلال أربع وعشرين ساعة من التعرف عليه .

٤ ـ تنظر فى هذه الاحوال جميعها المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى .

٥ ـ تُنشر اسماء الخارجين على القانون وتوزع على جميع الهيئات التنفيذية بالاتحاد السوفيتى ومنظمات البوليس السرى .

٦ ـ يكون تنفيذ هذا القانون رجعيا .

ولما كان هذا القرار لم يذكر شيئا خاصا بالعقوبات التى توقع على أسر الممتنعين عن العودة إلى بلادهم على الرغم من أن ترك أحد المناصب فى الخارج يعتبر فى نظر السوفيت أشد خطورة من مجرد محاولة الهرب من الاتحاد السوفيتى ، فإنه من الصعب تصور خلوها من هذه العقوبات التى تصب على الأسر . ولكن البحث كشف لى أن هناك ادراكا عاما فى صفوف المواطنين السوفيت بأن عقوبات شديدة تطبق فعلا

على أسرات أولئك الذين يتخلون عن مناصبهم فى الخارج وأن هذه العقوبات لم تذكر فى قانون الجنايات المنشور لكنها مذكورة فى القسم السرى منها الذى تطبقه منظمات البوليس السرى الروسى والذى يحاط الموظفون الذين يعهد اليهم بالعمل فى الخارج بمضمونه قبل رحيلهم .

وتستهدف نصوص القانون السوفيتى اغراضاً تخالف كل المخالفة الأغراض التى تستهدفها الادارة المحايدة للعدالة والتى تعتبر الغاية المثلى للتشريع الانجلوسكسونى . وقد كتب فيشنسكى فى بحث له يُعتبر مرجعا فى القانون الجنائى الروسى « أن المهمة الأولى للنظام القضائى فى الاتحاد السوفيتى هى حماية مصالح الطبقة العالية ، وعلى عكس النظام القضائى فى الدول البورجوازيه الذى يحاول إخفاء طبيعة الحقيقة وهى العمل على حماية الطبقة تحت ظل الادعاء باستقلاله عن جميع السياسات الحكومية . أما محاكم الطبقة العالية فلا تحاول أن تخفى حقيقة أمرها وهى أنها أنشئت فى الأصل لحماية هذه الطبقة . والنظام القضائى هو اليد التى يستخدمها العمال والفلاحون للسير بمصالحهم فى وجه الطبقات الأخرى » .

وانى لأوافق فيشنسكى فى تعريفه للقانون السوفيتى ولكنى اخالفه فى نقطة واحدة — وهى أن فيشنسكى كان أحرى به أن يستعمل كلمة الحزب الشيوعى بدل العمال والفلاحين ليكون تعريفه صحيحا لأن الكلمتين فى رأيى غير مترادفتين .

ولعل شعب الولايات المتحدة قد استغرب أخيرا الجهود العنيفة التى بذلتها السلطات السوفيتية لاسترجاع اثنين من صغار موظفى القنصلية السوفيتية فى نيويورك فرا من القنصلية ، كما استغربت أنا من قبل فى أعقاب الحرب الحملة المنظمة النشطة التى قام بها الاتحاد السوفيتى لحمل جميع المواطنين الروس المصابين فى الحرب على

العودة إلى الاتحاد السوفيتى وقدرفض كثير منهم العودة ولجأ البعض إلى الانتحار حين ظنوا أنهم سيُحملون على العودة قسرا . وقد وجهت سؤالا بهذا الخصوص إلى فيشنسكى الذى أجابنى بأن الاتحاد السوفيتى بالطبع غير راغب فى أن يستعيد من لا يرحب بالعودة إلى وطنه ، غير أن معظم اللاجئين الذين تمنحهم أمريكا الرعاية هم من الخونة ومجرمى الحرب !!

وقد عرفت السر الآن أكثر من ذى قبل ، فالحكومة السوفيتية تدرك تماما المخاطر التى تكمن وراء بقاء آلاف من رعاياها فى الخارج ليشهدوا من تجاربهم الخاصة ضد أعمال ووسائل الدولة اليوليسية . ولما كان هؤلاء الممتنعون عن العودة يشتعلون وطنية ، فإنهم ينضمون بسرعة إلى المنظمات القومية لاستونيا ولتوانيا ولاتفيا وأوكرانيا التى تواصل جهودها يحفزها أمل ضعيف فى مستقبل تظلله الحرية والاستقلال . وهذه المنظمات كلها تجاهد الشيوعيين فى الخارج . وقد أتيح لى أخيرا أثناء مؤتمر السلام الذى عقد فى باريس أن أحادث أحد الساسة من الشيوعيين وأن أبحث معه هذا الموضوع ، وكانت ميزته عندى أنه كان يتكلم بصراحة أكثر من الآخرين . وقد لخص لى موقف البوليتبيرو (المكتب السياسى بالكرملين) والقلق السائد فيما يختص بمشوهى الحرب من السوفيت فى جملة واحدة غاية فى التركيز فقال « إن هذه هى مجرد بداية ! » . وقد قال الحق بالطبع .

وفى خلال الحوادث التى سبقت حملة التطهير الكبرى ، انحاز « ياجودا » رئيس البوليس السوفيتى إلى صفوف أعداء ستالين . وحين أصبحت كلمة ستالين هى العليا وبدأ حملة الإبادة ضد أعدائه قُتل « ياجودا » رميا بالرصاص وعهد ستالين برئاسة البوليس السرى إلى « بيريا » الذى كان موضع ثقته . وقد جدد بيريا وتوسع

فى منظمات البوليس وهيئات امن الدولة إلى حد لم يُعرف من قبل ولم يُشهد له مثيل أبدا . وقد بلغت هذه المنظمات تحت قيادته من الكفاية والقوة أبعد مدى . على أنه لا يعرف بالضبط تعداد قوات الأمن ، ولكنى مع ذلك على يقين من أنها لا تقل بحال عن مليون شخص ، نظم حوالى ٥٠٠ ألف منهم تنظيما عسكريا على أساس أنهم وحدات حربية مزودين بالمدافع والدبابات والطائرات . وتتمتع منظمات أمن الدولة بالإشراف الكلى على كل منحى من مناحى الحياة . ولا تستطيع وزارة الخارجية الروسية أن تعطى لأحد من الديبلوماسيين أية تأشيرة بالدخول إلا بعد موافقة « رجال لو بيانكا » وهؤلاء الرجال لهم مصلحة فى عدم استقرار الامن لأن نمو ونفوذ هذه الآلة الرهيبة لبوليس أمن الدولة يزداد قوة ازديادا طرديا مع ازدياد المخاوف التى تتغذى عليها هذه المنظمات . وقد ظل الشعب السوفيتى خلال ثلاثين سنة فى حالة أقرب ما تكون اقتصاديا على الأقل من حالة الحصار ، فقد كانوا يُدعون لمواصلة العمل الشاق دون أن يحصلوا إلا على القليل من التعويض المادى . وقد استمروا على هذا الحال مدة أطول مما يحتمله صبر أى شعب أو يطيقه دون احتجاج اللهم إلا إذا كان هناك ثمة حافز قوى ـ هذا الحافز كانت تتكفل به الدولة على صورة سلسلة من الأعداء ـ فكان الأعداء الأول هم الطبقة البورجوازية التى يجب القضاء عليها والخلاص منها ، ثم جاء بعدهم المخربون من دعاة المذهب التروتسكى ، ثم جاء التهديد الألمانى القاتل . وكان خطر الحصار الرأسمالى رصيدا دائما مع الخوف من التخريب . ومخافة أن يصبح هذا السبب من المستهلكات ، دفعت الدولة البوليسية أسبابا جديدة هى ما أسمته تهديد الولايات المتحدة مثيرة الحرب للاتحاد السوفيتى . وقد أخذت تغزو نفوس الشعب يوميا بهذه الدعاية ـ وقد فعلت الدولة الشيوعية ذلك لأنها تعلم أن اشاعة

وجود مثل هذا التهديد يتطلب من الشعب الطاعة التامة دون مناقشة لأوامر الدولة . ولاحيلة للشعب ازاء منظمات البوليس ، فهم يذهبون إلى صناديق الانتخاب و يصوتون ولـكن الانتخابات السوفيتية ليست إلا « ألعوبة » سياسية ترقص فيها الجماهير مربوطة بأسلاك يحركها زعماء الحزب الشيوعى . وهدف هذه الانتخابات فى الخارج هو اخفاء حقيقة الدولة البوليسية وراء هذه الظلال الدستورية . أما فى الداخل فهى تنطوى على مظاهرات هائلة منظمة يسجل فيها الشعب تعاونه مع النظام الشيوعى سواء أكانوا يحبونه أولا يحبونه . و إذا احتاج هذا القول إلى دليل فالصحافة الروسية فى إبان الانتخابات تقدم أدلة لا حصر لها على ذلك .

ومن الأمثلة الطيبة على ذلك مقالة نشرتها قبيل الانتخابات صحيفة « الثقافة والحياة » الروسية ، وقد احتفظت بنسخة منها . وهذه المقالة تفارق فى احتقار ما بين الديموقراطية البورجوازيه وما بين الديموقراطية فى الاتحاد السوفيتى « التى تقوم على المساهمة الصحيحة الفعاله للشعب» ثم أكّد كاتب المقالة تأكيدا قاطعا بأن الانتخابات القادمة سيخرج منها الحزب الشيوعى كتلة موحدة تضم الشيوعيين والمواطنين الذين لا حزب لهم فى وحدة جماعية للشعب السوفيتى كله « ثم مضت الصحيفة بعد ذلك تحث رجال الدعاية فى الحزب والصحف الحزبية على مضاعفة جهودهم فى الدعاية الانتخابية . وذكرت الصحيفة أن حوالى ٢٤٠ ألف داعية يعملون فى موسكو ونصف مليون يعملون فى اوكرانيا وأن عشرات الملايين من النشرات السياسية قد وزعت .

يحدث كل هذا فى انتخابات تقوم على حزب واحد وليس فى كل دائرة إلا مرشح واحد ، وليس لـكل منصب إلامرشح واحد أيضا . وتلح الصحف فى ضرورة أن يبحث الدعاة الموضوعات المتصلة بالمهام الاقتصادية والسياسية التى تواجه الدولة

قائلة « إن عليهم أن يواصلوا الجهاد من أجل زيادة قوة الانتاج العمالية والدعوة للنظام فى صفوف العمال وأن يبثوا فى صفوف العمال الولاء لأهداف حزب لنين وستالين بروح من الغيرة ونكران الذات ، وإن على الصحف جميعا والراديو ومنظمى الاجتماعات العامة أن يحثوا الناخبين على التصويت بالاجماع للكتلة الشيوعية وغير الحزبية للشعب السوفيتى » . وتمضى هذه الافتتاحية تقول « إن الانتخابات القادمة ستبرهن بأدلة جديدة على حيوية الدولة السوفيتية وعدم قابليتها للتحطيم » .

والحقيقة المسلية فى الأمر هوأن هذه الانتخابات لا تحوى أسماء مرشحين آخرين يمكن التصويت لهم .

ومن الواضح جدا للزائر الأجنبى العابر ان الانتخابات الروسية ليست نضالا كما هو الحال فى البلاد الديموقراطية ، بل هى مسرحية تخرج بعناية .

فالطبقة الحاكمة التى تملك فى يدها الحكومة والبوليس والصحافة والراديو تستخدم الملايين من أعضائها كما تستخدم الجهاز الحكومى كله لتحصل على مائة فى المائة من أصوات الناخبين لمرشحيها المختارين . وفى هذه الانتخابات ليس للشعب خيار فيمن ينتخب أو رأى فى المشاكل التى تعرض له . والخروج عن نظام الحزب فى أى من هذه الشئون يصبح مسألة علاجها من اختصاص البوليس السرى ، ولكن ما من سوفيتى يحلم بتحدى سياسة الحزب فى اختيار مرشحيه أو وضع سياسته علنا . وأقول ما من سوفيتى يحلم بذلك وان تكن هناك من آن لآخر بضع حالات نادرة . وقد زرنا خلال انتخابات عام ١٩٤٧ بعض لجان الانتخاب كما زرنا بعض مراكز الدعاية الانتخابية المسماة « أجت بنكت » ، وقد حدث فى إحدى اللجان الانتخابية فى ساعة متأخرة من المساء أن أقبلت سيدة روسية عجوز متدثرة بمعطف

من القطن وقميص داكن من الصوف وتغطى رأسها بشال كبير وتلبس فى رجليها الحذاء الروسى المعتاد ، وتقدمت بإصرار إلى الموظف المسئول عن طريقة التصويت بالنفى . وسادت فترة سكون وارتفعت الحواجب فى دهشة ولكن الموظف المختص ـ وكان صاحب دعابة ومرح ـ أدرك أن مثل هذه السيدة لا ينطوى عملها على أى تهديد خطير للنظام الشيوعى ، فاعطاها بطاقة بيضاء وأرشدها بعناية إلى ما ينبغى أن تفعل . وأخذت البطاقة وغابت وراء الستار الذى أعد لمن يريد أن يعطى صوته سراً وهو مكان لا يجسر على دخوله سوى قلة ضئيلة . وقد سجلت السيدة معارضتها للظروف القائمة بصفة عامة وخرجت وهى تشمخ برأسها فى الهواء . . . لقد أبدت نزعتها الاستقلالية وخرجت مزهوة ! . .

الفصل السابع

الصناعة والزراعة

« هذا جو شديد قاس، والأمريكى يجد فيه من الأشياء الكثيرة ما يمتحن صبره . وقليل هم الذين يستطيعون بعد طول معاناة ، الفوز بعواطفهم . ولعل من أشد مظاهره اثارة للسخط تلك السرية التى يصادفها مضروبة على كل عمل هنا . وقلما يستطيع إنسان أن يحصل على معلومات دقيقة يستطيع الاعتماد عليها » . . .

«وأشد من ذلك وأنكى ، أنه مراقب أدق المراقبة فى كل خطوة يخطوها ، تلحظه عيون لايكاد يراها، تعد عليه حركاته وسكناته» .

« ان العقل الروسى يميل بطبعه إلى عدم الثقة فى الناس ولايختلف عن ذلك رجال الحكومة الرسميون . فكل شىء محاط بمظاهر لاحصر لها ، ولاشىء يمكن الحصول عليه إلا بعد ابطاء شديد مثير للنفس » ـ فقرات من رسالة بعث بها نيل براون وزير أمريكا فى روسيا من بلاط سان بطرسبرج فى ٢٧ يناير ١٨٥٣ ـ لعل أول ما يقع عليه النظر فى رقعة الأرض الشاسعة التى تخضع للسيطرة السوفيتية فى أوربا وآسيا هو هذا التماثل فى صورة موحدة للفقر والفاقة . فالكرملين يعتصر الدول التى تسير فى فلكه ويضغط على الشعب الروسى الذى طالت معاناته لبذل جهود أوسع مدى تنفيذا لمشروعات الخمس سنوات التى وضعها الكرملين ويريد أن يدفعها دفعا نحو التنفيذ .

ولامشاحة فى أن مستوى المعيشة فى جملته قد انخفض فى هذه المنطقه كلها ، ولم يمسسه ارتفاع ما نتيجة لتركيز الاتحاد السوفيتى سياسته فى انشاء الصناعات الثقيلة كالصلب ، والآلات، ووضعه الإنتاج اللازم لمواجهة مطالب المستهلكين من الشعب فى المرتبة الثانية .. والتحسن الظاهر فى اقتصاديات الاتحاد السوفيتى يقابله هبوط فى ميزان الاقتصاد فى الدول الدائرة فى فلكه والخاضعة لسلطانه ، ومن ثم فإن الزيادة هنا يقابلها نقص هناك ، مما أدى إلى توازن الاقتصاد وتقارب مستوى المعيشة فى جميع انحاء الفلك الشيوعى كله بحيث بات يشملها مستوى عام مشترك .

ومشروع مولوتوف هو معكوس مشروع مارشال الأمريكى . فالاتحاد السوفيتى لا يعطى من قوته وموارده عونا يساعد الآخرين على الانتعاش ، بل على العكس يأخذ من الدول التابعة له الآلات وا المواد الخام وكل المنتجات والمصنوعات التى يستعيد منها الاتحاد السوفيتى فى تدعيم قواه .

ولقد استطاع الاتحاد السوفيتى خلال ثلاثين سنة بجهود فوق طاقة البشر جند لها قوى العمال المسخرة، أن يستحدث معجزة جديدة هى تحويل طاقة البلاد الاقتصادية من بلاد تعتمد كل الاعتماد على الزراعة إلى بلاد صناعية .. وقد بدأ الاتحاد السوفيتى بعد ذلك يطالب البلاد التابعة له بأن تحذو حذوه فى هذا الانقلاب الصناعى .

وشعوب لاتفيا ولتوانيا واستونياو بولندا وتشكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وإلى حدما بلغاريا ، كانت دائما تتمتع بمستوى عال للمعيشة اكثر من سكان الاتحاد السوفيتى . ويرجع ذلك إلى أن هذه البلاد كانت بلادا رأسمالية صغيرة تنشر فيها المزارع الصغيرة وتسود فيها الصناعات الصغيرة .

وكانت اقتصادياتها إلى ما قبل الحرب تعتمد على الزراعة اكثر من اعتمادها على

الصناعة . كما كانت تجارتها بصفة عامة تتجه إلى الغرب .. وكانت شعوبها ترتدى ملابس أحسن من ملابس الشعب السوفيتى ، كما كانت تسكن خيرا منه وتأكل أكثر مما يأكل . ومايزال بعضهم إلى اليوم أحسن حالا من جيرانهم الروس وإن يكن مستوى المعيشة فى هبوط مستمر ..

أما اليوم، و بتوجيه سادتهم الجدد ، فقد حملوا قهرا على تنفيذ برنامج واسع لاقامة المزارع الجماعية والتحول نحو الاقتصاد القائم على التصنيع الزراعى .. ولما كانت الحرب المدمرة قد سلبتهم كثيرا من مواردهم، كما نهب الجيش الأحمر جزءا كبيرا منها على أنها مغانم حرب أو رؤوس أموال نازية مزعومة ، ومن ثم أجبروا أثناء الحرب و بعدها على أن يقصروا تجارتهم على الاتحاد السوفيتى وحده . وهكذا أصبح تبادلهم مع العالم الخارجى فى اتجاه واحد فحسب هو اتجاه موسكو ، الأمر الذى كشف عنه بوضوح شعب يوغوسلافيا الذى ذاق مرارته .

وكانت النتيجة التى لا مناص منها هى تدهور إمكانيات الحصول على المواد الضرورية ومواد الترف التى يكد الأحرار من أجل الحصول عليها ليتمتعوا بحياة أفضل .

و يمكن إرجاع أسباب انخفاض مستوى المعيشة إلى حقائق تستمد وجودها من الواقع الاقتصادى فى البلاد، و إلى أسباب سياسية لاتقل أثرا من الأسباب الاقتصادية. ولعل رجال الكرملين ما يزالون يذكرون الدهشة التى استولت على جندى الجيش الأحمر الساذج وهو يزحف غربا ليدخل فى البلاد الرأسمالية المتداعية التى تستغل عمالها أبشع استغلال و يستعبدون غاية الاستعباد على حد ماغرسته فى عقله فى الدعاية الشيوعية ، فانه به يرى بنفسه أن العامل العادى حتى فى البلاد المتخلفة نوعا كرومانيا مثلا يعيش

حياة خيراً من تلك التى يعيشها العامل المدرب المجتهد فى المصانع السوفيتية .. وثمة أمر لا يمكن للروس احتماله أو الصبر عليه هوان يكون شعب رومانيا أو غيره من الشعوب المجاورة أحسن حالا أو أرغد عيشا من المواطنين السوفيت .. وقد اهتدى السوفيت إلى طريقة بسيطة لتلافى هذا الوضع .. هذه الطريقة هى اعتصار اقتصاد الدول التابعة للاتحاد السوفيتى. ففى الوقت الذى يرتفع فيه مستوى الحياة فى الاتحاد السوفيتى تدريجيا ينخفض مستواها فى الدول الشيوعية المجاورة والخاضعة له إلى حد يضمن فى وقت قريب اتحاد مستوى المعيشة الاقتصادية فى الرقعة السوفيتية كلها .. وقد ذكر ستالين لهارى هوبكنز كلاما كثيرا بهذا المعنى أوضح فيه أن السماح للشعب الروسى بالاتصال بالأجانب على مدى واسع وتمكينهم من التبادل مع العالم الخارجى سيتم حالما يصبح مستوى المعيشة فى الاتحاد السوفيتى فى مركز يمكن مقارنته بمستوى المعيشة فى البلاد المجاورة دون أن يكون الحكم فى هذه المقارنة فى غير صالح المستوى المعيشى للمواطن الروسى .

وفى الحق إنه حين أغلق مولوتوف وزير الخارجية الروسية الباب فى وجه المحادثات التمهيدية لمشروع مارشال فى باريس سنة ١٩٤٧ ، قضى قضاء نهائيا بتقسيم العالم إلى شطرين، لا سياسيا فحسب بل واقتصاديا أيضا .. وإنى أعتقد أنه حين فعل ذلك كان غير مدرك تمام الادراك للنتائج البعيدة المدى التى تترتب على مثل هذا الرفض للعرض الامريكى الكريم بتقديم المساعدة ، كما كان غير مدرك لما يترتب على الجهود المنظمة التى قام بها الشيوعيون للقضاء على أعمال الإنعاش الأوربى بحركات الاضراب والتخريب والمقاطعة .. ومن المعروف أن الماركسيين كانوا يعتقدون دائما أن « الولاء للدولة » يتبع الدولار وليس العكس .ومن ثم كانت صدمة لزعماء الاتحاد السوفيتى والدول الشيوعية الضالعة معه أن يتبينوا أن الأمريكيين لا يقبلون أن يبيعوا حتى فى مقابل «دولارات»

مصانع الصلب والعدد والآلات اللازمة لتصنيع شعوب هدفها العمل على تقويض دعائم حياتنا وتدمير مقوماتها .

ولاريب أن هذا الإدراك قد هز إيمانهم بإحدى المبادىء الشيوعية الأساسية التى يعولون عليها كثيرا فى نظريتهم القائلة بأنه لا مناص من انهيار الرأسمالية بحجة أن الوظيفة فى المجتمع غير الشيوعى تأتى دائما فى المرتبة الثانية بعد المكاسب !

والحكومة السوفيتية تجعل دائما من الصعب على أى أجنبى الحصول على صورة دقيقة لصناعتها وزراعتها لأسباب عسكرية وسياسية . والاحصائيات التى تسمح بنشرها غير وافية ... وفى رأيى إنه لايمكن الاعتماد عليها لأنها تكشف عن عموميات تجذب الأنظار ولكنها لا تربط الحكومة بشىء . وكثيرا ما توضع الاحصائيات التى تنشر فى صيغة توهم أن إنتاج سلعة معينة قد زاد بنسبة مئوية غير محددة عن إنتاجها فى العام الماضى الذى لم يسبق إذاعته . ولا شك أن القوانين التى نشرت فى يونيو سنة ١٩٤٧ وهى الخاصة بأسرار الدولة قد ضاعفت العقوبات الشديدة على من يسمح من غير إذن بإذاعة بعض المعلومات الاقتصادية العادية .

وعلى أية حال ، فقد استطعت الحصول على إذن بزيارة بعض المزارع والمصانع كما سمح لبعض رجالى بزيارة أماكن أخرى .. ومن محاسن الصدف أن بعض الأمريكيين و بعض الأجانب من رجال الأعمال والمهندسين الذين سمح لبعضهم بالقيام بجولات واسعة، قد زودونى بنتائج مشاهداتهم وملاحظاتهم وافكارهم فى هذا الموضوع . ومن ناحية أخرى فان الصحافة الروسية التى دأبت على قراءتها باستمرار ـ و إن صورت الأمور فى صورة مغرية أكثر الأحيان ـ كانت فى أحيان أخرى تنقد بعض الأعمال

نقدا شديدا . ومن ثم ساعدت على كشف بعض الحقائق وإن يكن هذا الكشف بطريقة سلبية نوعا ما . يضاف إلى هذا أن إقامتى الطويلة لعدة سنوات فى الاتحاد السوفيتى قد امدتنى بعديد من الملاحظات التى أعتقد بحق أنها دقيقة وصحيحة . ولذلك فانه على الرغم من ندرة الاحصائيات المنشورة ، فقد أمكننى الوصول إلى نتائج معقولة من عملى . وهذه هى :

الصناعة : منذ أن قضت الحرب الأخيرة على المصانع الألمانية وخربتها أصبح الاتحاد السوفيتى القوة الصناعية الثانية فى العالم . ولما كانت كل مشروعات الاتحاد السوفيتى الاقتصادية تقوم على أساس احتمال قيام الحرب ، فإن الجهد الأعظم موجه إلى تطوير الصناعات الثقيلة والنهوض بها . وتتركز هذه الصناعات فى اقليم الأورال المنيع . أما الصناعات الخفيفة التى تنتج البضائع الاستهلاكية التى يحتاجها الشعب، فقد أضعفتها فى الوقت الحاضر المشروعات الاقتصادية الكبرى فأصبح هناك نقص ملحوظ فى كل سلعة من السلع الاستهلاكية تقريبا . وإذا كانت المصانع السوفيتية لم تتوفر لها الخبرة الكافية لإدارتها بكفاية تامة ، وإذا كانت المواد العادية من الإنتاج كبيرة جدا ، وكذلك القوى المستنفده من الصناع ، فان الرقم القياسى الذى ضربته روسيا فى تحويل دولة زراعية إلى دولة صناعية كبرى فى مدى ثلاثين عاما مما لا يمكن غض النظر عنه أو التقليل من أهميته ، ولا سيما إذا أدخلنا فى اعتبارنا أنه إبان الحرب على الرغم من أن جزءا كبيرا من المناطق المصنعة كان فى أيدى الألمان ، ومع ذلك فإن المصانع الروسية ظلت تنتج الجزء الأكبر من الأسلحة التى استخدمها الجيش الأحمر فى حربه الهجومية ضد الألمان (صحيح إن قانون الاعارة والتأجير أمد روسيا

بمزيد من الأسلحة ، ولكن الواقع هوان الصناعة الروسية قامت بالمهمة الأساسية فى الانتاج) . وقد أنتجت فترة ما بعد الحرب عدة مشاكل ولكن مهما يكن من شىء ، فإن الأهداف المحددة لمشروع السنوات الخمس قد أمكن تحقيقها بالنسبة للصناعات الثقيلة على الأقل .

ومن المشاكل الرئيسية التى تواجهها روسيا ، الانتاج المستمر للقوى العالية ، فالعمال فى روسيا ـ وإن كانوا يجندون عن طريق الوكالات التابعة للحكومة البوليسية بما فيها اتحادات العمال التى هى فى الواقع من عملاء الحكومة لا من عملاء العمال أنفسهم ، قد بدأوا يشعرون بالملل من الحرب ، وأن يدخلوا فى الدائرة المقفلة من الشكوى من قلة الأجور وإرتفاع الأسعار وعدم كفاية الغذاء ومواد التموين .

الزراعة : لا يزال الموقف بالنسبة للغذاء مخيفا محفوفا بالمخاطر . وقد تكون البلاد موفورة الحظ إذا هى سعدت بمحصول طيب من الحبوب فى سنتين من سنواتها الخمس . ولا تزال الأيدى العاملة تستخدم فى بذر الأرض وجنى المحاصيل لعدم توفر الآلات الزراعية ـ ومن ثم مازالت هذه القوى تستنفد بغير طائل ، فمنتصف القوى العالية فى روسيا مايزال تستخدم فى الزراعة على حين أن ٢٣٪ من شعب الولايات المتحدة يعملون فى الأرض لا ليغذوا أمريكا وحدها بسخاء ، بل ليغذوا نصف العالم أجمع . وقد قوبلت الجهود التى ترمى إلى إدخال نظام المزارع الجماعية فى الأراضى التى تم تملكها حديثا فى دول البلقان بالمقاومة . ولكن مما لا شك فيه أن قوة الحكومة السوفيتية ستنجح فى التغلب على هذه المقاومة مع مرور الزمن . ولكن الثمن سيكون باهظا بما يحدثه من التعاسة البشرية .

وفى حوالى الوقت الذى وصلت فيه إلى موسكو اجتمع المجلس الأعلى للاتحاد السوفيتى المنتخب حديثا لسماع تقرير من فوزيسنسكى رئيس لجنة المشروعات الحكومية ، يشرح فيه النقاط الرئيسية فى مشروع السنوات الخمس (وقد طهر فوزيسنسكى بعد ذلك فى احدى حملات التطهير ولكنه فى ذلك الوقت كان نجما ساطعا من نجوم المكتب الشيوعى تحوطه هالات الاعجاب من الصحف الأجنبية) . وقد كان مشروع السنوات الخمس المقترح متمما لمشروعين آخرين على الأقل وربما كان متما لمشاريع كثيرة فى سلسلة لا تنتهى بدأت فى عام ١٩٢٨ ، ولم تقطعها إلا الحرب ـ وللمشروع الجديد أهداف خمسة ابتدائية حددها فوزيسنسكى فى النقاط الآتية .

١ ـ إعادة بناء الاقتصاد السوفيتى بناء كليا مع العناية الخاصة بالصناعات الثقيلة والنقل بالسكك الحديدية . وقد قرر لهذا المشروع أن يرتفع بالإنتاج الصناعى فى سنة ١٩٥٠ إلى ما يجاوز ٥٠ ٪ زيادة على الإنتاج فى سنة ١٩٤٠ .

٢ ـ التقدم فى انتاج المواد اللازمة لرفاهية الشعب الروسى بحيث تكثر فى سنة ١٩٥٠ المواد الضرورية للاستهلاك فى الأغذية والبضائع المصنوعة التى يحتاجها المستهلك عادة .

٣ ـ النهوض بالأبحاث العلمية السوفيتية بحيث تبلغ مستوى البحوث العلمية فى الخارج وتتجاوز فى أهدافها ما حققته الأبحاث العالمية فى الخارج .

٤ ـ رفع عمالية استخدام رءوس الأموال فى النهوض بالاقتصاد القومى ليتسنى تزويد الجيش السوفيتى باحدث الأسلحة .

وكانت الأهداف المعينة للطاقة الانتاجية فى سنة ١٩٥٠ كالآتى: ٢٥٫٤ مليون

طن من الصلب ، ٥٠ ر ١٩٠ مليون طن من الحديد، ٢٥٠ مليون طن من الفحم ، ٤ ر ٣٥ مليون طن من البترول ، ١٧٢ ألف طن من الألومنيوم و ٤ ر ٢٢ مليون كيلووات طاقة كهربائية مولدة ، ٤٣٠ ألف عربة مصنوعة ، ١١٢ ألف محراث ، ٢٧٠٠ قاطره ، ١٤٦ ألف عربة سكة حديد ، ١٠٣ ألف طن من الأدوات المعدنية .

وكان من أهم الموضوعات الرئيسية فى المشروع اتخاذ التدابير الكفيلة بانشاء مبان جديدة لمواجهة النقص الكبير فى المساكن ، الأمر الذى تشكو منه كل مدينة، كبيرة كانت أو صغيرة ، فى الاتحاد السوفيتى .

وكان المشروع يدعو إلى بناء أو إعادة تعمير ٢٤٠ مليون مربع من الأماكن المخصصة للسكن . ومما يجدر ذكره أن مستوى المساكن فى روسيا عموما منخفض جدا . وذلك راجع إلى الأزمة العنيفة فى المساكن ولقلة العناية بالفرد التى هى من الطوابع التاريخية لروسيا . وطبقا للقانون الروسى يخول لكل فرد الحق نظريا فى مساحة قدرها ستة أمتار مربعة على الأقل ، وذلك فى المناطق التى تعانى من النقص الشديد فى المساكن ، وذلك فيما عدا الممرات والحمام ، والمطبخ ، فهذه كلها منافع عامة يشترك فيها كل سكان الشقة أو البيت . وهذه المنحة تخول الأسرة المكونة من أربعة أشخاص ما يقابل حجرة واحدة من الحجم العادى فى أحد البيوت الأمريكية . ويستهدف مشروع السنوات الخمس اعداد مساكن فى ظل هذه الظروف الضيقة لعدد ضخم يقدر باكثر من ١٨ مليون شخص .

وتتمثل مشكلة السكنى على حقيقتها فى خطاب نشرته صحيفة « باكر وركر » فى سنة ١٩٤٨ جاء فيه .

«أسكن أنا وأسرتى المكونة منى وخمسة أفراد آخرين فى حجرة رطبة مساحتها

١٤ مترا مربعا . وقد تقدمت فى سنة ١٩٤٦ لادارة المساكن فى باكو بطلب لمنحى شقه أخرى . وقد اعترفت الادارة حين قبلت التماسى بحقى فى أن أحظى بمعاملة خاصة . وقد مرت بى سنتان منذ تقدمت بهذا الطلب ، ولم احصل على رد ما . وقد عاودت الطلب والالتماس عدة مرات لرئيس إدارة المساكن وللمجلس الأعلى لمدينة باكو وناشدتهم الاسراع بالعمل على نقل اسرتى إلى مكان آخر . وقد حمل طلبى حتى الآن ما لايقل عن عشر تأشيرات كلها تطلب التعجيل بالتنفيذ و بعضها يشير باتخاذ التدابير العاجله والتحرى الناجز . ولكن الغريب بعد كل هذه التأشيرات أن واحدا منها لم يدخل دور التنفيذ بعد ، ولم يأبه أحد من عمال إدارة الاسكان هذه الأوامر العاجلة ـ فمتى يا ترى يتاح لى أن أمنح سكنا جديدا ؟ ! ! »

وتزدحم دور المحاكم فى موسكو يوميا بكثير من الأفراد يجاهدون بل ويحاربون من أجل الحصول على مسكن مناسب مما يدل بوضوح على أن الشاكين فى باكو لايشكون من ظروف استثنائية وانما يشكون من وضع دائم هو الطابع السائد هناك .

ونحن حين نتعرض للأرقام التى أوردها فوزيسنسكى فى تقرير عن السنوات الخمس والتى توسع فيها ستالين بعد ذلك عند وضع الأهداف التى يريد بلوغها بعد مشروعات ثلاث مدى كل منها خمس سنوات ، إذ قدر انتاج الصلب ب ٦٠ مليون طن والفحم ٥٠٠ طن والحديد ٥٠ مليون طن والبترول ٦٠ مليون طن ، يأخذنا العجب من حقيقة هذه الأرقام ومدى امكان تحققها ـ صحيح إن أهداف مشروع السنوات الخمس السابقة على الحرب العالمية قد أمكن تحقيقها فيما يختص بالصناعات الثقيلة ولكنها لم يمكن تحقيقها فيما يختص بالنواحى المتصلة اتصالا وثيقا بمطالب العيش للشعب السوفيتى .

وفى منتصف يونية عام ١٩٤٦ بدا واضحا أن التاريخ يعيد نفسه على الأقل إلى حد أن الحكومة خلال الشهور السنة الأخيرة من السنة اصدرت عدة مراسيم واسعة المدى تهدف كلها إلى زيادة انتاج البضائع الضرورية للمستهلك العادى .

وفى أوائل عام ١٩٤٧ بدا لنا أن الحكومة قد بدأت تدرك من جانبها أن المسئولين عن وضع برنامج السنوات الخمس قبل ذلك بسنة قد أخطأوا خطأ فاحشا فى تقدير قدرة الشعب السوفيتى على إحتمال المشاق وبذل التضحيات من جديد .

فالكرملين فى حرصه الشديد على إعادة بناء الصناعات الثقيلة وتطويرها ليزيد من الطاقة العسكرية والاقتصادية للاتحاد السوفيتى لم يتخذ التدابير الكافية لانتاج مواد الاستهلاك الشعبى لارضاء شعب انهكته سنوات ماقبل الحرب وزادته وهنا سنوات الحرب بتضحياتها ، شعب طوى جوانحه على ألم محض فى انتظار سلام يرفع مستوى معيشته ويزيد حياته رخاء ، فكانت النتيجة خيبة أمل أدت إلى إضعاف روحه المعنوية مما أثر على انتاج القوى العمالية .

ولم ينج الفلاحون من هذه الآثار ، فإن استمرارهم تحت ضغط الحاجة إلى تسليم الحكومة ما تطلبه منهم من حصة فى منتجاتهم من القمح والمواد الغذائية جعلهم يضطرون إما إلى استهلاك جزء كبير من فائض نتائج أرضهم لسد مطلبهم الشخصية أو إلى بيعه فى السوق الحر ، واغلب هذا النتاج هو من غلة الأراضى المنزرعة خارج نطاق المزارع الجماعية .

وقد أثر النقص الظاهر فى المواد الغذائية وما يزال يؤثر فى انتاج العمال تأثيرا متزايدا.. وبدأت مشاكل اقتصادية خطيرة تظهر فى الأفق . وأدت جهود الكرملين لاستعادة الموقف إلى سلسلة من الاحداث مرتبط بعضها ببعض قد تلقى دراستها أنوارا كاشفة

على بعض النواحى الهامة فى الاقتصاد السوفيتى والعوامل التى تؤثر فى تطوره .

وكان أول اجراء لجأت إليه الحكومة لمواجهة تباطؤ عجلة الانتاج هو العمل على احياء الحوافز الأولى بإثارة المخاوف من الغزو الخارجى ، فنشطت أداة الدعاية السوفيتية نشاطا ضخما وطفقت تعمل على تصوير الولايات المتحدة للشعب الروسى على أنها دولة معادية معتدية تعد نفسها لما تعتزم القيام به من شن حرب عدوانية ضد الاتحاد السوفيتى . ويبدو أن هذه الخطة القديمة لم تفلح فى اشعال نار الحماسة فى الصدور لا لأن الدعاية الروسية فشلت فى إقناع قسم كبير من الشعب السوفيتى ، بل لأن الشعب كان قد مل الحرب وأنهكته طول معاناته لها . ومن ثم كان ميالا للسلام متحمسا له ، ومن هنا لم تفلح خطة العمل على إحياء شعور العداوة والبغضاء فى نفسه لأنه لم يعد يطيقها . . وبدأ الفلاحون الروس يشترون الملح من الاسواق ويختزنونه، الأمر الذى دأبوا على عمله طوال أجيال كلما تهدد بلادهم خطر ما . ومر العمال الصناعيون بتجربة أخرى هبطت بروحهم المعنوية درجة أخرى فزاد الانتاج تلكؤا، وزاد الطين بلة أن الحكومة اضطرت حين ظهرت بوادر النقص فى المواد الغذائية إلى تأجيل إلغاء نظام البطاقات الذى سبق أن وعدت بالغائه .

وقد تحركت الحكومة قبل نهاية عام ١٩٤٦ وفى أوائل عام ١٩٤٧ للعمل سريعا على علاج الموقف ، فأصدر ستالين بيانات إلى الصحف السوفيتية والصحف الأجنبية وصحف الدول الشيوعية أكد فيها أن خطر الحرب قد ضعف . واتخذت فى الوقت نفسه تدابير لحمل الكسالى على العمل فى المصانع ، وذلك بوقف جرايات الغذاء عن طبقات عديدة من هؤلاء العيال على الدولة . وفصل عدد كبير من الموظفين من الوظائف الادارية ووجهوا بخطر فقد بطاقاتهم التموينية ما لم يتجهوا إلى العمل فى المصانع .. ولما بدا

للحكومة مع ذلك أن كل هذه التدابير ليست كافية لإنقاذ الموقف ، إضطرت إلى أن تضيف شاحذا جديدا للهمم بتبديل مشرعاتها الانتاجية وتحويل بعضها للعمل على زيادة إنتاج البضائع التى يحتاجها المستهلك وتوفيرها فى الأسواق . ولم تلجأ الحكومة فى هذه المناسبة إلى أساليب الروع الجماعية التى استخدمت فى السنين الباكرة لمواجهة مثل هذه الأزمة ، لأن الكرملين فيما يبدو أدرك أن اللجوء إلى حركة تطهير جديدة فى هذا الوقت العصيب من شأنه أن يقلل من عدد الكفايات المحدودة القادرة على العمل والإنتاج ، ومن ثم تنتج الحركة أضعافا للروح المعنوية .

وقد أدت هذه التدابير إلى تحسن تدريجى فى الموقف الانتاجى إلى درجة احست معها الحكومة أنها باتت قادرة على أن تعمل بقسوة على تخفيض القدرة الشرائية للشعب السوفيتى لتقلل من ازدياد الطلب على البضائع الاستهلاكية ولتخفف الضغط عن الصناعات الخفيفة . وقد أدى هذا الغرض قانون اصلاح النقد المتداول الذى صدر فى ديسمبر عام ١٩٤٧ إذ ألغى العملة القائمة وهى الروبل وقرر عدم صلاحيتها للتداول بعد الآن دون انذار سابق وأصدر عملة جديدة ، وأباح استبدال الروبلات الجديدة بالقديمة بنسبة روبل جديد لكل عشرة قديمة وخفقت قيمة سندات الحكومة بنسبة الثلثين وسمح باستبدال أرصدة البنوك بنفس قيمتها بحد أعلى، ثلاثة آلاف روبل . أما المبالغ التى تزيد على ذلك فسمح باستبدالها بتخفيض معتدل فى قيمتها . والفية فى هذه الظروف بطاقات التموين .

وكان هذا التعديل ضربة قاصمة للفلاحين ، إذ أن أموالهم ليست مودعة فى البنوك بل كلها إما عملات متداولة فى الاسواق أو سندات حكومية .. وإزاء هذا

اضطر الفلاح لكى يدفع الضرائب المفروضة عليه ومواجهة النفقات على تعديل قانون العملة إلى أن يبيع المواد الغذائية الموجودة عنده ومن ثم امتلأت أسواق المدن بالأطعمة والمواد الغذائية خلال فترة قصيرة على أثر اصدار قانون الاصلاح النقدى مباشرة. وكان ظهورها فى الاسواق بهذه الكثرة الحدث الأول من نوعه منذ سنوات طويلة . على أن هذا لم يدم طويلا ، إذ وجد العمال الصناعيون انفسهم وقد فرض عليهم نظام أشد قسوة من البطاقات ، إذ لم يكن يسمح للفرد إلا بشراء كمية محدودة من كل نوع من أنواع الطعام . . و بعد فترة قصيرة أخرى اختزل عدد المحلات التى تبيع الطعام ، ومنعت هذه التدابير من الأطعمة واختزانها .

وقد ظلت الأسعار على حالها من الارتفاع قبل الاصلاح النقدى باستثناء الخبز وبعض سلع قليلة ، وبذلك ارتبطت قدرة الفرد على شراء مواد غذائية أكثر بقدرته على كسب مال أكثر، الامر الذى يقتضيه بذل جهد أكبر وتحقيق وانتاج أوفر وأعظم.

ولاشك أن قليلين فى الولايات المتحدة هم الذين يدركون مقدار ما على العامل الروسى أن يبذله من جهد وأن يؤدى من عمل ليحصل على القليل الذى يعطاه وقليل هم الذين يدركون الإجهاد الشديد الذى يفرضه الفرد الروسى على قواه العقلية والبدنية ليستجيب لما يحمل عليه من إطالة فترة عمله وسرعة انتاجه . وقد حسبنا اجر العامل إبان فترة تعديل قانون النقد فتبين لنا أن العامل يشتغل اربع ساعات وسبع وخمسين دقيقة مقابل دستة من البيض ، و ١٤ ساعة وخمس دقائق مقابل رطل من اللبن ، وساعة وعشر دقائق مقابل رطل من خبز القمح ، وساعتين وأربع وثلاثين دقيقة مقابل رطل من السكر ، وساعتين وأربع دقائق مقابل علبة من التبغ ، و١٠٤ ساعات وثلاثين دقيقة مقابل حذاء رجالى ، و١٠٧ ساعات وثلاثين دقيقة مقابل حذاء حريمى

و ٥٨٠ ساعة وخمس عشرة دقيقه مقابل سترة رجالى من الصوف ، و ٢٥٢ ساعة مقابل فستان حريمى من الصوف، على حين يعمل زميله فى الولايات المتحدة ٣٨ دقيقة مقابل ١٢ بيضه ، و ٢٢ دقيقه مقابل رطل من اللبن ، و ٦ دقائق للخبز ، و ٥ دقائق للسكر ، و ٩ دقائق مقابل صندوق من السجاير ، و ٧ ساعات و ١٥ دقيقه للحصول على حذاء رجالى ، و ٥ ساعات و ٣٢ دقيقه للحصول على حذاء حريمى ، و ٢٨ ساعة و ٤ دقيقه لسترة صوفية رجالى ، و ١٢ ساعة و ٥٢ دقيقه لشراء فستان نسائى من الصوف .

هذه الحلقة المفرغة للأجور والأسعار والبطاقات والانتاج لها أخطر الآثار على العمل ، وتبدو نتائجها فى انخفاض الانتاج تحت المعدل . ومن أجل هذا وجه ضغط شديد على الادارات المشرفة على الصناعات ، وعلى الأخص فى محيط الصناعات الخفيفة — ففى ربيع عام ١٩٤٨ دأبت صحيفة « برافدا » على تكرار نشر هذا النبأ يوميا ، وهو أن مكتب النائب العام قد رفع دعاوى ضد مديرى عدة مصانع مختلفة لانتاجهم بضائع رديئة الصنف أو لفشلهم فى الوصول بالانتاج إلى القدر المحدد لمصانعهم . .

وقد استوقفتنى الأمثلة الآتية :

دعى كبير المهندسين فى مصنع « جيروم » التابع لوزارة الصناعات المحلية لاستجوابه عن أسباب استمرار مصنعه على انتاج دراجات رديئة الصنف . وقد حكم عليه بتقييد حرية خمس سنوات جزاء جرمه .

وحكم على كبير المراقبين الفنيين فى « كرامت سورسكى » التابعه لوزارة انتاج

الفحم ومدير النقل بتقييد حريتهما مدة ست سنوات لشحنهما فحما أقل من المعدل ، كما حكم على مساعد مدير النقل بتقييد حريته خمس سنوات لنفس السبب .

وحكم على كبير المهندسين فى مصنع للصناعات المحليه فى « لينينجراد » بتقييد حريته لمدة سنتين لانتاجه أحذية من صنف رديء .

وحكم على مدير مخبز فى « أوكلوف او بلاست » بتقييد حريته خمس سنوات لانتاجه بصفة منتظمة أنواعا رديئة من الخبز .

وقدم مدير مصنع للخياطه فى موسكو يدعى « ياشونين » كما قدم « سميرنوف » المدير الفنى للمصنع « ونيكتين » مدير المراقبة الفنية للمحاكمة بتهمة انتاج بضائع رديئة الصنف ، كما قدم عدد كبير من الموظفين بمصانع أخرى بنفس التهمة .

وحكم بالسجن خمس سنوات على « تاراشكوف » مدير مصنع للخياطة فى قسم « فرونز » بموسكو لأنه دأب على انتاج ملابس للرجال ثبت أنها لا تصلح للبس .

وحكم على كبير المهندسين فى مصنع « ماكييفا » فى ولاية ستالين وعلى مدير القسم الفنى بتقييد حريتهما خمس سنوات لأن منتجات المصنع من الجرارات الزراعية البالغ مقدارها ٧٧٠ ر ٧ جرارة قد ثبت عطبها فيما عدا ٢١٧ جرارة .

وحكم على مدير مصنع « سارانوف » للدخان بتقييد حريته سبع سنوات كما حكم على مدير المراقبه الفنية بالمصنع ومساعده بتقييد حريتهما خمس سنوات لأنه بالكشف على السجاير المنتجة بهذا المصنع تبين احتواؤها على أقذار وقش وحشائش وأن صناعتها رديئة وأكثرها ممزق لأخطاء فى طريقة التعبئة .

ومن الواضح أن الطبقات التى تقوم على أعمال الادارة فى الدول الشيوعية تتعرض

لنوع معين من الاخطار العقلية معتاد فى مثل هـذه الأوساط ولاوجود له البتـة فى النظام الرأسمالى .

ومما يجب ملاحظته أيضا أن معظم الذين يعانون من هـذه الآلام يمثلون فى الأغلب عنصر الإدارة فى الصناعات الخفيفة . وتفسر السياسة السوفيتية بعض هـذه الامور بقولها إنه من الضرورى أن يكون لكل عمل يسير سيرا خاطئا من ضحايا . وهكذا تلقى مسئولية الخطأ دائما على الأفراد وتباعد بين الخطأ وبين الحكومة نفسها.. وفى الواقع يرجع السبب الرئيسى فى هذا الوضع إلى أن الصناعات الثقيلة تستأثر بالصفوة من القدرات الصناعية على حين تضطر الصناعات الخفيفة أن تستخدم الخثلات المتبقية . والاتحاد السوفيتى على ما أعتقد هو الدولة الوحيدة فى العالم التى تفوق فيها الصناعات الثقيلة التى تنتج الوقود والمعادن والآلات التى يحتاجها الاستهلاك الصناعى نفسه فى زمن السلم الصناعات الخفيفـة التى تنتج مواد الاستهلاك التى يحتاجها الشعب . والصناعات الثقيلة هى أساس قوة الأمة وطاقتها الحربية . ويدرك الاتحاد السوفيتى تمام الادراك حقيقة غير خافية ،وهى أن صوته فى المحافل الدولية فيما بعد الحرب قد أصبح له وزنه بسبب مظاهر القوة المتمثلة فى الأسلحة العسكرية، وهى لذلك لاتعتزم أن تقلل من وقع كلماتها ومواز ينها فى هذه المحافل .

وقد زرت فى عام ١٩٤٧ أعظم مصانع موسكو وهو « مصنع ستالين للسيارات » ولـكننى مونعت من رؤية بعض الأقسام بحجة أنها متوقفة عن العمل لسبب أو لآخر أو بحجة أن العمال قد انصرفوا لتناول غذائهم .. وقد ذكرت لى نفسى الاسباب عندما أردت رؤية مصنع تجميع السيارات ... قيل لى هذا فى الوقت الذى استطعت فيه أن

اختلس النظر من خلال فتحة صغيرة بين مصراعى الباب لاتتجاوز اثنى عشرة بوصة لأرى المصنع يجرى العمل فيه بأقصى سرعة ممكنة .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن خبرتى السابقة فى صناعة السيارات التى حصلت عليها من اشتغالى فى مصنع للسيارات قد جعلتنى اجد فيما رأيت قدرا كافيا يمكننى من الحكم على أن انتاج السيارات والعربات فى هذه المصانع يسير بخطى سريعة يمكن مقارنتها بالإنتاج فى أى مصنع من المصانع فى الخارج وتكون المقارنة فى صالح هذا المصنع . فالمصنع ينتج عربات من زنة طن أو طن ونصف بسرعة بمعدل عربة كل ثلاث دقائق .. ومدير المصنع الذى قضى بعض الوقت فى مصانعنا فى « ديترويت » و رأى كل مايمكن رؤيته من الاعمال هناك ، مهندس انتاج من الطراز الأول . وقد صرح لى هذا المدير بان لمصانع موسكو للسيارات فروعا كبيرة تعمل فى أوكرانيا ولها مصنع وليد ولكنه كبير الحجم فى الأورال اختير له بعض حذقة الصناع المدربين من مصنع موسكو لادارته وتسيير عجلته الإنتاجية .

وقد أكد ما وصلت إليه من نتائج وانطباعات عن سير العمل فى هذا المصنع مستر « اريك جونستون » الذى زار المصنع نفسه بعدى بحوالى ستة أو ثمانية اشهر ، وهو فى نظرته للامور يفوقنى من ناحية خبرته الواسعة بشئون ادارة المصانع ، فهو يعرف عنها الكثير .

وهذه الانطباعات الحسنة التى خرجت بها من زياراتى للمصانع الروسية قد عززتها الزيارات التى قام بها أمريكيون آخرون لبعض الصناعات الثقيلة الأخرى، والأحاديث التى دارت بينى وبين بعض المهندسين الأمريكيين ورجال الصناعة الذين زاروا الاتحاد السوفيتى اخيرا وخرجوا من دراساتهم بنفس النظرة التى كونتها بنفسى . . وهناك

نقاط ضعف ولا شك فى المصانع الروسية . ومن هذه النواحى الضعيفة ما هو شائع فى جميع المصانع وهو النقص المتزايد فى الفنيين ذوى الدربة والخبرة ، فهم فى حاجة إلى مقدمين للعمال ومعلمين فى الصناعات الآلية وشئون الصيانة . . . ويقول المهندسون الامريكيون فى تقاريرهم : إن المتخرجين فى المدارس الهندسية السوفيتية لا يقلون من الناحية النظرية عن أمثالهم من المتخرجين فى مدارسنا ، ولكنهم فى الوقت نفسه يقولون: إن هؤلاء المتخرجين الممتازين بثقافاتهم النظرية يعانون نقصا كبيرا فى الناحية العملية والتدريبات التطبيقية فى المعامل الميكانيكية وفى طاقتهم على العمل . . وأول ما يدور بخلد الانسان هو أن مثل هذا النقص يمكن أن تكمله التجارب ، ولكن أصدقائى من المهندسين الأمريكيين أيدوا لى تشاؤما من هذه الناحية إذ الحقيقة المفجعة هى أن الشباب الروسى ليست له الطاقة الميكانيكية ولا الميل الميكانيكى الذى هو غريزى فى نفوس الأولاد الأمريكيين إذ تولد معهم هذه الغريزة . وثمة شىء آخر هو أن الشبان الروس يحصلون على الخبرة العمليه والمعارف الميكانيكية التطبيقية بصعوبة كبيرة . واذكر أننا كنا نستخدم فى دار السفارة الأمريكية بموسكو ميكانيكيا روسيا كان ممتازا فى تشخيص أسباب العطل فى السيارات وإصلاح الخطأ فيها ، ولكن حدث ذات يوم أن طلبت اليه أن يفك احدى الآلات التى نستخدمها فى الحديقة لتسوية الحشائش وأن ينظفها ويثبت الأساحة القاطعة فيها بعد شحذها لتؤدى عملها على وجه أكمل ، فبدا وكأنه فى حرج شديد ، ولم يستطع أن يفعل شيئا ، وذلك مرده إلى أن تدريبه كان قاصرا على ميكانيكا السيارات وعند هذا الحد وقفت به ثقافته الميكانيكية .

ولست أعنى بهذا المثل القول بأن الاتحاد السوفيتى لا يضم خبراء من الطراز

الأول فى كل فرع من فروع الهندسة والانتاج . فخبرة المهندسين السوفيت وخبرة العلماء السوفيت حين يبرعون لا يضارعهم أحد فى براعة فى العمل أو الانتاج . ولكن ما دون هذه الطبقة الممتازة من المهندسين والعلماء يوجد فراغ كبير لن يتحقق ملؤه بكفاية إلا بعد عديد من السنوات وذلك راجع إلى النقص الكبير فى توفر رؤساء العمل الفنيين والمهندسين من ذوى الكفايات المتوسطة . . والمهندسون الألمان والعلماء الألمان والفنيون الألمان الذين جىء بهم منذ أيام الحرب إن رضى وإن قسراً إلى هذه البلاد قد ساعدوا إلى حد ما فى هذه الصناعات ولكن عددهم لم يكن وفيرا بحيث يمكن أن يؤدوا كل الأعمال، ومن ثم كان وجودهم مخففا للعبء ولا أكثر .

وهناك عامل آخر من عوامل الضعف تتأثر به الصناعات الثقيله على الخصوص ، ويتمثل هذا فى عدم كفاية وسائل النقل السوفيتية ، فالسكك الحديدية الروسية تعتبر أقل من ثلث مثيلتها فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الوقت الذى تعمل فيه هذه السكك الحديدية فى مساحة تقدر بثلاثة أضعاف المساحة التى تعمل فيه مثيلتها فى أمريكا ، فضلا عن أن الطرق الحديدية فى روسيا فى حالة يرثى لها ، وتبذل جهود جبارة لتحسين هذه الظروف . وقد أمكن خلال السنة ونصف الأخيرة تخفيض يومين من مدة الاثنى عشر يوما التى كان يقضيها المسافر بالسكك الحديدية من موسكو إلى فلاديفستك ، ولكن هذا عمل استثنائى لا يمكن اعتباره قياسا . وقد حصلت الحكومة السوفيتية بالاستيلاء والنهب والتعويضات على عدد كبير من القاطرات وعربات السكك الحديدية للمساعدة على ملء الفراغ الذى أحدثته خسائرهم فى الحرب ، ولانتاج القاطرات وأدوات السكك الحديدية ، ولكن ما تزال السكك الحديد تعانى من نقص ذريع فى هذه الأدوات رغم الجهود التى تبذل عن

طريق برنامج السنوات الخمس الأخير .

ولم يقتصر النقص على السكك الحديدية، بل إن روسيا تعانى نقصا آخر فى وسائل النقل المائية للمسافات البعيدة . وفى الواقع لم تكن صناعة السفن فى الاتحاد السوفيتى من الصناعات البارزة دائما ، وكذلك أصيبت المراكز الكبيرة لصناعة السفن بتدمير فادح خلال الحرب . وقد عمدت روسيا إلى تدعيم موقفها بالابقاء على السفن التجارية التى حصلت عليها من أمريكا إبان الحرب دون أن تعوضها عنها بشىء ما ، ولكن على الرغم من ذلك فما يزال أمامها وقت طويل ليصبح لديها أسطول تجارى كبير . . يضاف إلى ذلك أن الطرق الساحلية الشمالية طرق وعرة كما أن مدة استخدامها للملاحة محدودة بأربعة شهور فى السنة وإن تكن أهميتها بالغة مع ذلك .

ومن الرحلات المفيدة التى قمت بها خلال مقامى فى الاتحاد السوفيتى الرحلة التى زرت فيها فى يوليه عام ١٩٤٧ إحدى المزارع الجماعية التى يطلق عليها الروس اسم « كولوس » ومعناه بالعربية « سنبلة القمح » . وتقع كولوس هذه على مسيرة ٧٨ كيلومترا شمالى موسكو فى إقليم «ديمتروف» على المنحدر الشمالى الغربى لسمولنسك موسكو ، عند منابع نهر « ياخرومى » . وقد كان معى فى هذه الرحلة مستر جون هكرسون الذى كان مشرفا إذ ذاك على القسم الأوربى فى وزارة الخارجية الأمريكيه والذى صار فيما بعد وكيلا مساعدا لوزارة الخارجية . وكان يقوم بزيارة لنا فى هذا الوقت ، كما صحبنى الملحق الزراعى مستر جو بيوليك . . وكان يترجم لنا فى الرحلة « فيليب بندر » أحد موظفى السفارة القدماء وهو من السوفيت . وقد قبض عليه منذ ذلك الوقت ، وهذا هو المصير المرتقب دائما لكل روسى يعمل وقتا طويلا مع

الأجانب . وكان « كوبشكين » أحد الضباط الروس الذين يتكلمون الانجليزية هو المعين لمرافقتنا رسميا فى هذه الرحلة مندوبا عن وزارة الخارجية الروسية مع أنه فى الواقع لم يكن وحده ، فقد كان وراءنا ستة من رجال وزارة الداخلية يتتبعون خطانا فى سيارتهم السوداء المعتادة .

ويسير الطريق إلى المزرعة فى حذاء قنال موسكو فولجا الذى يصل بين « ديمتروف » مركز المقاطعة ،و بين موسكو . وتمر القناة فى طول المقاطعة كلها . وقد استوقف نظرى متانة بناء القناة كما استوقفتنى أهمية الملاحة المائية بالنسبة إلى بلد يعانى أشد المعاناة من ضعف المواصلات البرية .

وحين وصلنا إلى مدينة «ديمتروف» انتبهنا من الطريق الرئيسى المعبد، وسرنا عدة أميال فى طريق مترب حتى وصلنا إلى المزرعة الجماعية ، وهناك قابلنا مستر«باكياكين» رئيس المزرعة ،وهو رجل طويل القامة قوى البنية تبدو الأمانة على وجهه . وقد قادنا إلى مكتبه حيث قدم لنا مساعديه ، الخبير الزراعى وسكرتير المزرعة وكلاهما من الفلاحين الممتازين . ومن الحديث الذى دار بيننا أدركت أن الخبير الزراعى هو المشرف على الشئون الفنية فى المزرعة على حين يقوم السكرتير بالشئون المالية .

وحجرة المكتب حجرة صغيرة عارية ذات جدران بيضاء وسقف من الخشب وتغطى جدران الحجرة عدة صور للمزرعة وخرائط ورسوم بيانية توضح مدى التقدم فى عمل المزرعة و إنتاج المحصولات .. وفى حجرة مجاورة مماثلة لحجرة المكتب علقت صور لستالين ومالنكوف وكوسيجين .

وقد بُدىء فى تنظيم هذه المزرعة الجماعية فى عام ١٩٣١ . وأخبرنى مستر

«باكياكين» أنه منذ ذلك الحين وهو رئيس لهذه المزرعة التى تبلغ مساحتها ١١٥١ فدانا منها ٤٧٧ فدانا كانت منزرعة فعلا . ويسكن فى هذه المزرعة ٣٧٠ فردا ما بين رجل وامرأة وطفل ، ويعيشون فى ٨٤ بيتا ... وبحسبة سريعة تبين لى أن كل أسرة من هذه الأسر الأربع والثمانين تملك أرضا تزيد مساحتها قليلا عن ١٣ فدانا ونصف فدان ، وأن الجزء الذى يزرع منها فعلا لكل أسرة حوالى ٥و٧ فدانا على أساس أن الأرض المنزرعة هى ٤٧٠ فدانا كما ذكرت آنفا . ويبلغ عدد المزارعين البالغين فى هذه المزرعة مائتى شخص، ٦٥٪ منهم نساء والباقى رجال وهذا معناه بالأرقام أن كل عامل زراعى من هؤلاء يعمل فى ٢ ١/٢ فدان سواء أكان رجلا أم امرأة . وهذه الأيدى العاملة مقسمة إلى أربع فرق: فرقة لزراعة الخضر وفرقتان للعناية بالأرض وفرقة للعناية بالمواشى . وذكر لى «باكياكين» بشىء من الأسى أن من بين مائة شخص وعشرة جندوا فى الجيش الأحمر من هذه المزرعة لم يعد واحد وأربعون .. وقال لى فى شىء من الزهو والسرور إن المزرعة تنتج إنتاجا حسنا وإنه يأمل أن يزيد دخلها فى هذا العام عن مليون روبل ..

ولقد سألته فى معرض الحديث عن الإجراءات التى تتبع إذا قررت المزرعة الجماعية زيادة الأرض المنزرعة وتوسيع حجم المزرعة ، فقال إن على المزرعة فى هذه الحالة أن تتقدم بملتمس رسمى إلى الدولة تحدد به الأرض الاضافية المطلوبة، فاذا وافقت الدولة على ذلك قام صندوق الأراضى باقتطاع جزء من الأراضى المجاورة وضمه إلى المزرعة ، وفى هذه الحالة تضم هذه الأراضى إلى المشروعات الخاصة بأعمال التوسع .

ويجاور هذه المزرعة الجماعية مزرعة أخرى حكومية مما أتاح لى الفرصة أن أقارن بين الاثنين .. وقد خرجت من هذه المقارنة برأى فى صالح المزرعة الجماعية ، فهى

أحسن حالا من المزرعة الحكومية . وأعتقد أن مرد ذلك إلى الحافز الشخصى فى المزارع الجماعية ، فإن أفراد المزرعة الجماعية يحصلون على فوائد مباشرة من زيادة الانتاج ، على حين أن المزارع الحكومية يقوم بزرعها أجراء من العمال الزراعيين تحت إشراف الحكومة ويتقاضى كل عامل منهم أجرا ثابتا دون نظر إلى ما تغله الأرض من إنتاج .

وكلا المزرعتين وما جاورهما من مزارع أخرى كانت جزءا من مزرعة كبيرة . وحتى القرية التى يسكنها عمال المزرعة الجماعية كانت واحدة من قرى هذه المزرعة الشاسعة .. وتتألف القرية الجماعية من خمسة وعشرين بيتا يضم كل بيت منها عددا من الغرف يتراوح بين غرفة وثلاث ، وتقع جميع البيوت على طريق واحد غاية فى القذارة . وهناك عدة بيوت أخرى فى أماكن بعيدة عن هذه المجموعة ولكنها من نفس الطراز فى الحجم والبناء .. وتقع فى الطرف الآخر من الطريق كنيسة القرية ذات الطابع الروسى المألوف ، وهى تستخدم الآن كمدرسة لأبناء القرية ومخزن .. وأمام الكنيسة يقوم الدكان الوحيد فى هذه القرية وهو دكان صغير جدا لا يكاد يذكر .. ويحيط بكل بيت من بيوت القرية حديقة لزرع الخضر تبلغ مساحتها حوالى فدان، ويقوم أفراد الأسرة بزراعة هذه الحدائق بأنفسهم وفى أوقات فراغهم . . وتمتلك خمسة وخمسون أسرة من الأربع والثمانين التى تسكن هذه القرية بقرة خاصة لكل منها ، كما أن حوالى خمس وأربعين أسرة تمتلك كل منها خنزيرا أو أكثر . ومعظم الأسر تربى الكتاكيت .. وبالاضافة إلى هذه الملكيات الخاصة تمتلك المزرعة الجماعية بصفة عامة خمسةوأربعين حصانا وثلاثين خنزيرا وستين رأسا من الغنم .

وهذه المزرعة كما رأيتها تمتاز بالتخصص ، إذ كانت أول الأمر مزرعة لانتاج الحبوب والماشية . وكانت تتلقى بذورا منتقاة للاكثار من هذه التقاوى والبذور لامعان توزيعها على المزارع الجماعية الأخرى .

وقد علمت من رئيس المزرعة أن الفدان الواحد فى هذه المزرعة ينتج فى المتوسط بمعدل ٣٩ بوشل من الشيلم الشتوى وأربعين بوشل من القمح الشتوى وثلاثين بوشل من القمح الربيعى ، و ٢٦٨ بوشل من البطاطس . وهذا الانتاج الذى يفوق إلى حد كبير متوسط الانتاج فى أراضى موسكو ليس نتيجة للبذور المنتقاة ولا حسن رعاية الأرض وحدها . ـ

ولا أخفى أننى كنت شديد الاهتمام بالوقوف على الوسائل التى تصرف بها المزرعة منتجاتها فى الأسواق ، فسألت عن طرق تصريف المحصول وعن الأسس التى توزع على مقتضاها المدخول الناتجة منها، فقال لى رئيس المزرعة : إنه سيضرب لى مثلا بالقمح باعتباره المحصول الرئيسى فى هذه المزرعة ، وذكر لى أن المزرعة أنتجت فى عام ١٩٤٥ سبعين طنا من القمح بيع منها نسبة محددة للحكومة بالسعر الرسمى الذى كان منخفضا جدا لدرجة يمكن معها القول إنه كان سعرا رمزيا . وقد بلغت هذه النسبة المبيعة للحكومة حوالى ١٩ طنا . وأعطيت محطة الحرث التى تقوم بحرث الأرض بحرارتها الآلية ودرس القمح سبعة أطنان مقابل هذا العمل . وفى الوقت نفسه قدرت لجنة المزرعة الاحتفاظ بخمسة عشر طنا للبذور وثلاثة أطنان لصندوق التأمين على المحصولات وطنين لدور حضانة الأطفال وأن تبيع طنين لتدفع تكاليف لوازم الانتاج الأخرى . فإذا أدخلنا كل هذا فى حسابنا بقى من المحصول أكثر من النصف بقليل وهذا القدر يوزع على المزارعين

الجماعيين فى المزرعة على أساس عدد أيام العمل التى يقوم فيها بالزراعة فى المزرعة طول السنة .

ومضى يشرح لى الأساس الذى يحتسب على مقتضاه يوم العمل فقال : إن الفلاح العادى سواء أكان رجلا أو امرأة يحتسب له يوم عمل كل يوم يؤدى فيه العمل كاملا بالفعل فى المزرعة على حين يحتسب للأطفال الذين يقومون برعاية الماشية والدواجن « نصف يوم » عن كل يوم عمل كامل .

وتزيد حصة الاخصائيين عن هذا القدر فيحتسب لهم يومان فى بعض الأحيان مقابل يوم العمل العادى للآخرين وأحيانا أخرى تحتسب لهم ثلاثة أيام . والمزارع العادى يحتسب له عادة ٣٥٠ يوم عمل طول السنة .. وهذا الرقم إن لم يكن مبالغا قد يعتبر رقما عاليا فى الكسب غير مألوف ، إذ أن الاحصاءات عن كسب المزارع العادى فى منطقة موسكو تتراوح فى المتوسط بين ٢٠٠ و ٢٥٠ يوما فى السنة .

و يتقاضى فلاحو هذه المزرعة عن كل يوم عمل أربعة ونصف رطل من القمح ، و ١١ رطلا من البطاطس ورطلين من الخضر ، ورطلين ونصف رطل من القش وثلاثة روبلات ونصف روبل نقدا وهو مايعتبر دخلا مرتفعا بالقياس إلى مستوى الدخول فى الاتحاد السوفيتى . و إذا ظهر أن الدخل النوعى لأية أسرة يزيد عن حاجتها فان القدر الزائد يمكن بيعه فى الأسواق . وتمتلك المزرعة عربتى نقل تستخدمها فى نقل المحصولات الزائدة من نصيبها أو من نصيب الأفراد إلى الأسواق المحلية أو إلى أسواق موسكو ..

وعدت أسأل عما إذا كان القدر المخصص للحكومة ثابتا على مر السنين أو

أنه يتغير من سنة إلى أخرى ، فأجابنى رئيس المزرعة بأن حصة الحكومة تحدد على أساس المساحة المنزرعة قمحا فى المزرعة وعلى أساس الانتاج المحتمل سنويا . ورجال الحكومة محيطون عادة بطاقة المزرعة و بنتاجها فى السنوات الماضية ، و بما جد فيها من آلات زراعية وأسمدة أو مخصبات تؤدى إلى زيادة الانتاج ، ومن ثم فإن نصيب الحكومة يقدر على أساس الانتاج المتوقع والذى تقدر الحكومة حصيلته على ضوء هذه البيانات وتحدد الحكومة فى الوقت نفسه جدولا للمدفوعات النوعية التى تتقاضاها محطات الحرث المحليه سنويا من نتاج الأرض، وتتوقف نسبة المدفوعات على كمية الانتاج فى السنة ، فاذا حدث وأخرجت الأرض محصولا وافرا زادت نسبة حصيلة المحطة وحصيلة موظفيها من هذا الانتاج .

ولرقابة اعمال محطاة الحرث ومدى جهود موظفيها فى المزرعة يعهد إلى رئيس المزرعة ورئيس فرقة الزراعة بها بكتابة تقرير مشترك لتقدير ماهية العمل ونوعه الذى يؤدى فى المزرعة ويرفع هذا التقرير لمدير محطات الحرث و إلى السلطات الزراعية المختصة .

وبهذه المزرعة مصنع للطوب بدأ انتاجه فى الوقت الذى كنا نزور فيه المزرعة . و يصنع الطوب بالأيدى بعد صبه فى قوالب خشبية و ينتج العامل الواحد يوميا حسب تقرير رئيس المزرعة خمسمائة طوبة . . ورئيس المزرعة كبير الأمل فى هذه الصناعة ومن ثم فهو عازم على التوسع فيها ... وارانى رئيس المزرعة أيضا مصنعا بسيطا لانتاج المناشير . وقد رأيت سير العمل فيه وأعجبت بالآلات الصغيرة التى ينتجها هذا المعمل البدائى وجهد العمال فى حفر قناة طولية فى قطع الأخشاب لتثبيت الشفرات الحادة وموازنتها من الطرفين لتمكينها من الحركة والعمل . وكان العمل سريعا و يدل على

مهارة فائقة . وكان رئيس المزرعة فخورا به . وله كل الحق فى ذلك .. ولـكن مرافق من رجال وزارة الخارجية الروسية بدا عليه الضيق لأن الوسيلة التى تستخدم للانتاج وسيلة بدائية . وقد ظهر هذا الضيق جليا حين منع أحد زملائى من أخذ صورة لهذه الآلات الصغيرة .. وقد منعنى أيضا من زيارة أحد بيوت الفلاحين من الداخل . وقد كنت طلبت ذلك إلى خبير المزرعـة الفنى وكان يسير إلى جانبى ، ولـكن مندوب الخارجية الروسية انتحى به جانبا وأنهى إليه ببضع عبـارات بالروسية ظنا منه اننى لا أستطيع متابعته بمعارفى المحدودة فى اللغة الروسية ، ولـكنى رغم ذلك استطعت أن أدرك أنه أشار إليه بعدم تمـكينى من رؤية منازل الفلاحين من الداخل و بدلا من هـذه الزيارة الممنوعة دعيت إلى منزل رئيس المزرعة لتناول الشاى فوجدت البيت مكونا من ثلاث حجرات بسيطة غاية فى النظافة والأناقة . وتحتوى الشقة على غرفة نوم واحدة وعلى غرفة متسعة للاستقبال والمائدة ومطبخ بدائى صغير . وكانت المائدة ملأى بخبز المزرعـة الأسود وخبز القمح الأبيض والبيض المسلوق والخيار والعسل واللبن والشاى . ولم أجد أثرا لشراب الفودكا الذى يقدم عادة . وقدمنا نحن مامعنا من شطائر وقهوة أحضرناها معنا من سبازو هاوس مقر السفارة الأمريكية .. وكان مضيفونا غاية فى الاكرام والود ولـكن كان يبدو على مظهرهم شىء من التحفظ لعل مرجعه إلى وجود ممثل عسكرى لوزارة الخارجية فى الاجتماع ولوجود آخرين من رجال الأمن يحومون فى الخارج حول المنزل .

ودار الحديث على الشاى وسألنى رئيس المزرعة عدة أسئلة هامة عن الحياة الزراعية فى أمريكا وأبدى اهتماما شديدا لما تحدثت به عن المشتريات التعاونية وعلق عليه قائلا إن فى كل مدينة من مدن الاتحاد السوفيتى منظمة خاصة (لهـا اسم لايمـكن نطقه)

لتقوم بشراء لوازم المزارع الجماعية جملة من الأسواق .

وبعد تناول الشاى ألقيت نظرة على حديقة رئيس المزرعة الخاصة التى تبلغ مساحتها فدانا واحـدا وأثنيت عليها وإن كان رأيى فى الواقع أنها لا تقاس بحديقتى الخاصة بسبازو هاوس . وبعـد ذلك قمنا بزيارة دار الحضانة فى القرية ، وهو بيت مستقل ويعتبر من أكبر بيوت القرية ، وهو مخصص للعناية بالاطفال فى الوقت الذى تذهب فيه أمهاتهن للعمل فى الحقول . وكان فى الدار حوالى عشرين طفلا تقوم على حضانتهن سيدتان تشع من عيونهما اليقظة . . وتتقاضى السيدتان مقابل هـذه الحضانة مكافأة تعادل « يوم عمل كامل » ـ وكان معظم الأطفال نائمين ـ وهم خليط من أعمار مختلفة تتراوح بين بضع شهور وخمس أو ست سنوات وتعد لهم دار الحضانة وجبة الغذاء فى مطبخها الخاص . أما الصغار جدا الذين لا يطعمون فانهم يعتمدون على الرضاعة مباشرة من ثداء امهاتهن اللائى يعـدن من وقت لآخر من عملهن ليقمن بعملية ارضاع أطفالهن وهن يؤدين هذه المهمة راضيات باسمات . .

وكانت دار الحضانة عادية تماما ولـكنها نظيفة حسنة الادارة . وقد لاحظت أنه عندما تفتح النوافذ يوضع شباك يمنع الذباب من الوقوع على وجوه الأطفال وهم نائمون.

وفى الحق أن زيارتى لهذه المزرعة تركت فى نفسى فكرة طيبة عنها . صحيح أن الفلاح الامريكى لو قدر له أن يرى هذه المزرعة كلها وهو الذى يدير مساحة أوسع من الاراضى المنزرعة بمساعدة رجلين أو ثلاثة مستخدمين فى ذلك الوسائل الآلية، لسخر من هذه المؤسسة كلها ولرفض مستخدموه بإباء وشمم العمل فى ظل الظروف المعيشية القائمة فى هذه المزارع الجماعية والتى يراها فلاحو الاتحاد السوفيتى ظروفا عادية تماما . ولـكنى كنت آتيا من موسكو حيث يشـكو الناس عذرا ونقصا فى المواد الغذائية على حين يجد

سكان هذه المزارع الجماعية قدرا كافيا من الطعام، وهم فى الواقع لا يتوفر لهم الطعام فحسب بل إنهم يجدون مسكنا يأوون إليه ونارا يستدفئون بها . وهذا وحده يعتبر شيئا له اعتباره فى ظل الظروف القائمة فى الاتحاد السوفيتى الآن . ولقد مرت بالفلاحين أوقات عصيبة ذاقوا فيها مرارة الهلاك جوعا .. كان ذلك خلال الأيام المريرة التى فرض فيها النظام الجماعى للمزارع قسرا على أولئك الذين قاوموه ووقفوا فى وجهه والذين آثروا أن يخربوا الأرض على أن يسلموها للحكومة . . نعم كان ذلك يوم هلك مليونان من المزارعين فى اوكرانيا حين صادرت الحكومة محصولاتهم . . وقد اعطيت الأرض للفلاحين الذين سبق أن طالبوا بها إبان الثورة . وقد قسمت التفاتيش الكبيرة إلى قطع صغيرة مساحة كل منها بضعة أفدنة واعطيت هذه القطع للفلاحين الذين كانوا يزرعونها لكبار الملاك . ولم تكن نتائج التقسيم مما يحتمله زعماء الشيوعيين ، فان الملكيات الصغيرة التى يديرها الأفراد و يعملون فيها انتجت فوائض قليلة فى السنوات الطيبة كفت لإطعام عمال المصانع فى المدن ولكنها لم تكن كافية لتكديس مخزون احتياطى للطوارىء . ولكنها فى السنوات العجاف لم تكف لاطعام المدن ، واختزن الفلاحون بعض المحصول . وتدريجيا بدأ الفلاحون من غير ذوى الكفاية والقدرة فى هجر الأرض أو بيعها لجيرانهم القادرين ذوى الكفاية على زرعها وهكذا نشأت من جديد طبقة جديدة من الفلاحين الموسرين اخذوا فى استخدام العمال فى زراعة أراضيهم .

وقد كون هؤلاء الموسرون وجيرانهم الأقل يسارا الذين اصبح لهم كامل الاستقلال فى أراضيهم التى اصبحت ملكا خالصا لهم ، طبقة بورجوازية صغيرة داخل الدولة السوفيتية . وقد تسامح « لينين » مع هؤلاء الملاك الصغار أول الأمر وفى خلال السنوات الاولى المريرة للحركة الشيوعية كما تسامح مع غيرهم من اصحاب المناجر الخاصة والصناعات

للابقاء على الدولة الشيوعية .. وحالما ثبتت الشيوعية أقدامها ووطدت أركانها بدأت فى تصفية كلا الفريقين من أصحاب رؤوس الاموال الصغيرة، فقضت على الملاك الصغار المستقلين وضمت اراضيهم إلى المزارع الجماعية وهكذا اصبح انتاج المواد الغذائية مركزا فى وحدات كبيرة تحت رقابة الحكومة ليتيسر لها امتصاص فائض الانتاج لتستخدمه فى تغذية العمال فى المصانع السوفيتية التى أخذت فى التوسع السريع .

ولا تزال حالة المواد الغذائية فى الاتحاد السوفيتى كله حتى كتابة هذه السطور مخيفة . وقد كانت المحاصيل فى الأعوام الثلاثة الاخيرة جيدة ، ولكن هذا وضع استثنائى بالنسبة للاتحاد السوفيتى الذى يعد نفسه موفقا غاية التوفيق إذا ضمن محصولين جيدين كل خمس سنوات . . وعلى أية حال ، فإن المزارع الجماعية البالغ عددها ٢٥٠ ألفا هى حجر الزاوية فى السياسة الزراعية فى الاتحاد السوفيتى ، وهى ضمان ضد المجاعات المهلكة حتى فى السنوات السود التى يضعف فيها المحصول .

ولقد تبين لى أخيرا أن مزرعة « كولوس » الجماعية فوق المستوى العام لمثيلاتها بكثير ، والنساء العاملات فيها وإن كن نسبة مرتفعة ، إلا أنها أقل هى الأخرى من مثيلاتها فى معظم المزارع الأخرى ، إذ تبلغ نسبة العاملات من النساء فى هذه المزارع رقما يتراوح بين ٨٠ ، ٩٠ فى المائة . وحين كان « جون ستروم » رئيس تحرير مجلة « كانترى جنتلمان » فى موسكو صرح له الرفيق « بذكتوف » وزير الزراعة فى الاتحاد السوفيتى ، أنه عندما تعود الامور إلى مجاريها الطبيعية فى عام ١٩٦٠ أو عام ١٩٧٠ فان ٥٥ ٪ من أعمال المزارع سيقوم بها النساء .

وعلى الرغم من إنشاء محطات المحاريث الآلية فى روسيا الا أن الزراعة ماتزال تعتمد اساسيا على الأيدى العاملة من الرجال والنساء فى بذر الأرض وجنى المحصول . وكان لينين مدركا لذلك العجز حق الادراك وروى عنه أنه قال فى احدى المناسبات « اعطونى عشرين ألف محراث آلى تتحقق لنا الاشتراكية الكاملة » .

و إذا سلمنا بان هـذا هو محاولة فائقة لتبسيط الامور فان الحقيقة التى لايمكن الافلات منها هى أن الصناعات الثقيلة والزراعة تتداخل بعضها فى بعض إلى حد يجعل الكرملين وجها لوجه أمام مشكلة عويصة . فالطعام ليس كافيا بالقدر الذى يمكن به توزيعه فى كل مكان . ومن العسير زيادة المنتجات الغذائية دون توفير مزيد من الآلات الزراعية الحديثة . والعمال الذين يعملون لانتاج هذه الآلات الزراعية الحديثة يشكون من قلة الغذاء و إرهاق العمل ، ومن ثم فإن الانتاج بدوره يتعثر و يبطىء ..

ومايزال أمام الاتحاد السوفيتى قسط كبير من الجماعيـة يحتاج إلى التنفيذ . فإن المزارع الجماعية ماتزال بادئة فى الاراضى المستولى عليها حديثا وعلى الاخص فى دول البلطيق . وهنا يحاول صغار الملاك المعاندون الذين ورثوا هـذه الملكية من مئات الاجيال عن آبائهم وأجدادهم أن يقامروا للابقاء على هذه الأرض الطيبة ولكنهم فى الواقع يخسرون المعركة . وقد تحدثت إلى اثنين من هؤلاء الملاك عند ما كنت فى موسكو فروى لى كل منهما قصة تطابق قصة زميله تمام المطابقة ... قال لى الأول وهو لتوانى يملك سبعمائه هكتار من الأرض وحصانا واحدا وبقرة واحدة ومحلا واحدا .. و بالطبع لايستأجر هذا المزارع عمالا لمساعدته و إلا عرض نفسه للاتهام بانه يستغل العمال . . قال لى هـذا الرجل: إنه يعطى الحكومة كل عام ٦٦٠٠ رطل من القمح و ٥٢٨٠ رطلا من البطاطس و ٣٧ رطلا من الزبد و ١٧٠ بيضة .. فاذا لم يكتمل له هذا القدر

أو معظمه فان عليه أن يشترى ماينقصه من أحـد الفلاحين المجاورين أو يبادله سلعة بسلعة ليستكمل حصة الحـكومة من كل مادة من هـذه المواد .. ويطلب منه فوق ذلك أن يبيع المنتجات الزائدة عن حصته الغذائية وحصة اسرته إلى الحـكومة بثمن بخس إذا قورن بالسوق الحرة .. ومضى يقول لى فى مرارة: إن الحـكومة تدفع له ٤ روبلات ونصف روبل ثمنا لكل رطلين ونصف رطل من الزبدة وهو عشر ثمنها فى السوق و٧٥ر٢ روبلا ثمنا لـكل ١١٠ أرطال من البطاطس فى حين أن ثمنها فى موسكو يبلغ خمسين روبلا وهو يتوقع أن يتقاضى ٨٠ روبلا ثمنا للعجل الذى يملكه من الحـكومة وهو مضطر لبيعه ليستعين بثمنه على دفع الضرائب المستحقة عليه على حين أن ثمن الرطل من لحم العجل يساوى ١٢ روبلا ونصف روبل فى موسكو . وهكذا بأبسط عبارة تمتص الضرائب مقومات وجوده بل حياته ..

وقال لى الآخر وهو شاب من « لاتفيا » فى مقتبل العمر غاية فى الذكاء والاعتداد برأيه : إنه يزرع هكتارا ونصف هكتار من الأراضى المنزرعة ، أربعة ونصف هكتار من المراعى وأن المنطقة التى يزرع فيها بدأت الحـكومة أخيرا بتطبيق النظام الجماعى عليها فقاوم أصحاب الأرض المشروع . . . ويمضى الشاب فى قصته فيقول : إنه يملك بقرة واحدة وإنه مع ذلك مطالب من الحـكومة بأن يبيع لها فى كل عام ١٧٦ رطلا من اللحم بسعر يختلف باختلاف صنف اللحم ولـكنه على العموم يقـدر فى المتوسط ب سبعة عشر ونصف روبل للرطل الواحد (ويساوى هذا الرطل فى موسكو ١٧ روبلا) وهو فى منطقته بالذات يشترى الرطل من اللحم العجالى بعشرة روبلات والرطل من لحم الخنزير بعشرين روبلا . وعليه أيضا أن يبيع إلى الحـكومة كل عام ٩ ارطال من الزبد ، ٢٢٠ لـترا من اللبن بسعر منخفض جـدا ، كما عليه أن يسلم الحـكومة

٣٠٠رطل من الشوفان ، ٧٥٠رطلا من البطاطس وتدفع له الحكومة فى مقابل ذلك ثمنا يبلغ حوالى واحد فى المئة من ثمنه الأساسى فى السوق .

ويدفع هذا الفلاح علاوة على ذلك كله ٦٠٠ روبل كل سنة ضريبة الأرض . وعليه أن يدفع ٣٠٠ روبل قسط التأمين السنوى على بيته ومزرعته .

وسألته كيف تبرر الحكومة مسلكها فى المطالبة فى وقت واحد من بقرة واحدة بكثير من اللبن والزبد واللحم الطازج ، فضحك من السؤال وقال: إن الحكومة ليست ملزمة بان تشرح لأحد .. وقد وجد هذا الشاب هو وجيرانه مواردهم ليستطيعوا سداد نصيبهم للحكومة . وبعبارة أخرى يتعاون الجيران فيقدم هذا عجله وهذا خنزيره فى مقابل اللحم المطلوب منهم ومن جيرانهم ويقدم الجيران بدورهم مقدار اللبن والزبد المقرر على الجميع .

وكان على هذا الشاب هو وجيرانه أن يدركوا أن مثل هذه المقاومة لا جدوى منها ولا أمل فيها فإنه إذا لم يخضع هو وجيرانه ويسلموا الأرض إلى المزارع الجماعية فان الضريبة ستزداد سنة بعد سنه وأثمان السلع المفروضة عليهم ستخفض إلى حد يحملهم إما على التسليم والانضمام للمزارع الجماعية أو العمل للحكومة .

ولقد رأيت بنفسى قبل مغادرتى موسكو صورة لخطط الدولة فى الجهة الزراعية إذ أعلنت الصحف أن مجلس وزراء مولدافيا الجمهورية الاشتراكية السوفيتية التى لايزال يحتفظ بعض فلاحيها باراضيهم، قد أصدر قرارا يطلب به إلى جميع الفلاحين تسليم انتاجهم من البطاطس فى عام ١٩٤٨ جبريا للحكومة ، وحدد هذا القرار الحصص المطلوبة على كل هكتار من الأرض على الوجه الآتى : ٢ كيلو على كل هكتار من أرض المزارع الجماعية . أما فى أراضى الأفراد فقد حددت النسب :

١٥ كيلو عن كل هكتار	لمن يملك	١	ـ ٥ هكتار
٢٠ « « « «	«	١ و ٥ ـ ١٠	«
٢٥ « « « «	«	٥و١٠ ـ ١٥	«
٣٠ « « « «	«	أكثر من ١٥ هكتارا	

وهذه الكميات يجب أن تسلم سواء أكانت الأرض منزرعة بطاطس أو أى شىء آخر . وعلى المزارع الذى لم يزرع البطاطس أن يشترى هذا القدر من البطاطس من السوق بالسعر المرتفع وأن يبيعها ثانية للحكومة بالسعر المنخفض المحدد من الحكومة لمثل هذه الالتزامات .

وفى ظل حكم ستالين تم القضاء على المزارع المستقل . وقد بدا هذا القضاء المحتوم واضحا لايقبل الجدل منذ بدء تطبيق المزارع الجماعية قسرا فى اوكرانيا وفى جميع المراحل الأخرى التى تمت حتى اليوم .. ولقد تولانى شىء من الدهش حقا أن تقوى الأحزاب الشيوعية فى المناطق الزراعية فى أوربا الغربية مع أن الفلاح بطبعه و بضرورة وضعه محب للفردية متمسك بالملكية. ولكن الفلاح ككل شخص آخر لا يتعلم إلا بعد أن يذوق مرارة التجربة . وهو دائما يغضى عن المثل الذى يضرب أمامه والحادثة التى تقع بأكملها أمام عينيه والتى تدل بما لايدع مجالا للشك على أنه من المستحيل على دولة شيوعية أن تتسامح فى بقاء عدد كبير من صغار الرأسماليين ، وأنه مهما تكن الوعود التى تبذل ومهما قيل فيها مايخالف هذه الحقيقة فان النهاية المحتومة والتى لامناص منها هى أن الزراعة يجب أن تخضع للنظم الجماعية ، وأن تكون كلها تحت إشراف ورقابة الدولة ..ولقد تأثر الفلاحون فى غرب أوربا بما يبثه فيهم المثقفون من الشبان والشيوعيون المسافرون الذين يتسربون إلى جمعياتهم وعلى الأخص فى البلاد التى تضطر فيها

الحكومات غير الشيوعية بدافع من الحاجه الملحة إلى اتخاذ تدابير قاسية لا يحبها الشعب.

ولقد وقفت إلى جانب مسيو « توريز » زعيم الحزب الشيوعى الفرنسى عند زيارته لموسكو وهو يتباحث مع جماعة من زملائه الشيوعيين الروسيين فى موقف الشيوعيين فى فرنسا فسمعته يقول إن المنشورات الشيوعية قد اتسع نطاق توزيعها فى صفوف الفلاحين الفرنسيين ولكن استجابتهم لها كانت تتسم بالحرص ، ومن ثم كانت « أرباح » الشيوعيين من أصواتهم الانتخابية أبطأ مما كان متوقعا . وقد قال أحد المستمعين من السوفيت القدماء بصبر نافذ « عاملوهم كما يعامل الكولاك (الفلاح الروسى) ». فالشيوعيون لا يثقون فى الفلاحين أبدا ، وقد شعر فلاحو المزارع الجماعية بأن المنجل بدأ يتناولهم بالتشذيب والاقتطاع حين صدر فى ١٤ يوليه قانون بتعديل الضريبة على الأراضى الزراعية . وقد صدر القانون الجديد كما نشرته صحيفتا برافدا وازفستيا بالعبارة الآتية « نظرا لازدياد دخل المزارعين الجماعيين من مواردهم الصناعية الاضافية كحدائق دورهم وماشيتهم ومنتجاتهم غير الزراعية رؤى زيادة نسبة الضريبة على الأراضى الزراعية اعتبارا من أول يوليه » . ومضى القانون بعد ذلك يقضى بزيادة الضريبة من ٣٠ فى المئة إلى ٣٧ فى المئة ، وينص على تحصيل ضريبة مقدارها ٥٠ فى المائة من الضريبة المقدرة من كبار السن الذين كانوا قد أعفوا من قبل من دفع الضرائب ويلغى التخفيض المقدر بخمسة عشر فى المائة الذى كان يتمتع به سابقا الذين لا عائل لهم . وينص القانون أيضا على اعفاء الدخل الناتج عن الاجور اليومية سواء أكانت نقدا أم عينا التى يحصل عليها المزارع من عمله فى المزارع الجماعية من الضريبة . وواضح من هذا أن كثيرين جدا من المزارعين الجماعيين قد اكتشفوا أن فى استطاعتهم كسب مال وفير من الاتجار فى السوق الحرة نظرا لارتفاع أثمان الأغذية فيها ، ومن ثم كرسوا وقتا أكثر للعمل فى أراضى

حدائقهم المنزلية ، ولذلك قررت الحكومه العمل على التخلص من هذه البقية الباقية من ذيول الرأسمالية التى تبيح حق التملك الفردى .

ومهما يكن من شىء فبغض النظر عن أثر مثل هذا التشريع على الفرد ، فإن الحملة التى قصد بها القضاء على المزارع المستقل وتركيز الزراعة كلها تحت اشراف الدولة الكامل قد أدى إلى نتائج مرضية من وجهة نظر الحكومة السوفيتية . واستعاد انتاج المحاصيل إلى المستوى الذى كان عليه قبل الحرب، وذلك بفضل التوسع فى استخدام الآلات الزراعية . وظل الانتاج مستمرا فى الصعود على الرغم من أن أقل من نصف السكان فى الاتحاد السوفيتى بنسبة ضئيلة أصبحوا يعتمدون فى معيشتهم على الزراعة ، وهى حقيقة تبرز لأول مرة فى تاريخ هذه البلاد . وهذا لا يعنى بحال أن درجة الكفاية فى انتاج المزارع الجماعية فى روسيا قد بلغ مثيله فى البلاد المتقدمة صناعيا ، و إنما يمكن القول على أية حال أن طرق استغلال المزارع الروسية فى تقدم مستمر .

وقد تضمنت المعاهدات التجارية التى عقدها الاتحاد السوفيتى خلال العامين الماضيين النص على تصدير كميات محدودة من القمح والحبوب إلى بريطانيا و بلجيكا و بعض الدول الضالعة مع الاتحاد السوفيتى . وقد ازدادت المواد الغذائية فى الأسواق الروسية خلال عام ١٩٤٨ ، و إن لم تبلغ بعد حد الكفاية أو تقترب منها . ومع ذلك فان استعداد البلاد وقدرتها على تصدير بعض الحبوب فى ظل هذه الظروف القاسية التى تعانيها من نقص مواد التغذية أمر جدير بالاعتبار .

وأذكر أنى سئلت كثيرا عند عودتى إلى الولايات المتحدة عما إذا كانت الصناعات السوفيتية قادرة إذا أعطيت فسحة من الوقت للتطور على أن تصبح من منافسينا الأقوياء فى الأسواق العالمية وعلى الأخص فى الشرقين الأوسط والأقصى .

وجوابى أنه من الصعب التكهن بما يكون من الحكومات الدكتاتورية وأى طريق تسلك للعمل فى موقف معين ، ولكن إذا نظرت للموضوع من ناحية نظام اقتصادى معين اعتاد على أن يستجيب للمطالب المحلية قبل أن يلجأ إلى التصدير للخارج ، أمكن القول بان الاتحاد السوفيتى أبعد مايكون عن سد حاجات شعبه ، ومن ثم فمن العسير والحالة هذه اعتباره أحد المنافسين الاقوياء فى الأسواق العالمية . وإذا نظرت إلى هذا السؤال أيضا من زاوية أخرى هى زاوية رجل الأعمال الذى لابد له من الحصول على مكسب لرأس ماله المستغل ، فالمنطق يدعونى إلى القول بأن الصناعة الروسية فى الوقت الحاضر عاجزة إلى حد كبير ومضيعة للجهود الفردية والعالية ، ولاتستطيع بأية حال أن تنافس فى تكاليف الإنتاج الولايات المتحدة ذات الإنتاج الضخم ولكن مع هذا فثمة حقيقة يجب الا تغيب عن البال هى أن الاتحاد السوفيتى ليس حكومة ديموقراطية ولا رأسمالية ومن ثم ففى استطاعة روسيا أن تغفل إلى فترات طويلة رغبات شعبها وتتركها بلا استجابة لأن الشعب كله مجند وفى اسطاعتها أيضا ألا تعنى نفسها بمسألة التوازن بين التكاليف وأسعار المبيعات إذا تدخلت فى الأمر الاعتبارات السياسية .

ولاعجب إذن أن يصبح الاتحاد السوفيتى منافسا للغرب إذا أمات عليه سياسة الحزب الشيوعى انتهاج هذا السبيل ، وعلى الأخص فى المناطق التى يدر افتتاحها للتجارة آمالا واسعة فى الكسب السياسى أو المذهبى . وفى مثل هذه الحالات لايشغل الاتحاد السوفيتى باله بمصاريف الإنتاج أو يعنى نفسه بها إذ من الذى سيسأله تقديم الحساب إذا باع سيارة تكلفتها ثلاثة آلاف دولار بالف دولار فقط أو إذا أوقف بيع المنسوجات فى اسواقه وصدرها لتباع بأقل من سعر التكلفة فى الاسواق ليستغل

عن طريق التجارة الخارجية بلوغ أهداف سياسية ؟ .

مثل هذا العمل ممكن ولا ريب ، ولكنى أعتقد أنه غير محتمل إلى وقت ما . ذلك أن النهوض بالصناعات الثقيلة أمر يعتبره المكتب السياسى للاتحاد السوفيتى من الأمور ذات الأهمية الحيوية . ولا يمكن بحال النظر فى تعديل المشروعات الخاصة به فى الوقت الحاضر لا فى ظل ظروف ملحة قاسية كأن تتعرض البلاد لأزمة كبرى على الأقل كما لا يمكن بحال الاتجاه إلى انتاج سلع تجاريه للتصدير إلا فى حدود ضيقة . ولا يلجأ إلى هذا إلا إذا كان هذا التصدير سوف يسفر عن مزايا مادية مباشرة للاقتصاد السوفيتى كما حدث أخيرا عندما صدرت المحاريث إلى دول البلقان . . وعلى أية حال فانه عندما تحقق سلسلة مشروعات السنوات الخمس أهدافها ، فإن الاتحاد السوفيتى سيوجه عندئذ اهتمامه إلى رفع مستوى المعيشة للشعب السوفيتى . وسيعمل على تحسين مستوى الانتاج فى الصناعات الخفيفة . . وحتى ذلك الوقت سيظل المستهلك الروسى تراوده الآمال التى عبر عنها مقال انتقادى نشر فى أواخر عام ١٩٤٨ فى صحيفة « موسكو بولشفيك » تحت عنوان « حديث من القلب إلى القلب » . . جاء فى المقال :

«لقد لقيت أخيرا و بعد طول غياب ايفان ايفانفش كروم بروم درتشنيان وكان وجهه ينبى عن الحزن والمراره والألم . وكان فى اجابته عن أسئلتى يكتفى بالتلويح بيده . . . وقال لى :

« ما فائدة البحث فى هذا الموضوع ؟ . . أن المشترى لم يعد كما كان ، وهذا هو لب المسألة . أنك لا تستطيع التعامل معه الآن . . . ! !

« وتجرأت على أن اسأله : وماذا حدث له يا ايفان مما لا تحب ؟ ولـكنى لم أتلق إلا الجواب التقليدى : النزوات ياسيدى . . . أتعرف أن شركة الـكيماويات فى موسكو أنتجت ما قيمته ٢ مليون روبل من علب ورنيش الأحذية ولـكن المشترى لا يريد شراءها مهما حدث . أن هذا فظيع . . ! !

« وحاولت أن أعترض فى اعتدال ، فقلت : إن هذا الورنيش كما يقولون فاسد ؟ ولـكن العلبة التى تحويه عليها صورة ! وهم يقولون : إن الحـذاء يصير أشد توصلا عندما يدهن بهذا الطلاء ؟ .

« فقال : ولـكنك تستطيع أن تحصل منه على أى قدر تشاء . إن استهلا كه ليس محددا .

« وهـكذا افترقنا دون أن ينجح أى منا فى اقناع الآخر . ولم أعرف أية وجهة سار ولـكنى ذهبت إلى مصنع للعب الأطفال . . دخلت المحل وتجولت فيه لأشاهد اللعب ولم البث أن سألت : هل نقل إلى هنا مكتب الحانوتى . . . ؟ ؟

« وكان الجواب لا بالطبع . أن كل شىء هنا على ماهو عليه . إننا مازلنا نصنع اللعب كما كنا من قبل . . . فأردفت ولماذا تبدون هكذا تعساء ؟ فقال المدير : السبب هذه الحبال التى صنعناها للقفز . . لقد صنعنا ١٥٠ ألف حبل ولـكن البنات لم يقبلن على شرائها . .

« وسألت ثانية : وهل هـذا الإحجام عن شرائهـا حدث منذ وقت طويل ؟ فقال : بل منذ البداية فانهن قلن فى صراحة : انهن لا يحببن هذه الحبال ، فقلت : كان الأولى بكم إذن أن تعدلوا عن صناعتها من البداية وأن تصنعوا بدلها شيئا يستهوى البنات . . .

« واستطردته أقول : أرجو أن تصنعوا ما يسد حاجة المستهلك . . . استجيبوا لحاجاته من أعماق ضمائركم ، واهتموا بمطالبه ولا تتجاهلوا النقد، تجدون أن كل شيء يحقق حتى للمصلحة العامة . وانى أؤكد لكم أنكم حين تضعون هذه النصيحةنصب أعينكم فستستطيعون بلا ريب التعامل معنا » .

---

obeikandl.com

الفصل الثامن

حرب الكلمات . . .

•••••

لقد واجهت الشيء الكثير فى الشتاء الماضى مما أمتحن به صبرى ، فان هذه الحكومة تملك طاقة عجيبة فى فن اخراج المبعوثين الأجانب و إحداث القلق فى نفوسهم دون أن تبلغ به حد الاهانة ، الأمر الذى قد ينطوى على بعض التعزية . لقد ساورنى القلق لوقت ما فى أن ينتهى الأمر بقطع العلاقات الدبلوماسيه بيننا . . ولكن حين مرت المسألة التى أثارت هذه الشكوك فى نفسى لم يبق منها شيء مما يمكن أن يثير قلقى من جديد . .

مقتطفات من رسالة وزير أمريكا المفوض فى روسيا مسترنيل براون
مؤرخة فى ٢٧ مايو سنة ١٨٥٢ من بلاط سان طرسبرج . .

قليلون هم أولئك الذين وهبوا مزية القيام بحملة للسلام وسط احتدام معارك الحرب الباردة التى تستخدم فيها وزارة الخارجية السوفيتية كل امكانياتها ومواهبها فى شن حملة للدعاية تستهدف فصم عرى الوحدة الدبلوماسية لدول الغرب .

على أنه رغم أن هذه المحاولة السوفيتية قد فشلت ، فاننا ينبغى إلا نغض الطرف عن الحادثة فى ذاتها لما تنطوى عليه من أهمية ، ذلك أنها علمتنا جميعا من تجربتها القاسية أن رجال الكرملين لم يتورعوا عن أن يدخلوا فى حملات السلام عوامل بث الفرقة وانعدام الثقة وأن ينغمسوا فى افانين من الخداع والغش ومحاولة التنصل

من التبعات ، تلك الصفات التى تخلع على علاقات الدول الأعداء فى مجرى الحرب الطاحنة . وقد كشفت لنا هذه التجربة عن دلائل صارخة على أن الدعاية فى ايدى الاتحاد السوفيتى ما هى إلا أداة عدوانية على أوسع نطاق ينقلها السوفيتى من ميدان إلى ميدان فى مرونة فائقة ويضغطون بها فى الجبهات السياسية والسيكلوجية للفوز فى هذه المعركة الهائلة التى تستهدف بها الدول الكبرى التى تشنها فى كل مكان من المعمورة كسب عقول الناس وأفئدتهم .

وكانت المناسبة التى لمست فيها « حملة السلام » وسط معركة الحرب الباردة المحتومة بين الشرق والغرب هى سلسلة المحادثات السرية التى قمت بها فى مايو سنة ١٩٤٨ مع وزير الخارجية السوفيتية إذ ذاك الرفيق مولوتوف والتى باتت معروفة ومشهورة الآن . . وقد سعيت للاتصال بالرفيق مولوتوف على أثر تعليمات تلقيتها من وزارة الخارجية الأمريكية لأبين له ولزعماء السوفيت فى جلاء أن السياسة الخارجية للحزبين الأمريكيين الجمهورى والديموقراطى مستقرة ومستمرة وأن فى عزم الولايات المتحدة وقف أى أعمال عدوانية للتوسع يقوم بها الاتحاد السوفيتى . وقد فعلت هذا حتى لا تضللهم الحملة الخطابية العنيفة التى كانت دائرة فى معركة الانتخابات الأمريكية فقد كانت فيها ثلاثة اتجاهات تغذى كل منها حملة كبرى للفوز فى سباق الرئاسة عام ١٩٤٨ . وكان هنرى والاس يتبع حملة انتخابية يؤيدها الشيوعيون ضد الحزبين الديموقراطى والجمهورى معا . وقد اتهم والاس الحزبين بانهما يعدان للحرب بمعاملتهما الجافة لروسيا . . ولم يكن أى من الحزبين الكبيرين قد سمى مرشحه بعد . وكان كثيرون من الناس ذوى الآراء المتباينة فى المسائل الداخلية والخارجية مازالوا فى معرض المفاضلة يبحثون عن الأصلح . وحين احتدمت المعركة كان من المقطوع به بغض النظر

عن اتفاق الأغلبية العظمى من الشعب الأمريكى على الخطوط الرئيسية للسياسة الخارجية أن سير المشاكل الدولية وطريقة علاجها لابد سيكون مثار نقاش فى إبان المعركة الانتخابية وأن سياسات معينة انتهجتها الحكومة الأمريكية وعملت بمقتضاها ومقترحات أخرى طرحت على بساط البحث ورفضتها ستكون موضع بحث الأحزاب المتنافسة وموضع التحدى فى بعض الأحيان .. ولما كان رجال الكرملين فى عزلة عن مجرى السياسة الداخلية فى أمريكا وطريقة الانتخاب عندهم متحجرة جافة لاحيوية فيها ، وليست لديهم أية فكرة عن تضارب الأراء بين القوى المتعارضة فى انتخابات حرة كالتى تجريها أمريكا كل أربع سنوات ، فقد أردنا ألا يخرج زعماء روسيا من هذه المعارضة الانتخابية بفكرة مؤداها أن أمريكا منقسمة حول المسائل الأساسية أو أن شعبها بالغ الاهتمام بالشئون الداخلية لدرجة فتر معها اهتمامهم بمواقع النوتر فى المسرح الدولى .. وكنا لانريدهم فى الوقت نفسه أن يقبلوا بلا روية دعايتهم الماركسية التى تدعى أن انهيارا اقتصاديا أمر واقع لا مناص منه فى الولايات المتحدة ، ومن ثم فان قوتها كدولة عالمية عظمى يجب أن تخرج من الحساب .. وكانت السلطات السوفيتية المسئولة قد خلعت على حملة هنرى والاس الانتخابية أكثر مما تستحق من القوة والأهمية ومن ثم عمدت نتيجة لذلك إلى زيادة الضغط على الحدود الايرانيه والتركية وقدمت عونا متزايدا للثوار فى اليونان .

هذه الاعتبارات هى التى كانت تدور فى خلد الرئيس ووزير الخارجية عندما طلبا إلى أن أزور مولوتوف لأوضح له وعن طريقه للمكتب السياسى السوفيتى (البوليتبيرو) الفرق بين الحملات الانتخابية والبيانات السياسية التى تلقى فيها و بين سياسة الحزبين المحددة الثابتة التى هى طابع السياسة الخارجية للولايات المتحدة والتى

لم تتغير ولن تتغير مهما تكن نتائج الانتخابات . وفى الحق لقد اتخذت أهبتى بعناية لهذا الحديث ووافقت وزارة الخارجية الأمريكية مقدما على المذكرات التى أعددتها والتى استندت إليها فى تبيان أهداف السياسة الأمريكية .

وكان اجتماعى الأول بمولوتوف فى هذه السلسلة من المحادثات يوم ٤ مايو ١٩٤٨ . وقد أبلغته أن حكومتى كلفتنى أن أتصل به بصفة غير رسمية لأوضح له بصراحة و بصفة سرية موقف حكومة بلادى . وكان الحديث بيننا وديا ولكنه كان غاية فى الأهمية.. وتباحثنا لبضع دقائق فى أهمية مثل هذه المحادثات غير الرسمية والسرية فى تدعيم التفاهم المشترك واتفقنا على أنها أكثر قيمة من المؤتمرات الرسمية التى لامناص من علانيتها .. ولم يدر فى الخلد أى سوء فهم من الجانبين حول ضرورة السرية فى مثل هذه المحادثات التى تدور بين سفير ووزير للخارجية .

وقد تلا ذلك قراءتى للبيان التالى الذى سبق نشره والذى أرى مع ذلك أنه لايزال يحتفظ بأهميته حتى اليوم لأنه يمثل العناصر الأساسية فى سياسة حكومة الولايات المتحدة : وفيما يلى نص البيان :

« لقد بينت فى وضوح فى المحادثات المبدئية التى دارت بينى و بين المارشال ستالين و بينك منذ سنتين الأثر الذى يتركه فى نفس الشعب الأمريكى استمرار روسيا على اتباع سياسة يلوح للناس أن هدفها الأول هو الاستمرار فى توسيع رقعة نفوذها . وأشرت فى هذه الأحاديث أيضا إلى أنه من الخطل تفسير مسلك الشعب الأمريكى الذى يميل بطبعه إلى السلام ، على أنه لن يتأثر تأثرا قويا وعنيفا بسياسة التوسع و بسط السيادة التى تفر منها دولة على جاراتها وأنه لن ينفعل نتيجة لهذه السياسة التى تنطوى على تهديد سافر لشعوب العالم .

« وأكدت حينذاك أن الولايات المتحدة ليست لها أية رغبة ما فى أن ترى العالم وقد انقسم إلى معسكرين كبيرين ولا فى أن توجه جزءا كبيرا من دخلها لصيانة مؤسساتها العسكرية التى يستدعى هذا الموقف العالمى ضرورة بقائها لمواجهة الدفاع الأولى عن نفسها .. وقد كان من الواضح عند ذاك أن اتباع مثل هذه السياسة التى وضعت من شأنها أن تؤدى إلى وضع لامناص منه هو تبلور جميع المناطق غير الشيوعية فى العالم وتماسكها فى وجه هذه التطورات التى تعتبرها شعوب هذه المناطق تهديدا متزايدا موجها إليها . ولم يكن بد أيضا من القول بان الولايات المتحدة ستضطر فى وجه هذه الظروف باعتبارها أقوى أمة فى هذه الجماعات غير الشيوعية أن تأخذ دورا فى قيادة هذه الحركة ، وأن تفرد جزءا كبيرا من طاقاتها للمحافظة على المؤسسات العسكرية التى تستدعيها مواجهة تطورات الموقف العالمى. ولاشك أن شعب الولايات المتحدة كان يفضل أن توجه هذه الطاقات للمساعدة على إعادة بناء وتعمير العالم الذى خربته الحرب الماضية .

«ومن سوء الطالع أن المخاوف التى شعرت بها حينذاك قد تحققت ، إذ منذ ذلك التاريخ أنتجت سياسة الاتحاد السوفيتى فى شرق أوربا الأثر الذى سبق لى أن توقعته .. وأصبح الموقف الذى وصلنا إليه نتيجة لهذا واضح الخطورة .

« ومن هنا بدأت الشعوب الأوربية وشعب الولايات المتحدة تشعر بالخطر الذى تنطوى عليه سياسة الاتحاد السوفيتى ، ومن ثم حملها هذا الشعور بالخطر على التقارب ـ التقارب بقصد العمل على حماية أنفسهم الحماية المشتركة ولاغير ـ

« وهذا هو السبب الذى دعا حكومتى إلى إبداء الرغبة فى أن أوضح لكم فى صراحة موقف حكومة الولايات المتحدة .

« ومما يجب ألا يغيب عن البال أو تشوبه أية شائبة هو أن الولايات المتحدة

تصر فى عزم على أن تقوم بدورها فى هـذه الحركات التعاونية التى تستهدف الإنعاش والدفاع عن النفس . ولقد ازداد إصرار شعب الولايات المتحدة واهتمامه بهذه الأمور زيادة كبيرة نتيجة للعداء غير المفهوم الذى أظهرته حكومة الاتحاد السوفيتى تجاه مشروع الإنعاش الأوربى ، ذلك المشروع الذى لم يخرج منذ التفكير فيه وتطوره عن أن يكون تدبيرا قصد به كما هو واضح مد يد المعونة من جانب الولايات المتحدة للمساعدة على الانشاء والتعمير على أساس تعاونى لا ينطوى على إرهاب أو تهديد لأى أحد ـ والتوتر الحالى الذى يسود العالم الآن هو نتيجة لسياسة حكومة الاتحاد السوفيتى أو فى القليل نتيجة لأعمال الجماعات السياسية التى تخضع لهذه الحكومة كما هو واضح .. ولقد وضح أن هذه السياسة أنتجت الأثر الذى لم يكن منه بد من جانب الدول الأخرى بما فيها الولايات المتحدة .

« وليس لدى حكومتى أية فكرة عن النتائج التى رتبتها حكومة الاتحاد السوفيتى على مسلك الولايات المتحدة الحالى ولكنها لاحظت أن الصورة التى أعطتها الصحف السوفيتية عن هذا الاتجاه الجديد لحكومتى صورة مشوهة خاطئة غاية فى الخطورة . ولا تستطيع حكومتى أن تقدر بأية وسيلة مدى اعتقاد أعضاء حكومة الاتحاد السوفيتى فى صحة هذه الصور المشوهة . ولهذا السبب أود أن أوضح لكم بعض نقاط معينة تعتبرها حكومتى غاية فى الاهمية وإلا يساء فهم هذه النقاط فى هذه المرة .

وهذه هى النقاط :

١ ـ أن سياسة حكومة الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمسائل الدولية قد أصبحت

واضحة تماما فى الأشهر والأسابيع الأخيرة . وهى تحظى بتأييد الغالبية الساحقة من أبناء الشعب الأمريكى ، وسيستمر تنفيذها بقوة وبطريقة حازمة .

« وإنه ليكون خطأ كبيرا أن يعتقد الآخرون أن الاعتبارات الداخلية، كالانتخابات المقبلة مثلا، من شأنها أن تضعف ، على أى نحو، من تصميم الولايات المتحدة على تأييد ماتعتقد أنه حق . فإن الشعب الأمريكى يعرف دائما كيف يفرق بين المسائل الداخلية والسياسة الخارجية فى الوقت المناسب .

« وإن حكومتى لتعرف ، فى نفس الوقت ، إن المنظمات الشيوعية هنا وهناك قد عمدت إلى بث دعاية مؤداها أن ثمة أزمة اقتصادية مقبلة على الولايات المتحدة لن تلبث أن تؤدى إلى أحداث تغيير جوهرى فى السياسة التى تتبعها أمريكا . وإننا لنأمل ألا يكون هناك من تبلغ به الحماقة أن يضيع فرص التقدم نحو الاستقرار العالمى من أجل نذر أزمة اقتصادية ثبت أنها كانت كاذبة المرة بعد المرة . وحتى أولئك الذين يصرون على الاعتقاد من صدق هذه التنبؤات يجب على الأقل أن يتبينوا أن أية أزمة اقتصادية لن تؤثر بأى شكل من الأشكال فى مقدرتنا الانتاجية الأساسية ولا فى إدراكنا للعوامل الأساسية التى تستند إليها سياستنا الخارجية .

« ويجب أن يكون راسخا فى الأذهان أن الحالة الراهنة للشئون الدولية ترتبط بمسائل يعتقد الامريكيون أنها حيوية بالنسبة لسلامة الولايات المتحدة والسلم العالمى. ولن يخدع أحد نفسه فيما يتعلق بمدى أهمية سياسة الولايات المتحدة بالنسبة إلى هذه المسائل .

«٢ ـ ومن ناحية أخرى تحب حكومتى أن توضح بطريقة لايتطرق إليها الخطأ

أن الولايات المتحدة لا تضمر أية نيات عدوانية أو عدائية تجاه الاتحاد السوفيتى . وكل تأكيد يناقض هذا الاتجاه ليس إلا قولا كاذبا لايمكن أن ينشأ إلا عن سوء فهم تام أو دوافع خبيثة . فإن سياسة الولايات المتحدة قد وضعت بحيث لا يمكن أن تتعارض مع مصالح الاتحاد السوفيتى مادام يسعى إلى العيش مع جيرانه فى سلام ويتحاشى الإقدام على أية محاولات لبسط نفوذ مباشر أو غير مباشر فى شئونهم .

« والواقع أن كثيرا من عناصر السياسة الخارجية الأمريكية التى تلقى انتقادا قويا من الصحف السوفيتية ما كانت تنشأ لو لم يكن من الضرورى على الولايات المتحدة أن تساعد الدول الأخرى فى الدفاع عن سلامة كيانها السياسى ضد المحاولات التى تبذلها الاقليات الشيوعية للاشياء على الحكم وإقامة حكومات تخضع للمصالح الأجنبية . ولو أن هذه المحاولات توقفت ، لا نتفت بذلك الضرورة التى أدت إلى وجود المظاهر ـ التى لا تلقى ترحيبا من موسكو ـ فى سياسة الولايات المتحدة .

« إن الوضع الراهن للعلاقات الأمريكية ـ السوفيتية مصدر من مصادر خيبة الأمل الشديدة للشعب الأمريكى والحكومة الامريكية معا ، و بقدر مايعنينا الأمر ، فإن هذا الوضع يمثل اتجاها مؤلما غير مرغوب فيه ، نشعر بأننا كنا مسوقين إليه خطوة ، خطوة ، تحت ضغط السياسة السوفيتية والسياسة الشيوعية العالمية . وعلى الرغم من ذلك فإن اليأس لم يتسرب إلى قلوبنا قط فى إمكان تحول الحوادث على نحو يسمح لنا بالعثور على الطريق الذى يؤدى إلى إقامة علاقات كريمة معتدلة بين دولتينا و إلى التخفيف من حدة التوتر الذى يؤثر تأثيرا سيئا فى العلاقات الدولية فى كل مكان . وسنعمل من ناحيتنا على أن يظل الباب مفتوحا على مصراعيه للدخول فى مباحثات عامة ولتسوية خلافاتنا .

«وأن حكومتى لعظيمة الأمل فى ألا يستخف أعضاء الحكومة السوفيتية بموقف حكومة الولايات المتحدة كما أوضحته هنا . فإن فى استطاعتهم أن يخففوا من التوتر الذى يظلل كثيرا من المواقف التى تثقل اليوم كاهل الحياة الدولية . وإننا لنعلق أعظم الأمل أيضا على أن يفيدوا من هذه الإمكانيات . فإذا فعلوا فإنهم لن يجدوا منا تقصيرا فى الاستعداد والرغبة فى المساهمة فى استقرار الأحوال الدولية على نحو يكفل سلامة الشعوب السوفيتيه » .

وعندما اختتمت حديثى تحول مولوتوف على الفور ، كما كنا نتوقع أن يفعل ، إلى الهجوم المضاد فحمل الولايات المتحدة ـ بدلا من الاتحاد السوفيتى ـ مسئولية سوء العلاقات بين الدولتين الحليفتين منذ انتهاء الحرب مع دولتى المحور ، ولكنه قال إن البيان الجديد للسياسة الأمريكية سيكون موضع دراسة الحكومة السوفيتيه ـ يقصد « البولينبيرو » ـ المكتب السياسى ـ التى لا يمكن أن يتكلم بغير تفويض منها .

فقلت له إنه إذا كان فى إمكانى أن أساعده أو أساعد الحكومة السوفيتية فإنه يسعدنى أن أزوده بطريقة غير رسمية ، بنسخة من المذكرات التى كنت استعين بها فى الادلاء بحديثى . ووافق على ذلك . وأرسلت بالفعل نسخة من المذكرات إلى وزارة الخارجية الروسية عقب عودتى مباشرة إلى دار السفارة الأمريكية فى « موخوفايا أوليتسا » وهى تقع عبر الشارع تجاه السور الشمالى للكرملين .

وبعد خمسة أيام ، اتصلت بنا وزارة الخارجية السوفيتية وقال المتحدث إن مستر مولوتوف يريد أن يستقبلنى ليسلمنى رد حكومته على بيانى. وعندما وصلت إلى

مكتبه استقبلنى جادا متجهما و بدأ ـ كما فعلت أنا من قبل ـ يقرأ بيان حكومته مستعينا بمذكرات يحملها فى يده .

وقال ، أول ما قال ، إن الحكومة السوفيتية « تشارك حكومة الولايات المتحدة الأمريكية الرغبة التى أبدتها فى تحسين هذه العلاقات (السوفيتية ـ الأمريكية) » وأنها توافق عل ماتقترحه أمريكا من «البدء باجراء محادثات بين الدولتين وتسوية الخلافات القائمة بيننا . »

وكانت هذه العبارات هى العبارات الوحيدة التى بدأ فيها الاتفاق فى وجهات النظر فى البيان الطويل الذى ألقى بعد ذلك ، وكان ذلك الاتفاق قائما على خطأ فى التفسير ـ قد يكون متعمدا وقد يكون بغير قصد ومؤداه أننا على استعداد لأن نبحث ـ مع الاتحاد السوفيتى وحدنا ، و بغير اشتراك فرنسا و بريطانيا والصين ، و بقية الدول العظمى الأخرى المسائل الكبرى ذات الأهمية العالمية ، وهى التى بينت لمولوتوف من قبل أنها سبب تفاقم العلاقات بين بلاده و بلادى .

وعلى أية حال ، فقد اتضح عندما استرسل مولوتوف فى إلقاء بيانه أن زعماء الاتحاد السوفيتى قد فاتهم ،أو تجاهلوا عن عمد، النقاط الرئيسية التى حاولت ايضاحها، وهى أن الأغلبية الساحقة للرأى العام الأمريكى متحدة فيما يتعلق بتأييد اتخاذ سياسة خارجية موحدة بين الحزبين الأمريكيين الكبيرين تقضى بوقف التوسع السوفيتى العدوانى ، وأنه لن يغير أو يتراخى فى موقفه ، مهما يكن من الدلائل الظاهرية لاحتدام معركة الانتخابات فى الداخل .

وكانت بقية بيان مولوتوف تجرى على نمط مألوف لفرط ما تكرر من قبل بحيث لا أجد ضرورة لذكره هنا بالنص . وقد كرسه بأكمله للقول بأن روسيا على حق دائما ؛ وأن الولايات المتحدة مخطئة دائما ؛ وأن روسيا غير ملامة على ما يحدث من توتر فى العلاقات الدولية ، وأن على عاتق الولايات المتحدة يقع كل اللوم فيما يحدث من خلاف وانقسام بين حلفاء الحرب ؛ وأن روسيا لم تتدخل قط فى سيادة أية جارة من جاراتها ؛ وأن الولايات المتحدة بسطت نفوذها وتدخلها فى الشئون الداخلية للدول الأخرى فى القارة الأمريكية وفى أوربا أيضا ؛ وأنها تنشىء القواعد الحربية كما تعقد الأحلاف العسكرية الموجهة ضد الاتحاد السوفيتى ، وأنه بينما تمسكت روسيا باتفاقاتها التجارية مع الولايات المتحدة ، فإن بلادى تحاملت ضد الاتحاد السوفيتى فيما يتعلق بإرسال السلع الضرورية ، التى تم الاتفاق عليها ودفع ثمنها بالفعل ، وأن ذلك يمثل سياستها غير الودية إزاء حكومته .

وعند ما فرغ مولوتوف من الادلاء ببيانه أدليت بالرد الموجز التالى :

فيما يتعلق بالملاحظات الخاصة «بانشاء الولايات المتحدة للقواعد الحربية ، وسياسة فرض الحصار ، والتهديد بما يشبه الحرب » ليس لدى ما أقوله إلا أن تاريخنا ينهض دليلا يدحض أية شبهة فى أننا نتبع سياسة تضمر القيام بأية حرب عدوانية . وكما قلت فى حديثى السابق إن التقريب بين دول غرب أوربا والمساعدة التى تلقاها هذه الدول من الولايات المتحدة إنما هى أثر عكسى مباشر للمخاوف ونذر الشر التى تبعثها سياسة التوسع التى تتبعها الجمهوريات الاشتراكية للاتحاد

السوفيتى ، وأنه بينما لا يحق لى أن أ كذب حديثه ، لا أستطيع أن أ كف عن تفسير ما قاله مستر فيشنسكى من أن الحقائق تتحدث عن نفسها .

أن الولايات المتحدة مطمئنة إلى شرف أغراضها فيما يتعلق ببرنامج الانعاش الأوروبى (مشروع مارشال) وأن شعبنا ، كما ذكرت من قبل غير قادر تماما على فهم المشاكل المعزوة إلى هـذا البرنامج من جانب اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية . والولايات المتحدة تدرك تماما وتقدر الرغبة بل والحاجة إلى قيام علاقات ودية وثيقة بين اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية وجيرانه ، ولـكن هنا أيضا تتـكلم الحقائق عن نفسها . فإننى كنت على علم بالحوادث التى أعقبت قبول تشيـكوسلوفاكيا الدعوة إلى مؤتمر مشروع الانعاش الأوروبى فى باريس وما تبع ذلك من نقض هذه الدعوة خلال الزيارة السريعة التى قام بها مازاريك وجوتواله لموسكو بعد ذلك . أن بلادا كبلادى ، تسمح بالحرية المطلقة ، الآراء السياسية وطرق التعبير عنها ، لا تعارض الشيوعية بسبب مبادىء الماركسية التى تتضمنها ، ولـكنها تعارضها لسبب واضح بسيط هو أننا رأينا فى مناسبات متعددة كيف يصـل الشيوعيون إلى الحـكم بوسائل غير مشروعة وبرغم إرادة الأغلبية الساحقة للسكان فى البلاد المشار إليها . وستظل الولايات المتحدة متمسكة بإعتقادها أن الانقلابات التى تقوم بها الأقليات كان من المستحيل أن تحدث لولا المساعدات المادية والأدبية التى يقدمها اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية .

أما فيما يتعلق بالاتفاقيات التجارية ،فإنه ليس أحب إلى الولايات المتحدة من أن تشارك فى ظروف قائمة على التفاهم الصادق وروح التعقل فى التوسع التجارى مع اتحاد جمعية رياسة السوفيت الاشتراكيه والمساهمة فى انعاش الدول السوفيتية اقتصاديا ،

بعد أن تعرضت للدمار خلال الحرب . و إذا كانت ثمة حاجة للتدليل على شعورنا فى هذا الصدد ، فإن الدليل يمكن أن يوجد فيما حدث بالفعل . فقد بعثنا إلى جمهوريات الاتحاد السوفيتى ـ وفقا لقانون الإعارة والتأجير ـ كميات ضخمة من مواد الصناعة الأساسية التى كان واضحا عندما شحنت إلى الاتحاد السوفيتى أنها لا يمكن أن تعد فى وقت قريب للمساهمة فى المجهود الحربى . وان اختلاف وجهتى نظرنا فيما يتعلق بالتجارة ليس إلا نتيجة مباشرة أيضا لسياسة التوسع السوفيتية التى أشرت بها فى حديثى السابق .

و لم أكن أريد أن أشتبك فى معركة كلامية ،ولكننى استعرضت أخيرا بعض الاتفاقيات التى وقعت بيننا و بين الاتحاد السوفيتى و بخاصة اتفاقية روزفلت ـ لتفينوف ـ وكنت فى ذلك كمن يذكره ـ بما كنت على ثقة من أنه يعرفه بالفعل ـ فقد كانت المادة الوحيدة التى لم ينقضها اتحاد الجمهوريات السوفيتية هى المادة التى تنص على السماح بوجود رجل من رجال الدين فى موسكو .

على أنه لم يكن ثمة فائدة من الخوض فى مثل هذه المسائل ، بالنسبه إلى المسائل الكبرى الأخرى . ولقد أوضحت تماما ، كما أعتقد ، سياسة الولايات المتحدة والأسباب التى عجلت باتخاذ هذه السياسة ، كما استوعبت بيان مولوتوف عن سياسة حكومته توطئة لارساله فى الحال إلى واشنطون .

* * *

وانتهى الاجتماع عند هذا الحد ، ولم يكن هناك ، بقدر ما يعنينى الأمر ، ما يدعو

إلى السؤال عن مدى الثقة المتبادلة فى الحديث الذى دار بيننا ، فلم تكن الحكومة الامريكية تسعى إلى اجراء مفاوضات ثنائية مع الحكومة السوفيتية حول هذه المشاكل الكبرى ، ولعل خير دليل على ذلك أن الخطة التى رسمتها منذ أمد طويل لقضاء أجازتى فى مزاولة رياضة الصيد بنورماندى ، والتى كانت تقضى بالبدء فى الاجازة فى اليوم التالى للمحادثة الثانية التى جرت بينى و بين مولوتوف، قد ظلت كما هى بغير تغيير بغض النظر عن طبيعة الرد الذى حمله إلىّ .

ففى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى غادرت موسكو بطائرة السفارة الخاصة فى طريقى إلى فرنسا عن طريق برلين . ولم تكن الطائرة تحلق بنا فى الجو حتى سمعت راديو موسكو يذيع نص رد مولوتوف وحده ـ ودون أدنى إشارة إلى البيان الذى أدليت به عن موقف أمريكا . ولقد شعرت بالدهشة والخجل . فقد كان هناك البعض فى وزارة الخارجية الأمريكية ممن يعارضون فى هذا الاتجاه . وعندما عرضت فكرة ايضاح موقف أمريكا فى صراحة وثقة ، توقعوا احتمال خروج روسيا على العرف الدبلوماسى وانتهاز الفرصة لتجديد الدعاية « للهجوم السلمى » ، ولما أخذ رأيى قلت إن الحكومة السوفيتية كانت دائما فى مثل هذه الأمور تسلك مسلكا صحيحا ، وانها لم تنقض من قبل فيما اعرف قواعد الثقة الدبلوماسية ، وليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد فى انها ستفعل ذلك هذه المرة .

ولكننى عرفت ، والطائرة تزأر فى الجو فى طريقها الى برلين ، أننى أسأت تقدير مدى قسوة الدعاية السوفيتية ، وكان فى استطاعتى أن اقدر مدى الاضطراب والشك الذى يمكن أن يشيعه سوء تأويل الخطوة الامريكية فى جميع عواصم

أوربا والهياج الذى سيحدث بين الناخبين الأمريكيين بسبب تطور الأمور على هـذا النحو .

وكما حدث بالفعل ، أسرع وزير الخارجية جورج مارشال إلى الإدلاء ببيان قال فيه : « إننا لا ننوى بأية حال الدخول فى مفاوضات ثنائية مع الاتحاد السوفيتى حول المسائل التى تهم الحكومات الأخرى . » وإننا ننتظر من الروس الأعمال لا الأقوال لإثبات إخلاصهم للسلم العالمى وتسوية المشاكل الحالية المتوترة .

وبذلك تكون الحكومة الروسية قد حققت على أحسن الفروض ، نصرا مؤقتا ، ولكنها لم تفعل ذلك إلا بوسائل غير شريفة ، تعلم عن طريقها العالم درسا آخر عن استحالة محاولة التعامل مع الروس على النحو الذى تتعامل به مع دول العالم الأخرى .

ولقد أسهبت فى وصف هـذا الحادث لأننى أعتقد أنه يصور وسائل الدعاية السوفيتية ، وأن الدعاية فى سياستهم الداخلية والخارجية على السواء أداة كبرى تفوق فى مداها ووسائلها الجهود التى تمتاز بالخبرة والتى كان يقوم بها جوبلز ووزارة الدعاية فى حكومة النازى .

ويتميز رجال الدعاية السوفيتية بالتغلب والمرونة وهم يحملون خبرة نصف قرن من ممارسة الثورات ، كما يحسنون فى الخداع واثارة الاضطرابات منذ وقت طويل ، وقبل أن يحسن النازى ذلك . وهم يستطيعون فى أى وقت من الأوقات أن يغيروا مستوى نداءاتهم ، وأن يتبادلوا المواقف أو يعملوا على نقيض ما كانوا يعملون فى حملة سابقة . فهم يستخدمون الآن فى دول أوربا التى تدور فى فلكهم كل الوسائل

لكبت الشعور الوطنى واخضاعه للروابط العاطفية مع الاتحاد السوفيتى ، بينما يعملون فى نفس الوقت فى دول أخرى على اذكاء روح الوطنية ، كما يعمل مندوبو الاتحاد السوفيتى فى اجتماعات الأمم المتحدة ، وفى كل معترك دولى آخر على تأكيد تأييد روسيا للسيادة الوطنية ، أما أن هذه الادعاءات كلها تتعارض مع الموقف الذى تتخذه روسيا ازاء المارشال تيتو إذ ترى فيه عدوا يجب أن يتخلص منه شعب بلاده فيبدو أنه لا يعنيهم كثيرا .

ولقد أصبحت سياسة الاتحاد السوفيتى الخارجية وأغراض الشيوعية الدولية وثيقتا الصلة إلى حد يتعذر معه تمييز أحدهما من الآخر . والشيوعية الدولية تتخذ مقرها فى الاتحاد السوفيتى وتستخدم موارد الاتحاد السوفيتى . فالمصادر المادية والمعنوية مكفولة ، وكلما سمح الوضع الجغرافى ولم يبد معسكر الغرب اعتراضا كانت القوات المشايعة للحكومة السوفيتية تستخدم كقوة مادية أو لمجرد التهديد .

وكنتيجة لذلك حدث مزج بين نظريات كارل ماركس كما كان يفسرها ستالين ولينين وبين الاستعمارية الروسية القديمة التى يرجع تاريخها إلى قرون لتنجم عن هذا المزج نظرية مهجنة (مختلطة) وهى التى يعرفها العالم الآن باسم « الستالينية » إذ هى بلا شك تختلف عن الشيوعية كما حددها ماركس .

ولكى يدرك الأمريكى مدى الدعاية السوفيتية وأثرها ، يجب أن يذكر أن الحكومة تملك وتدير كل وسائل الاستعلامات ، كما تملك الصحف والكتب والمجلات والاذاعة والباليه والمسارح ودور السينما ، وقد امتدت الادارة الحكومية فى العهد الأخير أيضا إلى التلفزيون ، وقد بدأت فى موسكو ولينجراد منذ يناير الماضى اذاعات

بالتلفزيون ، حيث تباع الآن الأجهزة الخاصة به فى هاتين المدينتين .

وتستخدم الحكومة الروسية كل هذه الوسائل بلا حدود لتخلق ولتغير الرأى العام سواء فى الداخل أم فى الخارج ، وقد أضيفت إلى ذلك ، منذ انتهت الحرب ، جميع وسائل الاستعلامات فى الدول الخاضعة للنفوذ الروسى .

وتعد الأحزاب الشيوعية خارج نطاق الاتحاد السوفيتى فى نظر « الكرملين » خطوط الهجوم الأماميه على جميع النظريات الأخرى ، ولكنه يطلب منها أكثر من ذلك .

فقد قال ستالين فى عام ١٩٢٥ « أن مؤازرة الاتحاد السوفيتى من أهم واجبات الشيوعيين جميعا . »

ولقد استجاب الشيوعيون غير السوفيت إلى هذه الدعوة بإخلاص فقال فاجون باسم اتحاد العمال الفرنسى العام فى مؤتمر للكومنفورم عام ١٩٤٧ : « إننا نعد بالدفاع بكل قوانا عن الاتحاد السوفيتى » .

وقال لوى سالان السكرتير العام الفرنسى لاتحاد نقابات العمال فى نفس الوقت: « إننى مقتنع إلى أبعد حد بأن الضرورة تقتضى أن نفهم ونحب وندافع عن الاتحاد السوفيتى أكثر فأكثر » . وتعهد بيتوس ممثل اتحاد العمل الايطالى العام « بأن تقاوم قوى الديمقراطية الايطالية مقاومة حاسمة مثيرى الحرب الجديدة الذين يقومون بحرب مطلقة ضد الاتحاد السوفيتى » . وصرح زعماء الحزب الشيوعى الأمريكى « بأن أعضاء الحزب لن يحاربوا إلى جانب الولايات المتحدة فى أية حرب قد تنشب فى المستقبل ضد الاتحاد السوفيتى . »

وحدث فى عام ١٩٤٦ أثناء انعقاد مؤتمر السلام فى باريس أننى تناولت الغذاء على انفراد مع الدكتور فلاديمير كليمنتيس ، وكان فى ذلك الحين نائبا لوزير خارجية تشيكوسلوفاكيا فى حكومة الشيوعيين وقد أراد أن يناقشنى فى السبب الذى حدا بالولايات المتحدة إلى سحب قرض كانت قد قررت من قبل منحه لتشيكوسلوفاكيا

وتحدثت أنا عن نشاط « الكومنترن » ، فاجاب بأن الكومنترن قد حل .

فقلت : مهما يكن الأمر، فلست أرى ضرورة للالتجاء إلى الأوهام عندما نكون وحدنا ، فإنك لتعرف كما أعرف تماما أن الاحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتى تتلقى تعليماتها ، كما تتلقى المعونة من روسيا . فأكد الدكتور كليمنتيس أن الحزب الشيوعى الأمريكى لايتلقى توجيها ولا معونة من روسيا .

فسألته : « هل تستطيع أن تقول نفس القول عن الحزب الشيوعى الفرنسى ؟»

وعندما نظر إلى دون أن يجيب قلت : « إن الحقيقة التى لاشك فيها هى أن « البوليتيسبرو » ـ المكتب السياسى الروسى ـ الذى يواصل المهمة التى كان يقوم بها « الكومنترن » يقدم المعونة ويسدى التوجيه إلى الاحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتى وفقا لمقتضيات الموقف الدولى وما تشير به سياسة روسيا ».

هذا هو إذن جهاز الدعاية الضخم الذى يعمل فى خدمة الاتحاد السوفيتى ، والذى يلقى مساعدة قوية من عملائه المتجولين فى جميع أنحاء العالم ، والذى جعل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى بصفة خاصة والمدنية الغربية بصفة عامة منذ عام ١٩٤٦ هدفا لحرب لم يحدث لها مثيل من قبل فى زمن السلم فى شدتها وخبثها . وقد ازدادت هذه الحملة بالنسبة للولايات المتحدة شدة حتى وصلت اليوم إلى الحد الذى أصبحنا نصور فيه فى صورة الورثة الحقيقيين لما تسميه الدعاية السوفيتية « الوحش الفاشى الهائج المفترس»

وهذا أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى كل أمريكى .ونحن لا نشعر بالقلق لأن موقف الاتحاد السوفيتى غير صحيح وغير عادل إلى حد كبير من ناحية المفتريات والأكاذيب التى تغرى إلى دوافع الولايات المتحدة والانتقاص من قيمة مساهمتنا فى المجهود الحربى وفى حركة الانعاش بعد الحرب ولا إلى تحقيره الديمقراطية الأمريكية وسخريته من الصحافة الأمريكية وتطاوله على الثقافة الأمريكية والمجهودات العلمية وانتقاصه من قدر زعمائنا سواء فى مجلس الكرنجوس أم فى الحكومة الأمريكية .

ونحن لا نحب ذلك بالطبع ، ولكننا لا نفزع للأكاذيب والمفتريات . فنحن نعرف أن طريقتنا فى الحياة لن تنال منها المقارنة مع مستوى الحياة فى أية دولة أخرى من دول العالم ، إذا ما أقيمت هذه المقارنة . ولكننا نشعر بالفزع لأن الدعاية السوفيتيه قد وجهت عنايتها إلى إقامة الحواجز الدولية وبث الفزع ولأنها مشحونة بالخطر . ولقد صدرت الولايات المتحدة ، من ناحية ، فى صورة الدولة الرجعية الاحتكارية الاستعمارية التى تعمل على بث فرصة سيطرتها على العالم كما صورتها من ناحية أخرى دولة متدهورة منحله تتقاسمها الخلافات ، عاجزة عن الوصول إلى القوة الحقيقية بغض النظر عن مظهرها فى حالات الطوارىء . وصورت جهازنا الاقتصادى بأنه جهاز يوشك أن يتحطم ، تحت وطأة البطالة المتزايدة ، والخلافات القائمة بين الصناعات المختلفة والتى توشك أن تبلغ حد الحرب السافرة ، الاغنياء يزدادون ثراء ، والجماهير تعانى مرارة الفقر والحرمان والاستعباد . وقيل كذلك أن الرئيس وزعماء الكونجرس فى الميدانين الداخلى والخارجى على السواء لايمثلون إلا الاحتكاريين الرجعيين الذين لايؤيدهم الشعب الذى رسمته الدعاية السوفيتية فى صورة الشعب الذى يستغل فى قسوة بالغة ويرتعد فرقا أمام احتمالات المستقبل ويشعر بالحنين إلى

« الديمقراطية » السوفيتية باعتبارها المثل الأعلى الذى يتطلع إليه فى أمل ورجاء .

والسبب الذى يزيد من خطورة هذه الدعاية التى تصور حكومة الولايات المتحدة فى صورة حكومة ذات مطامع خبيثة ولـكنها لا تملك القوة اللازمة لتحقيق هـذه المطامع يتمثل (أى هذا السبب) فى احتمال أن يقتنع أولئك النفر القليل من صانعى السياسة فى الاتحاد السوفيتى ، كما خدعت الجماهير التى لاتعرف شيئا عن حقائق الأمور من قبل ، كما يبـدو أحيانا أنهم يفعلون ، وأن تشملهم الخمر التى يقطرونها بأيديهم .. وإنها لخمر قوية .

فى نهاية الشهر الأول من اجتماع الأمم المتحـدة فى عام ١٩٤٨ كتبت صحيفة « ازفستيا » التى قال لى مولوتوف نفسه فى إحدى المناسبات: إنها اللسان الناطق باسم الحـكومة السوفيتية ، تحت عنوان « النضال من أجل السلام » نصف جلسة الجمعية العامة بقولها :

« ولجأ ممثلو بريطانيا وفرنسا وكندا وإستراليا وغيرهم إلى أسلحة الخديعة والافتراء ضد المحاربين فى سبيل السلم وإنه لمن السذاجة أن نعتقد أن مارشال و بيفن وشومان أو حتى ما كنيل وشوكروس المتحمسين سيدافعان دفاعا سافرا عن الاستعـدادات للعدوان الجديد . وهم يهاجمون مبـدأ « الاجماع » لـكى يعزلون الاتحاد السوفيتى والجمهوريات الشعبية الأخرى ، ولـكى يحيلوا الأمم المتحدة إلى أداة طيعة فى أيدى المعتدين الأمريكيين . وهم يتحدثون فى إسراف عن حقوق الانسان لـكى يخفوا استبدادهم الفظيع واهدافهم الأنانية الضعيفة . وهم يدبرون عشرات من المناورات ثم يحركون أداة التصويت للعمل

« ولـكن صوت أرض السوفيت يسمع فى كل مكان وفى مقابل هذه المناورات

والمكائد قدم الوفدالسوفيتى مقترحات محدودة واضحة لمنع استخدام الأسلحة الذرية ، وخفض التسليح وتنظيم الاشراف على نواحى النشاط الخاصة بذلك داخل نطاق مجلس الأمن .

« ولو أن المرء أغمض عينيه وهو يستمع إلى كلمات خطباء أمريكا و بريطانيا لخيل إليه انه لم تكن هناك محاكمات فى نورمبرج ، وأن رو بينتروب لم يشنق ، وأن جو بلز لم ينتحر ، ولخيل إليه أنهم قد غيروا هيئاتهم وغيروا جوازات سفرهم وراحوا من جديد يستعدون لمهاجمة الدول الآمنة ويدافعون عن حق انتاج القنابل الذرية وسباق التسلح الجنونى .

« إن الحياة نفسها ، بالاضافة إلى الاتحاد السوفيتى تكشف القناع عن وجوه دعاة الحرب ، وعما تبذل المحاولات الانجليزية ـ الأمريكية لخداع الرأى العام بعبارات جوفاء عامة عن حب السلام ، فإن الصحف التابعة لهاتين الدولتين تتحدث عن سباق التسلح الجديد ، وعن الضرائب الحربية الجديدة ، وعن القواعد الامريكية العسكرية الجديدة فى الباسيفيك وجرينلاند وعن اعداد ٢١ فرقة من الدبابات التى يعدها الأمريكيون لتزويد الكتلة العسكرية الغربية بها .

« ولقد أكد مندوب البرازيل أن الانسان صنع فى صورة الله ، ولكنه عارض المقترحات السوفيتية المحددة التى تهدف إلى الحيلولة دون موت الناس جوعا ولإلغاء عقوبة الموت .

« إن الولايات المتحدة تريد أن تقود العالم . ولقد أكد مندوبها أن أمريكا متفوقة فى كل شىء . وفى الوقت الذى يفرض ممثلو الولايات المتحدة الامريكية فيه إرادتهم فى خشونة على الدول الأخرى ، يحاولون أن يمثلوا بلادهم فى صورة الحارس

النبيل للدول الصغرى أو صورته منقذ أوربا من « الخطر الأحمر » .

وانه لمشهد جدير باهتمام النظارة إلى أبعد حد . الرئيس يدعو للاقتراع فتتحول عشرات الأعين الطيعة صوب الوفد الأمريكى . ويرفع أحد الأمريكيين يده فى بطء فترتفع أيدى ممثلى كوبا وأستراليا والبرازيل و بلجيكا وتركيا واليونان وغيرها من الدول التى تعتمد على الولايات المتحدة كما لو كانت اشباحا ، و يصوت غيرهم بأرجلهم، إذ لا يجدون من الشجاعة مايجعلهم يرفعون أيديهم ضد المطالب غير العادلة لسادتهم الامريكيين .

« ومهما يكن من نتيجة الاقتراع ، فإن الشهر الأول لاجتماع الجمعية العامة للامم المتحدة قد سجل نصرا أدبيا لاتحاد جمعية رئاسة السوفيت الاشتراكية . فقد رأت شعوب العالم أجمع من الذى يدافع عن قضية السلم والأمن ومن الذى يضرم النار فى معسكرات الحرب . »

* * *

وهذا الذى نشرته « أزفستيا » ليس إلا بيانا جد هادىء إذا هو قورن بما كانت تنشره الصحف السوفيتية يوميا و بما كان يذاع عن طريق شبكة الاذاعة اللاسلكية السوفيتية . والواقع أن الثروة الضخمة التى يمتلكها رجال الدعاية السوفيت من الأوصاف البشعة والشتائم لتدعو فى حد ذاتها إلى الدهشة . فى مقال مقتضب واحد لصحيفة « فيسيتلسكايا جازيت » لاحظت أن « الروح البورجوازية الانجليزية الأمريكية » قد أشير إليها بمثل هذه الكلمات : « آكلة لحوم البشر »، « الغادرة »،

« القاسية » ؛ « الماكرة » ؛ « البعيدة عن روح الإنسانية » ؛ « الوحشية » ؛ المرائية » ؛ « الزائفة » ؛ « الخسيسة » ؛ «التى غذتها الرذيلة » ؛ « التى تكونت تحت تأثير أخبث الغرائز »

ولقد تعودنا ، فى خلال بضع سنوات على الروح العنيفة والاوصاف الجارحة التى تميز وسائل الهجوم الشيوعية إلى حد أصبحنا معه ككلب المزارع ، الذى وصفه مستر باركلى نائب الرئيس (سابقا) ، والذى تعود على أن تربط علب الأطعمة المحفوظة الفارغة فى ذيله حتى أصبح كلما رأى علبة فارغة جمعها ووضعها فوق ظهره . و بذلك تكون أمام حقيقتين هامتين .

أولاهما أن الدعاية السوفيتية تتجه إلى اتهام الدول الأخرى باصرار وعنف مستمرين بأنها ترتكب الأعمال التى يرتكبها الاتحاد السوفيتى نفسه أو التى ينوى أن يرتكبها فى المستقبل .

والثانية أن الاتحاد السوفيتى قد استخدم فى علاقاته الدولية ، وفى وقت السلم أيضا ، وسائل الدعاية القائمة على الخداع وتزييف الحقائق والمراوغة التى كنا حتى ذلك الوقت نعتقد أنها مقصورة على زمن الحرب . ولقد تساءل ملايين الأمريكيين .. لماذا ؟ والجواب على ذلك يمكن أن يوجد فى تقدير الدعاية السوفيتية فى ضوء ماتعرف أنه الاهداف الرئيسية للاستراتيجية الدولية للاتحاد السوفيتى . وهذه كما حددها ستالين بنفسه : « أن تعزز ديكتاتورية الطبقات العاملة فى إحدى الدول واستخدامها كقاعدة للقضاء على الاستعمارية فى سائر الدول » .

ومن السمات المميزة للدعاية السوفيتية استيعابها وقدرتها على تحويرها الكلمات والعبارات التى تعبر عن أرفع مثل الديمقراطية الغربية . « والديمقراطية » خير مثل على

ذلك ؛ فإن رجال الحكم ورجال الدعاية السوفيت يطلقون هذه الكلمة على أنظمة الحكم التى نعتبرها نحن متناقضة على طول الخط مع الديمقراطية . وكذلك كلمتى «الحرية» و« التحرر » فانهما تستخدمان بنفس الطريقة . وكذلك « السيادة القومية »... وهى عبارة يتذرع بها الاتحاد السوفيتى لاحباط كل حركة تهدف إلى إقامة نظام فعال للتعاون الدولى فى الاشراف على الطاقه الذرية .

وفى موسكو ، لم يكن أهم ما نعنى به أن نكافح الدعاية السوفيتية التى تبثها روسيا فى الخارج ، بل كنا نصرف جهودنا فى مقاومة آثارها داخل نطاق الاتحاد السوفيتى نفسه . وقد كانت الدعاية الروسية فى الداخل تهدف إلى حد كبير إلى القضاء على الرصيد المختزن من حسن النية تجاه الولايات المتحدة ، وهو الرصيد الذى خلفته الحرب داخل نطاق الاتحاد السوفيتى ، والشعور بالاعجاب الذى استمر وقتا طويلا والذى كان يحمله افراد الشعب الروسى للتقدم الصناعى والعلمى الأمريكى . ولقد كان المسرح بدوره يعمل على تعزيز الجهود التى تبذلها الصحافة والاذاعة ، بل أن « المهرجين » فى سيرك موسكو كانوا يقدمون على الأقل «فصلا» معاديا للامريكيين فى كل عرض ، وذلك بعد أن نشرت صحيفة « برافدا » مقالا نددت بهم فيه «لموقفهم السياسى » . كما قدمت مسرحية « السؤال الروسى » المعادية لامريكا فى قرابة ٥٠٠ مسرح فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى ، وقد أعقب تقديم هذه المسرحية مسرحيات أخرى تسير على نفس النمط ولكنها أقوى منها ، ومن هذه المسرحيات التى قدمت أخيرا « زا كون شيستى» أو « محكمة الشرف»وهى تضفى علينا شرف تصدير مجلتنا التى تصدر باللغة الروسية ، « أميريكا » !

وتعالج هذه المسرحية قصة عالمين روسيين استطاعا أن يتوصلا إلى صنع عقار

جديد . وكانا يؤمنان بأنه يجب أن يكون تبادل المعلومات العلمية حرا بين الدول ، وعلى ذلك فقد نشرا مقالهما عن العقار الجديد فى صحيفة أمريكية أولا . وتصادف أن كان أحد ضباط الجيش الأحمر، وهو برنين جنرال يقلب نسخة من مجلة « أميريكا » فى مكتب هذين العالمين ، فعثر بمقال عنوانه « للدول حدود أما العلم فلا حدود له » . وكان المقال يتضمن وصفا لأعمال العالمين الروسيين و يشير إلى أن مقالهما نشر أولا فى مجلة أمريكية . وأثار هذا العمل حنق الجنرال الروسى الذى صمم على أن يجرى تحقيقا فى الأمر . و يبدو فى هذا الوقت عدد من العلماء الامريكيين فى معمل العالمين الروسيين للاجتماع بهما . . وكان الهدف الذى يسعى الامريكيون إليه هو أن يعرفوا طريقة صنع العقار الجديد ، وأن يبيعوه لاحدى الشركات الأمريكية فيكسبوا مالا وفيرا .وعلى الرغم من أن الروس يصرحون لهم بمراقبة طريقة تهيئة العقار الجديد فإن مساعدى المعمل يحطمون الآلات لكى يحتفظوا بسر صنع العقار . وفى ذلك الوقت يصل أحد رجال الحزب و يقول إن السوفيت أيضا مهتمون بالحصول على سر تركيب عقار جديد اكتشفه الامريكيون ثم يطلب من أحد الامريكيين أن يتبادلوا سر الدواءين ولكن الامريكى يرفع يديه إلى أعلى ويقول انه لسوء الحظ قد باع سر تركيب عقاره لاحدى الشركات الامريكية . وأن هذه الشركة هى التى تملك حق صنع ذلك الدواء الآن . ولذلك فإنه لايستطيع أن يفضى إليه بسر تركيب الدواء (ومما يجدر بالذكر أن المتفرجين يقابلون هذا الفصل من المسرحية بحماسة شديدة) . وتنتهى المسرحية باكتشاف أن أحد العلماء الأمريكيين إنما هو جاسوس يعمل لحساب الجيش الأمريكى. ثم تعرض قصة خيانة العالمين الروسيين على ستالين الذى يأمر بمحاكمتهما أمام محكمة الشرف ؛ وتكون نتيجة المحاكمة أن يتراجع أحدهما عن آرائه و يرفض

الآخر فيحظر عليه فى المستقبل دخول المعمل . ويسدل الستار بينما يقول أولهما إنه من الآن فصاعدا ستنشر نتائج أبحاثه فى عالم الطب فى الاتحاد السوفيتى وستستخدم فى علاج الشعب الروسى أولا !!

وتخصص مجلات الأطفال ـ بصفة خاصة ـ مساحات واسعة منها للدعاية المعادية للامريكيين ، وقد اقتطفت هذه المقالة من العدد الصادر فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٧ من مجلة « بيوتيرسكايا برافدا » ، لأنها (أى هـذه المجلة) على الرغم من أنها محدودة الانتشار بالنسبة إلى المجلات الأخرى المماثلة لها ، إلا أنها تعد مثلا كاملا لسياسة «الخطوات القصيرة ، للارجل الصغيرة» التى يتعلم الأطفال السوفيتيون بها كيف يبغضون الولايات المتحدة ويخافونها . وفيما يلى هذا المقال :

«الولايات المتحدة الأمريكية هى أغنى دولة رأسمالية . وقد استفادت بصفة خاصة من الحربين العالميين فى عامى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) و (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) . وقد جردت هاتان الحربان كل دول العالم تقريبا من كل شىء ودمرتها تدميرا ، وأزهقتا ملايين الأرواح البشرية ، ولـكنهما لم تمسسا الولايات المتحـدة بسوء . فقد اضطلعت الولايات المتحدة بدور مربح ، هو دور مورد الأساحة وغيرها من البضائع للجيوش المتحاربة . لقد ازداد الإنتاج فى الولايات المتحدة الأمريكية وتضاعفت أرباح الرأسماليين . وأصبحت كثير من الدول مدينة بمئات الملايين من الدولارات لأمريكا.

« وفى الحرب العالمية الثانية لم تفقد الولايات المتحدة فى جبهات القتال أكثر ممن كانوا يقتلون فى أمريكا عادة فى حوادث المباريات . وقد خرجت أمريكا من الحرب بجيش كبير وبضاعة لم يمسسها سوء ، بل على العكس من ذلك قد ازدهرت واتسعت .

« و بعـد الحرب أصبحت رؤوس كثيرين من الساسة الأمريكيين قائمة لمجرد إحساسهم بقوة الولايات المتحدة ، وفى أمريكا الآن كثيرون من الناس بينهم وزراء بارزون وأعضاء فى مجلس الشيوخ ،وجنرالات ، وأميرالات ،ممن يعتقدون أن الولايات المتحدة أصبحت الآن سيدة العالم وأنها تستطيع أن تملى إرادتها على الدول الأخرى . وكل من لا يريد أن يخضع يمكن أن يرغم على الخضوع بالقوة بالقنبلة الذرية .

« على أن الشعب الأمريكى نفسه لم يصبح بهذا الموقف أكثر سعادة . وقد يكون ذلك غريبا ولـكن الواقع أن شعب أمريكا يعيش الآن فى مستوى أقل وأفقر مما كان يعيش عليه من قبل . ومما يدعو إلى الدهشة أيضا أن الانتاج قد زاد فى الولايات المتحدة ، ولـكن العمال يتقاضون الآن أجورا أقل من الأجور التى كانوا يتقاضونها قبل الحرب .

« وأن المواطن السوفيتى ، الذى يعيش فى ظل الاشتراكية ليعرف أنه كلما زاد إنتاج بلادنا ، كلما ارتفع مستوى المعيشة بين المواطنين ، و بقدر ما نعيـد إنشاء بلادنا وتزدهر صناعتنا وزراعتنا بقدر ما تزيد الحاجيات التى تتلقاها كل أسرة فى مجتمعنا . وكلما مر عام ، وكلما مر شهر ، سنصبح أغنى مما كنا وسنحيا حياة أفضل .

« ولـكن الأمر ليس كذلك فى أمريكا . فالرأسمالية قائمة هناك ، بل أكثر من ذلك أنها آخر مراحـل الرأسمالية ، و بلغة أصح ،أنها الاستعمارية ، فجميع المصانع والمزارع هناك ملك لنفر قليـل من أصحاب الملايين والاحتـكاريين . وأحد هؤلاء الاحتـكاريين يملك جميع مصانع السيارات ، وآخر يمتلك مصانع

النسيج ، وثالث هو المالك الوحيد لجميع مصانع الأحذية . بل إن هؤلاء ليس لهم منافسون .

« وكل ثروة الولايات المتحدة الأمريكية ملك لخمسين أو ستين أسرة من أصحاب الملايين . وهم يربحون ملايين جديدة . وفى عام ١٩٤٦ عمدوا إلى رفع جميع الأسعار بنسبة ٤٠ فى المائة ، ولكن الأجور لم تزد . أن الصناعات تعمل بأقصى قوتها ولكن ليس هناك أسواق كافية لتصريف البضائع لأن الشعب لا يملك المال الكافى . وبسبب تكديس البضائع بدأ أصحاب المصانع فى إغلاق مصانعهم ليتخلصوا من العمال والموظفين . لقد بدأ ملايين العاطلين يظهرون ، ونتيجة لذلك بدأت القوة الشرائية تنخفض أكثر وأكثر . أن الأزمة تعنى الفقر والجوع لمجموع الشعب وخفض الانتاج ، والقضاء على العمال والمزارعين والموظفين .

« وشعب الولايات المتحدة ينتظر هذه النكبة فى فزع ورعب .

« وكبار أصحاب رؤوس الأموال هم الذين يحكمون الولايات المتحدة الآن . وأعضاء الوزارة والشيوخ وأعضاء الكونجرس يعرفون أن الأزمة الفظيعة مقبلة ، ومع ذلك فإنه لا يدور حتى بخواطرهم أن يكبحوا جماح الاحتكاريين ، وأن يحدوا من جشعهم وأن يرغموهم على خفض الأسعار لتحسين حالة الشعب والتعجيل ببيع المنتجات .

« وللرأسماليين منطقهم الخاص الذى لا يقتنعون بغيره . وهم فى المكان الأول لا يخشون الأزمات كثيرا ، فهى تلذع الملايين من العمال ولكنها لن تدمر كبار الرأسماليين . وهم فى المكان الثانى يأملون أن يتمكنوا من النجاة من الأزمة الاقتصادية

بوسائلهم الاستغلالية الخاصة ؛ ليرغموا الشعوب على شراء البضائع الأمريكية بنفس الأسعار الباهظة .

« ولقد أصبحت الولايات المتحدة سيدة أمريكا الجنوبية المطلقة ، حيث تتسلط قوى الرجعية التى تنفذ فى ولاء إرادة رأس المال الأمريكى على جميع هذه الدول تقريبا . ولكن ذلك لم يعد يكفى الاستعماريين الأمريكيين الآن . إنهم يريدون أن يمتلكوا العالم بأسره . فكيف يتوصلون إلى إخضاع الدول الحرة الأخرى ؟

« لقد أعلن الرئيس ترومان بعض المبادىء باعتبارها الخطوط التى تحدد سياسة أمريكا الخارجية فقال إن الولايات المتحدة ستقدم المساعدات من الأسلحة والمال لقوى الرجعية ، والفاشيين الذين يبغضهم شعوب بلادهم ، والذين هم على استعداد ـ فى نفس الوقت ـ لوضع بلادهم تحت السيطرة الأمريكية ، وقد وجدت فى الحال دولتين صالحتين لهذا الغرض هما اليونان وتركيا ، وقد أصبحت الدولتان الآن بالفعل خاضعتين للنفوذ الأمريكى . أن الأمريكيين ينشئون قواعدهم العسكرية الآن هناك ، وأصحاب رؤوس الأموال الأمريكيون ينشئون الأعمال ويشترون كل ما يبدو لهم نافعا . ومن أجل هذا يتلقى الرجعيون الأتراك واليونانيون الذين يحكمون الدولتين المال والأسلحة من الأمريكيين ليقاتلوا بها شعوب بلادهم .

« ولكن اليونان وتركيا صغيرتان جداً ، وشهية أمريكا متفتحة قوية . ودعاة التوسع الأمريكيون يحكمون بأوربا كلها أو بأوربا الغربية على الأقل .

« ولما كان الاقتراح القائل بأن تصبح دول أوربا مستعمرات أمريكية كاليونان وتركيا أمر مستثقل فقد برز إلى الوجود فى أمريكا مشروع «مارشال» ! .. فقد أعلن مارشال هـذا أن الولايات المتحدة ترغب فى مساعدة دول أوربا فى إعادة إصلاح أداتها الاقتصادية التى دمرتها الحرب . وصدق الكثيرون ذلك .

« ولكن سرعان ما اتضح أن «مشروع مارشال» لم يكن سوى وسيلة ماكره لإخضاع أوربا كلها لرأس المال الأمريكى .

« وهاك ما كشف عنه النقاب :

« فى المكان الأول : يريد الأمريكيون أن يقرروا بأنفسهم ماذا يحق لكل دولة أن تنتجه وماذا عليها أن تشتريه من أمريكا .

« وفى المكان الثانى : سيقدم الأمريكيون بضائعهم (بالقرض) إلى الدول التى تحتفظ بنظامها الرأسمالى وعلى جميع هذه الدول التى تتلقى المعونة أن تتنكر لنظمها الاقتصادية الموضوعة . وبهذه الطريقة تضحى دول أوربا بالفعل باستقلالها .

« ثالثا : أن الأمريكيين يرغبون أولا فى إعادة بناء .. لا الدول التى دمرها الهتلريون ، بل ألمانيا نفسها . وهم يعتقدون بأن ألمانيا يجب أن تصبح مرة أخرى دولة صناعية قوية .

« رابعا : يؤمن الأمريكيون بأن أصحاب رؤوس الأموال الأمريكيين والألمان يجب أن يصبحوا سادة ألمانيا الغربية .

« وسرعان ما رفضت كثير من الدول — وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى ثم

بولندا ، ويوجوسلافيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبلغاريا ، والمجر ، ورومانيا ، والبانيا ، وفنلندا هـذا المشروع الذى يتيح لأمريكا أن تتـدخل فى شئونها الداخلية .

« واستجـابت بعض الدول الأخرى لاغراء مشروع مارشال، ولـكن الغشاوة سرعان ماانجابت عن أعينها هى فبدأت تشعر بالشك ، ورأت هذه الدول أن أمريكا تريد أن تستغل حاجة هـذه الدول لمصلحتها الخاصة ، وفى كل مكان ، فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وغـيرها من الدول بدأ الشعب ينتقد الوزراء الذين ابتلعوا الشص ـ الطعم ـ الأمريكى »

* * *

وفى مواجهة هـذه الأداة المنسقة لبث الدعاية على نطاق واسع ، وهى الدعاية التى تهدف إلى بث بذور الـكراهية بين شعوب العالم وحضهم على الشك فى أمريكا وفى صدق نواياها ازاء برامج المساعدة الواسعة النطاق التى بدأت العمل بها عقب الحرب ، وجدت حكومتنا أنها مضطرة إلى إتخاذ إجراءات مضادة ، وذلك لرواية القصة الحقيقية فى الخارج .

ولقد كتب دى جوشين منذ مائة عام وعشرة يقول : « إن حبة واحـدة من الحقيقة تسقط فى روسيا ستكون كالشعلة التى تسقط على برميل البارود . »

ولقد أكدت كل التقارير التى يقدمها مراقبونا فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى ، هذه الحقيقة ؛ وكان هذا الرأى بالفعل هو الذى دفع الحـكومة الأمريكية إلى العمل

فى فبراير عام ١٩٤٧ بطريقة أكثر إيجابية من أى وقت مضى منذ بدء فترة السلم . وكنا قد أصدرنا قبل هذا التاريخ بالطبع . مجلة « أميريكا » التى تصدر باللغة الروسية وتشبه إلى حد كبير مجلة «لايف» . وقد بلغ توزيع هذه المجلة قرابة ٥٠ ألف نسخة ، ولكن الحكومة الروسية كانت تفرض رقابتها على كل حرف فيها قبل النشر ، كما كانت تشرف على توزيع المجلة فى داخل البلاد . وقد كانت هذه المجلة أداة ثمينة ، ولكن من الواضح أنه كانت لها عيوبها .

ومع ذلك فقد كان لمجلة « أميريكا » كثير من القراء ، على الرغم من القيود التى كانت تفرضها الحكومة الروسية من توزيعها . وكانت النسخ المهلهلة الممزقة ترى فى كل زاوية من زوايا الاتحاد السوفيتى يزوره الأمريكيون . وكان مما لا يكاد يصدق أن صفحات مفردة من المجلة كانت تباع فى بعض الأحيان فى السوق السوداء بأسعار تصل أحيانا إلى روبل (وهو يوازى ١٢½ سنتا بالسعر الديبلوماسى) للورقة الواحدة ، وذلك وفقا لمدى أهمية الموضوعات التى تتضمنها .

وفى ذلك الوقت كنا نأمل أن تتمكن من الوصول إلى أفراد الشعب السوفيتى بعدة طرق : عن طريق نشر الكتب الأمريكية وعرض الأفلام الأمريكية ، وتبادل الطلاب وأصحاب الحرف المختلفة ، وعن طريق إذاعات الموجة القصيرة وزيادة توزيع مجلة السفارة « أميريكا » . على أنه على الرغم من الجهود المضنية التى بذلناها ، فاننا لم نستطع أن نحرز أى نجاح فيما يتعلق بتبادل الطلاب ، وحرية نشر الكتب والأفلام الأمريكية . وقد صممنا على المضى فى بذل جهودنا فى هذه النواحى ولكن دون أن تتضح امكانيات المستقبل .

ولقد كانت الحاجة إلى الاذاعة باللغة الروسية عن طريق راديو « صوت أمريكا » أمرا معترفا به من جانب السفارة الأمريكية فى موسكو ، ووزارة الخارجية الأمريكية أيضا ، حتى قبل أن تبدأ هذه الاذاعات بالفعل . ولقد كانت الحاجة شديدة إلى بذل كثير من الجهود التمهيدية بسبب أمثال هـذه المشاكل وهى إيجاد محطة مرضية لهذه الاذاعات ؛ وتزويدها بالموظفين الأكفاء الذين يحسنون الحديث والكتابة باللغة الروسية المصطلح عليها ، والذين يمكن أن يجتازوا الامتحان العسير الذى يهدف إلى ضمان سلامة البلاد ضد الشيوعية ؛ ووضع برنامج يمكن أن ينقل إلى الروس المعلومات الضرورية عن الولايات المتحدة وسياستها بطريقة مسلية تجتذب المستمعين . وفى خلال فترة الإعداد والتمهيد هذه كانت السفارة تعمل جنبا إلى جنب و بقدر الامكان مع وزارة الخارجية فى واشنطون ، وكنا نسعى جميعا إلى الحصول على أقصى ما يمكن الحصول عليه من المعلومات المفصلة والإرشادات من خبراء الشئون الروسية فى أمريكا و بريطانيا ومن التجارب التى سبقت بهـا هيئة الاذاعة البريطانية فى إذاعاتها باللغة الروسية و فى الاذاعات التى تقوم بها هناك الاذاعة المحلية السوفيتية .

و بدأت إذاعة « صوت أمريكا » باللغة الروسية فى ١٧ فبراير سنة ١٩٤٧ ، وقبل ذلك ببضعة أيام أخطرت وزارة الخارجية السوفيتية رسميا بهذا النبأ و بعثت خطابين إلى صحيفتى برافدا وأزفستيا أطلب اليهما فيهما نشر تاريخ وموعد وطول موجة البرنامج ، وقد تجاهلت الصحيفتان هاتين الرسالتين .

ولم نكن نتوقع أن تكون البرامج الأولى عملا كاملا ، بل كنا جميعا نتوقع أن تحدث ثغرات خطيرة ، ولكننا كنا نؤمن بأنه ما دامت الإذاعة الفعلية قد بدأت فاننا نستطيع بسرعة أن نتغلب على نواحى النقص التى نواجهها .

واتخذنا ، فى السفارة ،التدابير اللازمة لتسجيل الإذاعات وللحصول على أقصى ما يمكن الحصول عليه من رد الفعل الذى تحدثه هذه الاذاعات بين المستمعين السوفييت . وقد أرسلت تقريرات مفصلة تتضمن وجوه النقد لمختلف نواحى البرنامج إلى وزارة الخارجية الأمريكية .

ومنذ البداية ، شعرنا بالارتياح من ناحية اللغة والأحداث وطرق معالجة الأنباء . ولكن الاستقبال كان ضعيفا ، والمواد لم تكن مشوقة إلى الحد المطلوب ، وكانت معظم قطع الموسيقى التى اختيرت غير صالحة لاذاعات الموجة القصيرة ، كما أن تقدير مختلف أجزاء البرنامج والأنباء ، والبرامج الفنية والبرامج الخفيفة والموسيقى الراقصة ، والموسيقى الجادة ، لم يكن مناسبا . وقد بعثنا بوجوه النقد الانشائى هذه إلى وزارة الخارجية الأمريكية مصحوبة بالتغييرات المقترحة .

وكما توقعنا منذ البداية ، لم تكد الاذاعات تبدأ والفرصة تتاح لدراسة المشروع من الناحية العملية حتى بدأ التحسن سريعا مطردا . وسرعان ما اتضحت أهمية هذه الاذاعات باعتبارها وسيلة من وسائل إذاعة حقائق التطورات الأمريكية ذات الأهمية السياسية المباشرة داخل نطاق الاتحاد السوفيتى .

وعلى سبيل المثال ، سيرت لنا هذه الاذاعة أن تنقل إلى الشعب الروسى خطاب ترومان الذى أعلن فيه أننا ننوى تقديم المساعدات إلى حكومتى اليونان وتركيا . وقد تلقينا تقريرا جاء فيه أن المهندسين السوفيت الذين يعملون فى خزان نهر « الدانيبر » قد « ذهلوا » عند سماع خطاب الرئيس ، وأنهم طلبوا من أحد الأمريكيين أن يتصل بالسفارة ليسأل عما إذا كان الرئيس ترومان قد أدلى بمثل هذا

الخطاب حقا ، أم أنهم كانوا يستمعون إلى محطة سرية . وقد قال هؤلاء المهندسون إنهم لم يسمعوا أشياء كهذه منذ ٣٠ سنة .

وقد سئل أحد الروس من المتصلين براديو موسكو بعد أن اعترف بأنه استمع إلى خطاب الرئيس ، عما إذا كان قد سمع الحديث بوضوح ؟ فقال فى لهجة بطيئة حاسمة : « لقد كان هذا الحديث واضحا إلى حد كبير . » وقد أوضح المتحدث أنه يعنى مضمون الخطاب كما يعنى عملية الاستقبال .

ولأسباب واضحة لم تتمكن السفارة قط من القيام باختبار دقيق عن عدد المستمعين إلى برامجنا من أبناء الشعب الروسى ومدى انتشاره بينهم .

وفى مايو سنة ١٩٤٧ ، استطعت أن أبلغ بعض أعضاء لجنة الشئون الخارجية بميل النواب الأمريكى وأنا مطمئن إلى دقة ما أقول ، انه يوجد على وجه التقريب نصف مليون جهاز فى الاتحاد السوفيتى فى استطاعتها أن تتلقى إذاعاتنا ، وأن هـذا الرقم قد يرتفع إلى مليون أو مليون ونصف مليون . وقد اقتنعنا جميعا فيما بعد بأن التقدير كان يقل عن الواقع ، فقد نشرت صحيفتا « برافدا » و « ازفستيا » فيما بعد مقالات أكدت فيها أن مصانع ضخمة قد أنشئت لصناعة جميع المهمات اللازمة لصناعة الراديو ، وأن وجود جهاز الراديو قد أصبح شيئا طبيعيا فى مسكن كل عائلة . وأضافت المقالتان إلى ذلك أنه لن يأتى عام ١٩٥٠ حتى تزداد شبكة الاستقبال عن طريق الراديو بنسبة ٧٥ فى المئة عما كانت عليه قبل الحرب .

وقد استطاع موظفو السفارة عن طريق الجمع بين الكلمات التى تتناثر هنا وهناك خلال الأحاديث أن يبرهنوا على أن برامج « صوت أمريكا » لم تكن تسمع فى

موسكو وحدها ، بل وفى عدة أقاليم أخرى . وقد صرح أحد رجال الإدراة المسئولين فى مدينة صناعية بالقرب من موسكو بأنه، وكثيرا من معارفه، كانوا يستمعون إلى هذه الإذاعات بانتظام ؛ ووجد مسافر فى روسيا البيضاء « بيلو روسيا » أن نصف الاشخاص الذين تحدث إليهم فى القطار يعرفون أنباء هذه الإذاعات ؛ ودارت مناقشة بين مزارع من القوقاز وأحد ضباط الجيش الأمريكى حول ماتضمنته برنامج الاذاعة الأمريكية عندما التقى به مصادفة فى الطريق ؛ وأرسل ضابط بحرى يمثل البحرية الامريكية فى أوربا يقول فى تقدير له : « من الواضح أن إذاعتنا أصبحت الآن مسموعة ، وأن معظم الروس الذين يملكون أجهزة ذات سبع مصابيح أو أكثر يستمعون إليها » . وقال بعض الزائرين العائدين من لينجراد « أن البرنامج الأمريكى يسمع هنـاك ، كما يسمع فى موسكو تماما . »

وقد كان أول دليل تلقيناه على مدى أهمية إذا عاتنا فى ١٠ ابريل سنة ١٩٤٧ ، عندما انتقد « ايليا أهرنبرج » ـ وهو من كبار الكتاب الروس الذين اشتهروا بقسوة حملاتهم على أمريكا ـ « صوت أمريكا » فى لهجة شديدة ، فى مقال له نشر فى مجلة « الثقافة والحياة » وقد كتبت فى هذا الصدد إلى وزارة الخارجية أقول :

« إن معقبا شهيرا كاهرنبرج، عندما يضطلع بمهمة مهاجمة إذاعتنا، فإن ذلك يكون أحسن رد فعل مشجع رأيناه ، وهو يدل على أن البرنامج يسير فى الطريق الصحيح ، تقبلوا تهنئتنا القلبية . »

وبعد عشرة أيام جدد أهرنبرج هجومه . ففى مقال مسهب نشر فى مجلة « الثقافة والحياة » عاد أهرنبرج إلى التنديد بهذا البرنامج : وكانت النقطة الرئيسية التى ارتكز إليهـا فى هجومه هى أنه لا يتحدث عن الشعب الأمريكى بل عن دعاة الرجعية

الأمريكيين . وفى ٣٠ ابريل نشرت « كروكوديل » الهزلية السوفيتية رسما كاريكاتوريا يتضمن هجوما على الاذاعة الروسية التى تذاع من راديو صوت أمريكا

ولقد كنا خلال فترة ما نرحب بهذه الحملات فقد كانت تتيح لنا فرصة للاعلان مجانا ، ومن ثم لزيادة جهودنا .

ولعل مسألة « كازينكينا » هى التى حملت الكرملين على تقرير القضاء على هذا المصدر من مصادر الانباء الصادقة . فقد زودتنا هذه الحادثة بدليل مدهش على مدى أهمية إذاعتنا . فإن نشرنا الصادق لقصة فرار مدام « كازينكينا » من القنصلية السوفيتية العامة بنيويورك سرعان ما أصبحت من الأنباء المتداولة على كل لسان فى موسكو فى الوقت الذى راحت الدعاية الروسية وراديو موسكو تذيع فيه قصة مختلفة عن خطفها بوساطة الحراس الروسيين البيض ورجال العصابات وتغاضى حكومة الولايات المتحدة عن ذلك عن عمد . ولكن معظم الروس قد قبلوا روايتنا للحادث لسبب بالغ البساطة هو أنهم يعرفون الوسائل التى تتبعها حكومتهم ورجال البوليس السرى الروسى . ولقد ضج أهالى موسكو بالضحك سرا على الحادث الذى اتخذت الحكومة السوفيتية موقفا جادا إزاءه .

ومن المؤكد أن ذلك الحادث قد رفع من قدر إذاعات محطة « صوت أمريكا » وزاد من المستمعين إليها . وبدأ الزائرون الوافدون من خارج موسكو والذين لم يكونوا على بينة من مدى خطورة زيارة السفارة الأمريكية ، بل و بعض السكان الذين كانوا على استعداد للمجازفة ، يزورون مكتب الاستعلامات الخاص بنا والذى كان يوجد فى مكان آخر أقل ظهورا من دار السفارة و يقدمون إلينا تعليقاتهم .

وقد تقدم أحد هؤلاء من تلقاء نفسه ليدلى برأيه وهو يتلخص فى أن الغالبية

العظمى من المستحقين إلى برامج « صوت أمريكا » هم من « الشباب » . ثم بدا أكثر تحديدا فيما يريد أن يقوله ، فقال : «إن الشباب من الطبقة العاملة المثقفة الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين ، لم يتح لهم التعليم العالى ، ولكنهم يبدون اهتماما حيويا بنواح متعددة » . وضرب مثلا بنفسه و بأصدقائه وهم يتكونون من أحد عمال الطباعة وحلاق وخراط وصانع أحذية ، فقال لى إن هناك عددا كبيرا من أمثال هؤلاء العمال المثقفين . واهتمامهم بأمريكا ليس نتيجة الاتصالات التى تمت أثناء الحرب ، بل هو يرجع إلى عهد بعيد ، وهو ناتج من أن أمريكا « تمثل التقدم ـ وأنها ذات سلطة » . واستطرد يقول إن ذلك الاهتمام قوى ، و إنه باق على الرغم من المحاولات الجارية التى تقوم بها الصحافة الروسية لتشويه سمعة أمريكا والافتراء عليها . وعندما سئل عن تقديره للنسبة المئوية لمن يصدقون « صوت أمريكا » وعمن يصدقون الصحف السوفيتية ، كان رده على ذلك مباشرا . فقد قال إن أكثر من خمسين فى المائة يصدقون الصحف الروسية وأقل من ٥٠ فى المائة يصدقون « صوت أمريكا » . ثم عقب على ذلك بقوله فى حدة إن طريقة التكرار المستمر التى تستخدمها الصحف السوفيتية ذات أثر هام هائل .

وعندما سئل عن رأيه فى أشياء معينة من برامجنا ، أشار بصفة خاصة إلى رسالة الرئيس ترومان فى مناسبة الاحتفال بأحد أعياد اليهود ، و إلى أحد البرامج التى تهدف إلى تخليد ذكرى العالم الزنجى «جورج واشنطون كارفر » ونبأ مؤداه أن اجتماعات الحزب الشيوعى فى الولايات المتحدة مصرح بها . وقال إن المسألتين الأوليين دفعتاه إلى التساؤل : « كيف يمكن أن يكون فى أمريكا تمييز عنصرى

إلى الحد الذى تصوره الدعاية السوفيتية ؟ . . » ومضى فوصف المسائل الثلاث بأنها « أدلة محسوسة على العمل الديمقراطى ـ وهى أمورسنذكرها ، وقد أدت رسالتها . »

وأبلغنا كثير من المواطنين السوفيت أن الاهتمام شديد « بصوت أمريكا » فى موسكو ، وأن المسائل التى يناقشها كل يوم لاتلبث أن تنتشر من فم إلى فم بين الجزء الأكبر من سكان المدينة . ولقد صدقت ذلك بسبب السرعة التى انتشرت بها قصة كازينكينا من قبل .

وقال زائر آخر إن عائلته كانت تفتح الراديو لسماع « صوت أمريكا » كلما انتقلت من مدينة إلى مدينة وأن ضابطا كبيرا بالجيش السوفيتى ، كان يسكن فى نفس البيت ناشدهم مرة أن يمتنعوا عن الاستماع إلى هـذه المحطة وقال لهم : «لو أن أحدا عرف أننى استمع إلى « صوت أمريكا » لكان فى ذلك القضاء على مستقبلى . »

وازدادت الدلائل تدريجيا على أن هذه الإذاعات تؤثر تأثيرا كبيرا فى تفكير الروس . ومن الواضح أن هذه الحقيقة كانت تشغل ذهن الحكومة السوفيتية أيضا ، فهذه الومضات من الحقيقة لا يمكن أن يسمح لها بالوصول إلى افراد شعب كان يلقن باستمرار أنه مكروه فى العالم الخارجى ، الذى يعمل جهده للقضاء عليه .

وكانت أبرز مميزات اذاعاتنا الحقائق فى مقابل الأكاذيب . ولقد ظل ذلك مصدرا دائما لإمعان الفكر فى موسكو بين الروس و بين الأمريكين على السواء . فكم من الوقت سيمضى قبل أن تتخذ الحكومة السوفيتية عملا ايجابياحقيقيا للتدخل فى هذه الاذاعات ؟ . ولقد أدهشنى أن الكرملين انتظر حتى ربيع عام ١٩٤٩ قبل

أن يبدأ برنامج « التشويش » الضخم الذى أدى ، فى الوقت الحاضر على الأقل ، إلى اسكات « صوت أمريكا » فى الاتحاد السوفيتى تماما ، وخفض قوته بما يقرب من ٥٠ فى المئة فى كثير من الدول التى تدور فى فلكها . ولقد كان هناك بالطبع سبب هو الذى دفع الاتحاد السوفيتى إلى التسامح فى سماع الحق لفترة طويلة كهذه ، فإن الاتحاد السوفيتى ، بغض النظر عن كل الحقائق المعروفة ، قد ذكر من قبل بصوت عال وفى كثير من المناسبات أنه لا يكتم الحق ولا يخمده ، ولذلك سكت « الكرملين » أطول فترة ممكنة قبل أن يقدم للعالم هذا الدليل الجديد على مدى السلطة المجردة التى يمارس بوساطتها السيطرة على جميع وسائل الاستعلامات .

وفى نفس الوقت الذى كان المكتب السياسى يواصل فيه حملة الدعاية وكبت الحريات ، كان يعمل جاهدا بقدر ما يمكنه على الانتقام من شخصيات الأجانب واثارة الشك حول نواياهم فى نفوس الشعب الروسى . وكان يوجه اهتماما خاصا إلى ممثلى بريطانيا وأمريكا حكومة وشعبا . وقد عملت وزارة الخارجية الروسية بالاشتراك مع منظمات البوليس السرى فى هذه المرحلة من مراحل الحرب الباردة ، وكانت خطة عملهما تتلخص إما فى الكشف عن قضايا التجسس ، أو العمل على إقناع الأمريكيين بالتخلى عن مناصبهم ومهاجمة السياسة التى تتبعها حكومتهم والطابع الذى اختارته لتمثيلها فى الخارج .

وكانت العملية الأولى سهلة نسبيا ، فقد كانت لا تتطلب أكثر من العمل على النمط الروسى المتوارث من قديم .

ففى عام ١٨٣٩ كتب دى جوستين يقول : « وهنا فى روسيا ، تتعرض حتى علاقات

الصداقة لفحص رجال البوليس ، وكيف يمكن أن يشعر إنسان بأنه يعيش فى أمان وسط أناس تشوب علاقاتهم الريبة والحذر فيما يتعلق ببعضهم البعض ويبدون شديدى التطفل والتساؤل فى كل ما يتعلق بالآخرين ؟ . إن نظرات الشك التى يلقاك بها الناس من كل الطبقات هنا إنما هى بمثابة تحذير يجعلك دائما على حذر . إن هذه الحكومة البيزنطية . بل وكل روسيا فى الواقع أيضا كانت تنظر دائما إلى ممثلى السلك السياسى وإلى الغربيين بصفة عامة باعتبارهم جواسيس خبثاء الطوية والقصد » .

وروسيا اليوم لا تكاد تختلف عما وصفها به دى جوستين فى عام ١٨٣٩ . وعلى الرغم من أن موظفى السفارة الأمريكية يعملون تبعا للأوامر الكتابية الدقيقة الصادرة اليهم والتى تقضى بألا يتبعوا إلا الوسائل المشروعة المعترف بها فى استقاء معلوماتهم ، وبالاختصار أن يعملوا بحيث يكونون فوق مستوى الشبهات ، فإننا كنا جميعا موضع الشبهة . ولقد صرح الماجور جنرال ايليا . م . سراييف الروسى ، وهو أحد معارف القدماء منذ كان يعمل فى الولايات المتحدة مع أعضاء البعثة العسكرية السوفيتية ، فى حديث رسمى ، صرح لى بأن جميع الموظفين الأجانب « يعتبرون جواسيس ممثلين » . وهذا القول فى حد ذاته يكشف عن أمرين . فهو يدل على حقيقة المسلك الذى يسلكه الموظف الروسى نفسه عندما يكون فى الخارج كما يؤكد أن كل المسائل التى تحظى بالاهتمام قلت أو كثرت تعتبر فى نظر الحكومة الروسية من أسرار الدولة .

وقد اتهمنا بالتجسس مرتين خلال إقامتى فى موسكو ، واتهم البريطانيون مرة .

وكانت القضية الأولى من قضايا التجسس التى اتهمنا بها تتعلق بضابط بحرى شاب ، كان يعمل من قبل فى أوديسا ، وكان قد ذهب إلى مكتب الجمارك بموسكو للمساعدة فى تخليص شحنة من الأثاث والسجاجيد المرسلة إلى السفارة . وقد قابل على ظهر السفينة أحد معارفه القدماء فى أوديسا ، وكان هو الشخص الذى يشرف على الشحنة التى أرسلت عن طريق أوديسا . وقد أبدى بعض التعليقات على شحنات بعض المواد الثقيلة من ميناء أوديسا، ولما كانت هـذه المعلومات من مسئول وتنطوى على طرافة فقد سجلها ضابطنا الشاب فى مذكرة يحملها بالقلم الرصاص . وعندئذ دخل رجال البوليس السرى وصادروا المذكرة واتهموه بالتجسس .

ومن الواضح أن المسألة كانت مدبرة من قبل. وقد شعرت بصفة مؤكدة أن المقصود بها الدعاية ، وعلى ذلك فاننى عندما استدعانى فيشنسكى بعد يومين لزيارته فى وزارة الخارجية حملت معى نسخة من البرقية التى بعثت بها إلى واشنطون لأبلغهم بالحادث . وقد أشرت فى تقريرى صراحة إلى اعتقادى أن الحادث مصطنع ، وأن الحكومة الروسية قد وضعت يدها على ما تزعم أنه قضية « تجسس » تستطيع أن تستغل الحادث للحد من الأثر السيء الذى أحدثته فى العالم بأسره المحاكمات على أعمال الجاسوسية التى تتناول نشاط عملاء روسيا السوفيتية فى كندا والولايات المتحدة .

وعندما بدأ فيشنسكى يتحدث فى الموضوع ، كما كنت أتوقع ، قدمت إليه نص البرقية . ولم يكن فى استطاعته إلا أن ينكر رسميا أن للدعاية أى شأن فى الموضوع . وكانت نتيجة هذا الحديث أن القصة لم تظهر بالفعل فى الصحف الروسية

إلا بعد مضى عدة شهور ، و بعد أن أفاضت صحفناوالصحف الأجنبية فى ذكر تفاصيل حادث فرار مدام كازينكينا . وفى ذلك الوقت كانت القصة قد أصبحت حلقة بالية ولم تخطر إلى بقليل من الاهتمام .

وكان « روبرت ماجيدوف » ، أحد مراسلنا هو الضحية التالية . ولم يكن فى موسكو كلها ثمة أمريكى آخر يماثل مستر « ماجيدون » فى اتباعه للتعليمات والقوانين الروسية بنصها وروحها و بدقة تامة ، وأحسب أننى لن أعرف قط لماذا وقع الاختيار عليه بالذات ليكون «جاسوسا» ، إلا إذا كان ذلك راجعا إلى أنه هو وزوجتهالروسية المولد كان لهما أصدقاء كثيرون من السوفيت ، ولا يزال بعض هؤلاء يتمسكون بصداقة ماجيدوف إلى الآن . وكانت شركة ماكرو ـ هيل للنشر بنيويورك قد بعثت عن طريق البريد الروسى العادى تطلب بعض المعلومات عن الصناعة الروسية ، وهو أمر يعد فى أى مكان آخر عدا روسيا ، يتعلق بالروتين الصحفى العادى ، وحدث أن اطلعت إحدى موظفات مكتب «ماجيدوف» وتدعى « مس نلسون » على الخطاب فبعثت إلى صحيفة ازفستيا برسالة توجه إليه فيها تهمة التجسس . وقد أثيرت حول الموضوع ضجة كبيرة فى الصحف السوفيتية كما استغلتها وسائل الدعاية التى راحت تشيع قصة زعمت فيها أن « ماجيدوف » قد تلقى تعليمات وأنه بعث نتائج تجسسه عن طريق الحقيقة الديبلوماسية للسفارة الأمريكية . وأكدت الدعاية الروسية أيضا أنه كان يبعث بانتظام بما يحصل عليه من معلومات إلى ممثلى الجيش والأسطول الأمريكيين فى موسكو . ووضع مستر « ماجيدوف » وزوجته تحت رقابة البوليس وسحبت أوراق اعتماده . وفى ذلك الوقت أصدرت من ناحيتى البيان التالى،

ولعلنى لست فى حاجة إلى القول بأنه لم ير ضوء النهار قط فى أية وسيلة من وسائل النشر السوفيتية :

« خلال أكثر من سنتين قضيتهما فى موسكو لم يحدث أن مراسلا بعث بأية قصص إخبارية عن طريق الحقيبة الديبلوماسية ، كما أن ذلك لم يكن بالأمر الذى يسمح به ، ولم يحدث أن مستر ماجيدوف أو أى مراسل صحفى آخر تلقى أية معلومات أو وثائق عن طريق السفارة الأمريكية فى موسكو . وقد تحدثت إلى مستر ماجيدوف صباح اليوم وتأكدت من أن الوثائق والتعليمات التى أشير إليها فى خطاب مس نلسون وصلت عن طريق البريد العادى الروسى وأن الأنباء المطلوبة كما هو واضح بجلاء من النوع الذى يعد فى الولايات المتحدة ومعظم البلاد الأخرى مجرد أنباء إخبارية تعنى الصحف بنشرها على الملأ باعتبارها من المسائل التى يحق للرأى العام أن يطلع على أنبائها .

« ومستر ماجيدوف ، مثله كمثل جميع المراسلين الأمريكيين فى موسكو ، على معرفة وثيقة برجال السفارة الأمريكية ومن بينهم الملحقين البحريين والعسكريين . ولما كان عدد الأمريكيين محدود هنا ، فضلا عن أن اتصالاتنا مع المواطنين الروس قد أصبحت فى الشهور الأخيرة على غير رغبة منا قاصرة على الاتصالات الرسمية ، فإننا أصبحنا نعتمد على بعضنا البعض فى إيجاد علاقات الزمالة ومواصلة الحياة الاجتماعية العادية ، كما أن علاقات مستر ماجيدوف برجال الجيش والبحرية الملحقين بالسفارة الأمريكية كانت دائما علاقة ذات صبغة اجتماعية .

«وقد كنت أتمسك دائما وأحرص كل الحرص على أن يلتزم الملحقون العسكريون والبحريون من أفراد هذه البعثة حدود مصادر المعلومات المشروعة ، وقد ابلغنى مستر

ماجيدوف أن المزاعم التى ذكرتها المواطنة السوفيتية مس نلسون والتى نشرتها صحيفة ازفستيا كاذبة من أساسها . وفى استطاعتى أن أؤكد أنها كاذبة (فيما يتعلق برجال السفارة الأمريكية) .

« وقد أبلغنى مستر ماجيدوف أيضا أنه بسبيل الرد على تلك المزاعم ، واننى لأرجو مخلصا أن يحظى رده بنفس وسائل النشر التى أتيحت لمس نلسون التى اتهمته .

« وسأبعث بكل هذه الحقائق والظروف التى تحيط بالقضية . بالاضافة إلى البيانات المقدمة منى على نحو ما ذكر آنفا ، إلى وزارة الخارجية فى واشنطون ، واعتقد أنها ستزود بها الصحف الأمريكية توطئة لنشرها . »

* * *

وقد تلقت السفارة البريطانية أيضا تصيبها من المتاعب . فإن الملحق العسكرى البريطانى الجنرال هيلتون كان يستعمل « مونوكلا » ، وفيما كان يمارس رياضته المفضلة فى صباح أحد الأيام ويبحث عن منحدر من الأرض فى حدود المنطقة المحيطة بدار السفارة ليمارس الانزلاق عليها ، حدث أن عمل على تثبيت المونوكل على عينه ، وأثارت هذه « الآلة » غير المألوفة انتباه عامل شيوعى متحمس فى مصنع قريب وخطر له أن العين الواحدة قد تكون نوعا جديدا من آلات التصوير يعمل الشخص الأجنبى الماثل أمامه على استخدامها فى تصوير الصناعات الاستراتيجية السوفيتية ، وسرعان ما استدعى البوليس ، وزاد الموقف تعقيدا أن الجنرال كان يرتدى معطفا

عسكريا بريطانيا باليا ، و بذلك أو كما قال مولوتوف فى المذكرات التى تبودلت فى هـذا الشأن فيما بعد « لم يكن مظهره الخارجى يدل على مظهر شخص مثقف ، إذ كان يرتدى ملابس عامل عادى . »

و بذلك أعلن وزير الخارجية السوفيتية أنه يعتقد أنه يستحيل أن يجمع الفرد بين ميزات الشخص المثقف ، والعامل العادى فى ذاته ، و بالمثل أن الملابس هى التى تصنع الرجال . وأنه لمن المتعذر على أى عدو للاتحـاد السوفيتى أن يجمع فى عبارة واحدة مثل هـذا التجاهل التام للمبدأ الذى يقوم عليه حكم الطبقات العاملة والذى تزعم حكومة الاتحاد السوفيتى أنهـا تستند إليه . وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت وسائل الدعاية السوفيتية تستغل « حادث هيلتون » أسابيع متعاقبة . كما أسرع « المهرج » الأثير فى سيرك موسكو إلى عرض فصل يقوم فيه بنفسه بتمثيل شخصية الجنرال « هيلتون » . . ويبدو وهو محمل بآلات التصوير ونظارات الميدان و يبحث بها عن موقع يصلح للانزلاق . وقد أحالت الرقابة التى فرضها رجال البوليس على الجنرال هيلتون المسكين والمضايقات التى تعرضت لها حياته إلى جحيم لا يطاق . وقد سررنا جميعا من أجله عندما انتهت مدة خدمته فى موسكو ، ولـكن الدعاية السوفيتية المناهضة للاجانب استطاعت أن تجنى ثمار هذا الحادث .

ومن المصادر الغنية بالنسبة للدعاية السوفيتية أولئك الأجانب الذين يستطاع حملهم أو قسرهم من حين إلى حين على التخلى عن « معسكر الرأسمالية » . . وقد وقعت لنا حادثتان من هـذا النوع أثناء اقامتى فى موسكو ، وقد نجحت الحادثتان معا بسبب الانغماس فى مسائل عاطفية . وكانت الحادثة التى استغلت استغلالا ضخما

فى روسيا وأثارت ضجة كبرى فى الولايات المتحدة هى حادثة مس « انابيلا بوكار » .

وكانت « مس بوكار » وهى امرأة شابة محبوبة جـذابة ملحقة بقسم الاستعلامات الثقافية الملحقة بالسفارة ، قد تعلقت بحب مواطن سوفيتى يدعى لابشين ، وهو مغن للاوبريت كنا نعرف أنه اشتهر بمغازلة كل امرأة أجنبية غير متزوجة بموسكو . ولمـا كان قد صدر قانون بعد الحرب يحرم تحريما قاطعا زواج المواطنين السوفييت من الأجانب ، وأعتقد أنه لمـا كانت مس « بوكار » شديدة الرغبة فى الزواج من لابشين فقد كانت تأمل عن طريق قطع صلتها بالسفارة الأمريكية وإعلان معارضتها سياسة الولايات المتحدة أن تحصل على استثناء من القانون .

وقد استخدمت لفترة من الوقت ، بعد أن نشرت خطاب استقالتها ، من جانب الحـكومة السوفيتية لتبين لعمال المصانع محاسن النظام السوفيتى بالنسبة إلى ما أسمته الاستعباد الاقتصادى السائد فى الولايات المتحدة ، وقد نشر فيما بعد كتاب باسمها عنوانه « حقائق عن الديبلوماسيين الأمريكيين » وقد قدمنا هـذا الـكتاب جميعا فى صورة غير مغرية . ولم تـكن « مس بوكار » هى التى كتبت ذلك الـكتاب ، فهو على الرغم من اعتماده الظاهرى على ملاحظاتها عن رجال السلك الديبلوماسى الأمريكى إلا أن الجزء الأكبر منه كان مخصصا لممثلين عملوا فى موسكو وغادروها قبل أن تصل هى اليها ، وبغض النظر عما تضمنه الـكتاب من أساليب الـكذب الملفقة ، وانصاف الحقائق ، فقد كانت لهذا الـكتاب أهمية أخرى . فإن دراسة

الثغرات التى تضمنها السرد التاريخى للحقائق مشجع على نحو الشائعات المحلية التى تقول إن سجل المحفوظات الخاص بالبوليس السرى قد ضاعت بالفعل أو دمرت خلال فترة الزحف الألمانى على موسكو . وقد كنا جميعا نشعر بالأسف لمس بوكار ، لأننا كنا نستطيع أن ندرك ألوان الضغط التى تعرضت وستتعرض لها ، ولكن هذا كله لم يكن يقدم عذرا لها على أفعالها .

وقضية أخرى تتضمن فضيحة جديدة ، ولكنها لم تكن مدعاة لدعاية واسعة النطاق كسابقتها ؛ وهى خاصة بهرب أحد كتاب الشفرة بالجيش ، وهو « السرجنت جيمس . م . ماكميلينى » . وهذا الشاب ابن ضابط من ضباط الجيش الأمريكى كنت على معرفة وثيقة به .وقد تورط مع امرأة سوفيتية من أولئك النساء اللائى اشتهرن بنصب حبائلهن للأجانب فى موسكو ،وتحت تأثيرها هجر عمله فى الجيش ومنصبه فى موسكو ، ولما كان لا يماثل مس « بوكار » ذكاء ، فقد كانت فائدته أقل نسبيا من ناحية استغلال موقفه للدعاية ،ومن المحتمل أن رجال البوليس السرى الروسى كانوا يرجون الحصول منه على بعض أسرار الشفرة ، ولكن الواقع أن الوسائل التى نتبعها فى المحافظة على أسرارنا دقيقة إلى حد لايتيح لأى شخص يهجر الجيش على هذا النحو أن يزود الآخرين بأية معلومات إلا ما قد تعيه ذاكرته من الرسائل المحفوظة ، وحتى هذه كانت من القلة ، فإننا لم نكن نتبادل مع وزارة الخارجية الأمريكية إلا قليلا من الرسائل ، بحيث لو طلبت وزارة الخارجية السوفيتية الاطلاع عليها لقدمتها إليها عن طيب خاطر . والحقيقة الواقعة هى أن الموظف غير الموثوق به فى هذه الناحية بالذات لايمكن أن يكون خطرا إلا وهو يزاول عمله ـ لا بعد أن يتخلى عنه .

ومعظم السفارات الغربية فى موسكو قد تعرضت لحوادث مماثلة خلال السنوات الثلاث الماضية ، ولم يثبت قط أن التدقيق فى الاختيار كان ضمانا كافيا للاستقرار عندما تتدخل العواطف فى الأمر .

***

ولاشك أن فتور العلاقات سيظل قائما لأسباب متعددة ، منها الايمان بالمعتقدات الحقيقية أن العملة الزائفة التى يحور السوفيت إليها معانى « الحرية » و « المساواة » و « الديمقراطية » ستظل رائجة فى السوق وسيقبلها بقيمتها الظاهرية كثير من الناس . ومن حسن حظنا أن الدعاية السوفيتية تعانى بعض نواحى النقص الرئيسية. فإن أداة الدعاية أداة ضخمة ، أشبه بحكومة استبدادية على الرغم من أنها قد تكون سريعة وفعالة فى الهجوم فى أى اتجاه يتاح لها ، إلا أنها تفتقر إلى المرونة اللازمة عندما تفقد عنصر المباوأة .

والدعاية السوفيتية بوجه عام تستهدف أغراضا دنيا فى النطاق الثقافى ؛ ولكنها حتى فى الدول التى استطاعت الأقليات الشيوعية أن تستولى على الحكم وأن تحتكر جميع مرافق النشر فيها ، قد فشلت فى الحصول على التأييد الحقيقى الذى ، يجعل الشيوعية حركة شعبية حقيقية . و « الشعب » كمجموع يتكون من أفراد يتعطشون لحرية الاختيار التى تحرمها الشيوعية . ورجال الدعاية الشيوعيون يجدون مصاعب تتزايد يوما بعد يوم فى سبيل ترويج بضاعتهم بين شعوب الغرب . فقد امتهنوا سمعتهم وأصبحوا لا يستطيعون بعد الآن أن يعتمدوا على قبول تصريحاتهم بقيمتها الظاهرية .

وبازدياد وسائل الخداع التى تتعرض لها دول الغرب من الناحية السياسية ، أصبحت هـذه الدول أكثر ضررا وأقل تأثيرا بمناورة « الأكذوبة الكبرى » وهى تزداد تنبها يوما بعد يوم بالفارق بين الكلمات السوفيتية والأعمال السوفيتية .

وما كان لنا أن نتوقع أن يتغير اتجاه الدعاية السوفيتية العدائى حتى تتغير أهداف الحكومة السوفيتية نفسها ، أو حتى يأتى ذلك اليوم الذى يبدو الآن بعيدا والذى يتعلم الشعب السوفيتى فيه حقيقة المجتمع العالمى ، ويعمل على هدى هـذه المعرفة . أما فى الوقت الحاضر فإننا يجب أن نقبل عداوة الكرملين البعيدة المدى باعتبارها مقدمة ، وأن نتحاشى الوقوع فى خطأ الأخذ بالمناورات السوفيتية الأخيرة باعتبارها دليلا على تغيير حقيقى ينبع من القلب .

الفصل التاسع

الكومينفورم وتيتو

« ليس فى حزبنا من اليساريين سوانا ، نحن الذين ندين بمبادىء لينين . . ولذلك ليس فى حزبنا معشر اتباع لينين حزب لليسار وحزب لليمين . اننا نحن حزب ماركس ـ ولينين . وفى حزبنا ، نحن لانحارب فقط أولئك الذين نرميهم جهرة بأنهم انتهازيون ومارقون بل وأولئك الذين يريدون أن يكونوا يساريين اكثر مما تقضى به تعاليم ماركس، واكثر يسارية مما تقضى به تعاليم لينين ، وهم يخفون فى نفس الوقت طبائعهم الانتهازيه اليمينية خلف ستار من الالفاظ الرنانة والعبارات اليسارية . »

ستالين : اللينينية (١٩٢٣) . ص ٩٦

إن المعركة التى يقوم بها الكومينفورم لاقصاء المارشال تيتو اليوجوسلافى ـ كما تبدو فى نظر السفارة الامريكية فى موسكو ـ قد خلقت آثارا ظاهرة متزايدة فى الميادين السياسية والاقتصادية فى جميع أنحاء أوربا الشرقية ، بل وفى عقول المتسائلين والمتأثرين بالنفوذ الشيوعى فى جميع أنحاء العالم .

فقد أحدثت هذه المعركة ثغرة فى الستار الحديدى ، ونقضت مبدأ قدرة الكرملين على كل شىء . ولما كان الحائط الذى يقيمه السوفيتيون حول ذلك الجزء من العالم الذى يسيطرون عليه ، يكاد يكون فى الواقع بمثابة حاجز يكبح جماح ذلك التيار

الجارف من العواطف المكبوتة التى تصطخب فى أعماق دول شرق أوربا ، التى قد لاتعرف إلا القليل عن الديمقراطية فى أراضيها ولكنها ـ كما يشهد تاريخها ـ قد قاومت كل لون من ألوان الحكم الأجنبى . فإن هذه الثغرة ، كأية ثغرة أخرى تجد فيها الأمواج الصاخبة الغاضبة مخرجا تتدفق منه مهددة بالاتساع يوما بعد يوم . وإذا لم يعجل باصلاحها فإنها لن تلبث أن تدمر جهاز السيطرة كله وتغرق المنطقة المحيطة بها.

ولقد قالها الرجال الجاثمون فى الكرملين فى غلظة و بلا مواربة : إن ولاء الشيوعيين فى أى مكان يجب أن يكون للاتحادالسوفيتى أولا ، أما اخلاصهم لبلادهم ومصالحهم القومية الخاصة فيجب أن تكون فى المكان الثانى . وقالت موسكو أيضا بطريقة لا يمكن أن يخطىء فى فهمها أحد أنها تنتظر من كل حزب شيوعى فى كل بلد من البلاد أن يطيع بغير سؤال ما يمليه عليه الحزب الشيوعى بالاتحاد السوفيتى (البولشفيك) ، وأن يطبق الحزب الذى يصل إلى الحكم فى بلاده نفس التنظيمات الجماعية المعمول بها فى الاتحاد السوفيتى .

ولكن تيتو قال : لا .

وقال الكرملين :إنه يجب أن يسحب قراره أو يرغم على التخلى من السلطة

وكان ذلك منذ ثمانية عشر شهرا ، وفى الوقت الذى كتب فيه هذا الكتاب ، لم يكن قد حدث بعد شىء مما طالب به الكرملين ،فتيتو لا يزال يتولى السلطة ، و إذا كان لنا أن نحكم بالشواهد المتاحة لنا فإنه على الأرجح أقوى سياسيا الآن مما كان عليه عندما بدأت المعركة

ولما كانت موسكو هى المقر السياسى والاقتصادى والعسكرى والسيكولوجى الرئيسى لتحقيق الثورة فى العالم ، فإنه من الطبيعى أن يكون من أول واجبات

« السفير » وأعوانه فى العاصمة السوفيتية أن يظل على صلة وثيقة ـ بقدر الامكان ـ بكل مرحلة من مراحل الشيوعية الدولية سواء قبل أو بعد أن احتل « الكومينفورم » جهرة مكان « الكومنترن » الذى حل فى عام ١٩٤٣ لارضاء الرأى العام فى العالم الغربى الذى يمثله الحلفاء أثناء اشتداد الحرب ضد هتلر . وعلى ذلك فقد رحنا نتتبع فى اهتمام متزايد تطورات النزاع مع تيتو خطوة فخطوه .

وكما لم يحدد السوفيت من قبل موعدا لتحقيق السيطرة الشيوعية العالمية التى يعتقدون ألا مفر من تحقيقها فى النهاية ، فانهم لم يحددوا كذلك أى موعد للقضاء على المارشال اليوجوسلافى الثائر . ومن الواضح أنهم يعتقدون أن الوقت فى جانبهم ، وإن كان الأمر قد لا يكون كذلك فى النهاية .

ولن يكون من الحكمة أن يتكهن المرء فى هذه المرحلة بما إذا كان تيتو سيكسب المعركة أم يخسرها ، سيستلم أو يفقد مكانه إن لم يكن رأسه ، ولكننى أعتقد أنه لن يكون بلا فائدة أن نذكر على وجه الاجمال الفوائد الخاصة التى عادت على الغرب من نجاح تيتو المستمر فى مناوأة الكرملين .

وعلى ضوء الخبرة التى اكتسبتها فى موسكو أستطيع أن أحدد هذه المزايا الكبرى فيما يلى :

أن أى نظام استبدادى ، يرتكز عادة إلى حد كبير على توهم أن سادة هذا النظام معصومون من الخطأ . وما دام تيتو باقيا على قيد الحياة ، غير نادم على ما فعل ، ومستوليا على السلطة فى بلاده فإنه سيظل دليلا ينقض هذه الفكرة .

ولقد أدى ذلك النزاع إلى الكشف عن حقيقة الدوافع الشيوعية الصادرة من موسكو وتجريدها من أية صبغة دولية واظهارهـا للعالم كما هى « السعى وراء خلق روسيا العظمى » لا تزيد على ذلك ولا تنقص . أما نظريات ماركس وانجلز التى تكرس الجزء الأكبر من اهتمامها إلى كيفية صنع التدارك دون أن تعنى على الاطلاق تقريبا بتوجيه الدولة الثائرة ، فقد حورت وعدلت بحيث تتفق مع أساليب التنظيم الروسية ، التى تعد مجرد «تجديد » للأساليب التى كانت تتبعها روسيا القيصرية منذ عهد بعيد ، والتى تعتمد على القوة الاستبدادية والسيطرة المطلقة .

ولما كان الاستقلال هو أشد « الأمراض » عدوى فى الدولة التى تحكم حكما استبداديا ، فإن ثورة « تيتو » التى نجحت حتى الآن ، قد زلزلت كيان قيادة الحزب الشيوعى فى كل من بولندا والمجر وألبانيا باعتراف الشوعيين أنفسهم . وكل الاسباب تؤيد الاعتقاد بأن هذا هو السبب الذى يبدو من وراء الاضطرابات الحزبيه وحركات التطهير ، التى لم تحظ بقدر كبير من الدعاية والتى حدثت فى بلغاريا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا .

وفى البلقان ، أحدث الشقاق بين الكومنفورم وتيتو خلافا بين كبار زعماء رجال العصابات اليونانيين . وعندما آلت القيادة فى النهاية إلى القوات المناوئة لتيتو كفت يوجوسلافيا على الفور عن امداد الثوار اليونانيين بمعونتها الضخمة ، وسهلت بذلك مهمة القضاء على الجيش الشيوعى فى الشمال بفضل المعونة الأمريكية . كما أصبحت البانيا الآن ، وهى إحدى الدول الخاضعة للنفوذ الروسى والمعادية للمارشال تيتو ، فى معزل عن أية جارة صديقة وعرضة لاهتزازات الازمات السياسية الداخلية

التى نشأت إلى حد ما، لأن البانيا كانت تتبادل معظم تجارتها مع يوجوسلافيا أو تنقلها عبر أراضيها منذ بداية الحرب. وكذلك فشل المشروع الذى كانت تؤيده روسيا لانشاء اتحاد من دول جنوب البلقان ، والذى كان قد تم الاتفاق عليه بين يوجوسلافيا وبلغاريا بعد أن وقفت الأخيرة ضد تيتو فى النزاع الذى قام بينه وبين « الكومنفورم » . وأصبح لزاما على يوجوسلافيا بعد أن فقدت معونة روسيا أن تخفف من ضغطها فيما يتعلق بمنطقة تريستا الحرة التى تحتلها قواتها بالاشتراك مع قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية وهى منطقة تتمسك كل من إيطاليا ويوجوسلافيا بالمطالبة بها .

أما فى الميدان الدولى ، فإن هذا النزاع قد أتاح مزيدا من الادلة على كذب ما تدعيه دولة السوفيت من أنها تحترم المعاهدات وسيادة الأمم الصغرى . فكلماتها نفسها التى تضمنتها سلسلة من المذكرات الغاضبة التى بعثت بها إلى يوجوسلافيا توضح بما لا يشوبه ظل من الشك أنها تتدخل بالفعل وبطريقة مباشرة فى الشئون الداخلية والسيادة القومية ليوجوسلافيا ، الأمر الذى يعد نقضا تاما لميثاق الامم المتحدة.

وفى داخل يوجوسلافيا أدت هذه التطورات إلى تعزيز مركز تيتو بين الطبقات المتوسطة التى كانت معارضة لنظام حكمه والتى تناهض ـ بحكم وراثة الروح البلقانية بل وبحكم تقدير المصلحة الخاصة ـ روسيا أكثر مما تعادى تيتو .

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد أحدث النزاع على الأقل فتورا فى حماسة الشيوعيين الذين وجدوا أنه من العسير أن ينظروا إلى تيتو باعتباره بطلا شيوعيا دوليا يوما ما ، وأن يعتبروه عدوا فى اليوم الثانى .

ولما كان هذا التطور غير المتوقع قد أحدث رد فعل شمل العالم باسره ولا يزال ، فإنه

يجدر بنا أن ننقب قليلا فى الحوادث التى تكمن وراءه .

* * *

على الرغم من شخصية « لينين » ونظرته الروسية فقد كان أحد أفراد جماعة دولية ممتازة من الثائرين . ولا شك فى أنه قد تصور روسيا عقب ثورة « البولشفيك » مباشرة وقد أصبحت أداة قادرة على بث الثورة فى جميع أنحاء العالم . ولم ينتظر « لينين » حتى يستقر النصر الذى أحرزه السوفيت فى روسيا ولكنه أسرع بدلا من ذلك إلى خلق أداة ثورية كان يعتقد أنها ستبعث الثورات فى عواصم الدول الرأسمالية الأخرى . وفى يناير عام ١٩١٩ ، و بينما كانت الحكومة السوفيتية الجديدة لا تزال فى موقف معرض للخطر ، إذ كان جزء كبير من أراضيها تحت سيطرة القوات المعادية ، والمجاعة منتشرة بين الاهالى ، دعا « لينين » الأحزاب الشيوعية الاخرى إلى الاجتماع فى موسكو . وهناك وفى ٤ مارس سنة ١٩١٩ تم تكوين الشيوعية الدولية التى أطلق عليها للاختصار اسم « الكومنترن » . وعلى الرغم من أنه وجد بعض الصعوبات فى فرض إرادته على زملائه فإن « لينين » قد استطاع أن يسيطر على « الكومنترن » على النحو الديكتاتورى المطلق الذى ألجم به الحزب الشيوعى الروسى نفسه .

وفى الوقت الذى نجد فيه أن القوانين الخاصة لهيئة « الكومنترن » قد تضمنتها قرارات مطولة .. إلى حد يتعذر معه شرحها بالتفصيل هنا ، فإن المبادىء الرئيسية للكومنترن يمكن تلخيصها فيما يلى : أن الكومنترن يستند فى اساسه إلى الفكرة التى ابتكرها « لينين » عن « الديمقراطية المركزية » وهذه تعنى أن كل حزب

قومى شيوعى له أن ينتخب أعضاء يمثلونه فى مؤتمر الكومنترن الذى يعقد فى موسكو تحت اشراف الحكومة السوفيتية . وهذا المؤتمر ينتخب لجنة تنفيذية تخول سلطة اتخاذ القرارات المقيدة للهيئات التى تقل عنها مكانة . وكان التمثيل يتم على أساس عدد أعضاء الحزب وهى صيغة رجحت بها كفة روسيا منذ البداية ، وكانت المناقشات ، من الناحية النظرية ، مسموحا بها حول أية مسألة فى أى مؤتمر يعقد حتى تتخذ اللجان العليا قرارا فى الأمر . وكانت هذه هى الناحية « الديمقراطية » المزعومة « للمركزية » ، ولم يكن الحمق يبلغ بأحد الشيوعيين الحد الذى يجعله يغامر بعنقه إذ كانت العقوبات المفروضه على جريمة « المروق » تصل إلى الموت . وبعد الوصول إلى قرار ما ، لم يكن يطلب من الجميع سوى الطاعة العمياء ، ثم يفرض نظام عنيف لا فكاك منه . وتفرض السكرتارية المركزية ، التى تتضمن نظاما خاصا للبوليس السرى لضمان سيطرتها ، نظاما دقيقا لمراقبة كل عضو من أعضاء الأحزاب الشيوعية فى جميع أنحاء العالم . وكانت هذه هى نتائج التطورات التى حدثت خلال الفترة من عام ١٩١٩ إلى ١٩٣٠ . فقد أصبحت سيطرة البوليس مطلقة بعد أن تولى مقاليد السلطة فى الكومنترن جيورجى ديمتروف فى عام ١٩٣٤ .

والواقع أن الكرملين هو الذى كان يشرف على الاعمال التنظيمية بمساعدة جماعة مختارة من الشيوعيين الدوليين الذين يعملون ويقيمون فى موسكو ، والذين يكادون يصطبغون بالصبغة الروسية وهؤلاء يشملون بعض الأشخاص المنفيين من بلادهم أمثال توريز وديكلو الفرنسيين ، وديمتروف البلغارى ؛ وبيردت وجومولكا البولانديين ؛ وبيك الألمانى ؛ وجوتوالد التشيكى وتولياتى الايطالى وآنا بوكر الرومانية. كما كان المئات من الشيوعيين فى جميع أنحاء العالم يؤخذون إلى موسكو ليدربوا

تدريبا قويا على النظريات الشيوعية ووسائل تطبيقها وممارستها .

وكانت الحركات الشيوعية القومية تتلقى مساعدات مباشرة من « الكومنترن » . وفى ظل هذه الظروف لم يلبث حتى مجرد التظاهر بالوسائل الديمقراطيه ـ الذى كانت تتسم به الحركة فى بدايتها ـ أن اختفى . وكانت الشيوعية الدولية خاضعة لحفنة من الرجال داخل الكرملين وحوله ، بل حتى مؤتمر الحزب لم يلبث أن أغفى النظر عن عقده على مر الأعوام على الرغم من أن هذه المؤتمرات كانت قد تحولت إلى ما لا يزيد عن مجرد خاتم من المطاط لرجم القرارات التى سبق أن اتخذها الرجال الذين يسيطرون على « الكومنترن » .

وعند ما تولى ستالين السلطة حدث تغيير يكاد يتميز بالدهاء فى طريقة التفسير . فإن ستالين وهو وطنى ، فى قرارة نفسه قد حمل معه فكرة تتلخص فى أن الثورة العالمية يجب أن تكون هى نفسها أداة فى يد الاتحاد السوفيتى لا أن يكون الاتحاد السوفيتى أداة فى يد الثورة العالمية .

وكان ما قاله ستالين فى عام ١٩٢٢ : « وفى الظروف الحاضرة لا يستطيع أحد أن يسمى نفسه ماركسيا ما لم يؤيد جهرة وفى اخلاص أول ديكتاتورية للطبقات العاملة فى العالم . »

ولقد كانت للكومنترن مساوئه ومحاسنه . فإن العالم الرأسمالى قد مر بأزمة اقتصادية كبرى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وعلى الرغم من أنه قد أصيب بهزات عنيفة من جراء حالة الكساد والهبوط التى بدأت فى عام ١٩٢٩ ، فقد تكاتف وتساند و بدأ يعمل من جديد للعودة إلى حالة الانتعاش فى الأعوام التالية بين عامى

(١٩٣٠ و ٤٠) . وعلى الرغم من كل هـذه المتاعب فإن الـكرملين قد عجز عن استخدام أداته الدولية ليحقق الثورة فى الدول الأخرى . وإن كان هناك فى الواقع كثير من المراقبين للأمور فى المحيط السوفيتى ممن يعتقدون أن ستالين كان يخشى بالفعل أن تحدث ثورة حقيقية فى احدى الدول الأجنبية الـكبرى التى قد تنافس ثورة الاتحاد السوفيتى نفسه وتخرج على سيطرة الـكرملين ، وأنه لهـذا السبب قد تعمد أن يفرض نفوذه لـكبح جماح مثل هذه الحركات .

على أن « الـكومنترن » خلال هـذه السنوات قد تقدم بنجاح تام باعتباره أداة فعالة فى سياسة العالم السوفيتى لتخصصه فى النشاط التخريبى والتجسس لحساب موسكو . وقد استخدمت وسائل الاقناع البارعة القائمة على اسس سيكلوجية مع أعضاء الأحزاب الشيوعية فى جميع اتحاد العالم لاقناعهم بأنهم عندما يعملون فى خدمة الاتحاد السوفيتى انما يخدمون غرضا عظيما نبيلا ليست وطنيتهم بالنسبة اليه إلا شيئا ثانويا . وقد وصفت هذه الأساليب وصفا دقيقا فى بعض الـكتب التى نشرت على الملأ كاعترافات الشيوعى الأمريكى السابق « بن جيتلو » والتقرير الذى أعدته اللجنة الـكندية الملـكية عن شبكة التجسس السوفيتى فى كندا .

وعن طريق الأساليب التى لجأت اليهـا الجبهات الشعبية وأعمال التسرب والاستيلاء على السلطة فى الجمعيات الإصلاحية والإنسانية ، استطاع الشيوعيون فى الواقع أن يزيدوا عدة مرات قوتهم من الناحية الاسمية العددية . وفى خلال الفترات التى تقع بين الحروب كانوا يقدمون بنشاط يهدف بصفة خاصة إلى معارضة التدريب العسكرى وتأييد الحركات التى تؤثر تأثيرا فعالا فى اخماد الروح المعنوية وخفض الاستعدادات الدفاعية فى دول الغرب .

ولكن « الكومنترن » نفسه تعرض للضغط الشديد عندما وقعت السلطات السوفينية فجأة فى أغسطس عام ١٩٣٩ ميثاق عدم الاعتداء مع هتلر ، وكان ذلك بمثابة إذن للقوات النازية بغزو بولندا . وهو عمل أدهش وأذهل الشيوعيين فى جميع أنحاء العالم لأنه لم يكن ثمة وقت لاعدادهم من قبل لهذا التحول الطارىء فى « التاكتيكات » ، ولكن فى الوقت الذى فقدت فيه الأحزاب الشيوعية بعض أعضائها فى كثير من الدول وفى الوقت الذى ثار فيه كثيرون من الأحرار الذين كانوا قد اقتنعوا بالتعاون مع الشيوعيين فى انشاء جبهة متحدة ، على الرغم من كل ذلك ،فإنه يجب الاعتراف بقيمة وسائل التنظيم الروسية التى جعلت « الكومنترن » يظل سليما و بمنجاة من انشقاق أية هيئة من الهيئات الوطنية الخاضعة له . ولقد قاوم الشيوعيون الذين ظلوا على ولائهم لأحزابهم كل فكرة ترمى إلى الاستعداد للحرب ضد هتلر أو مساعدة انجلترا باعتبارها دولة استعمارية ، ولكنهم ما لبثوا أن تعرضوا لصدمة أخرى فى ١٢ يونيه عام ١٩٤١ عندما هاجم الجيش النازى الاتحاد السوفيتى فجأة ، وأصبح لزاما أن يعدل موقف الحزب بسرعة مرة أخرى . وعندما أسرعت بريطانيا والولايات المتحدة إلى مساعدة الاتحاد السوفيتى على أساس أنهما مستعدتان لمساعدة أية دولة تحارب النازيين ، بدا أن أيام « الكومنترن » باعتباره أداة سافرة لإحداث الثورات فى العالم معدودة ، فإن ستالين وغيره من زعماء الكرملين كانوا يعرفون جيدا مدى الاستياء والريبة التى ستثيرها فى الغرب الجهود التى يبذلها حليف من حلفاء الحرب للعمل ضد حكومات الدول الغربية .

وعلى ذلك ففى ٢٢ مايو عام ١٩٤٣ أعلن راديو موسكو بطريقة دراماتيكية أن اللجنة التنفيذية للكومنترن قد عقدت اجتماعا عاجلا فى هذه المدينة وقررت

حل الهيئة ،وهو عمل أحدث رد فعل سريع فى جميع أنحاء العالم الغربى . الذى كانت شعوبه تبدو متلهفة إلى تصديق أى شىء خيِّر يعزى إلى حليفهم الروسى . وعلى الرغم من أن الحكومة السوفيتية قد ظلت مصرة على التظاهر ـ وهو أمر لم يكن أحد المطلعين يحمله على محمل الخير ـ بأنها لم تكن مسئولة على أى وجه من الوجوه عن الكومنترن ؛ فإن ستالين نفسه قد انتهز الفرصة لكى يقوم ببعض الدعاية النافعة بالاجابة على بعض الأسئلةالتى وجهها اليه هارون كنج مراسل وكالة رويتر الانجليزية للأنباء فى موسكو ، وهو مراسل يمتاز بالجرأة وسرعة البديهة وحدة الأسئلة ، وقد كتب ستالين ردا على أسئلة مستر كنج يقول : « إن حل الكومنترن يضع حدا للأكذوبة التى تزعم أن موسكو تعتزم التدخل فى حياة الدول الأخرى وبلشفتها . » وأكد ستالين أيضا أن هذا الأجراء وضع حدا أيضا « للسفرية » التى تزعم أن الأحزاب الشيوعية فى كثير من الدول تعمل لا من أجل صالح بلادها بل بناء على الأوامر التى تتلقاها من الخارج .

وأعتقد أنه من المهم أن أعاود تأكيد هذه الحقيقة وهى أن « الكومنترن » القديم على الرغم من الظروف القاسية التى مر بها العالم فى حربين متتاليتين لم يستطع أن يدبر ثورة واحدة ناجحة فى دولة واحدة خارج نطاق الاتحاد السوفيتى ، وأنه من الناحية النظرية لم يستطع أن يكتسب قط العدد الكافى من الأعضاء فى أية دولة من الدول لتكوين قوة من الأغلبية البرلمانية .

ولذلك فإن حل « الكومنترن » فيما أعتقد ، إنما يدل على إدخال تعديل فى خطط الكرملين يتفق مع الظروف الجديدة التى تطورت خلال سنى الحرب العالمية الثانية . ففى عام ١٩٤٣ كان من الواضح أن الحلفاء سينتصرون بالفعل

فى النهاية ، وكان الكرملين يقدر بالفعل إلى أى مدى يمكن استغلال ضد الانتصار فى بسط النفوذ السوفيتى ... ولم تكن منظمة « الكومنترن » وهى الهيئة ذات الأغراض السافرة بالأداة العملية التى تصلح لتحقيق هذه الغاية . وقد اقترب الوقت الذى يستطيع فيه الزعماء المنفيون من أعضاء اللجنة التنفذية للكمنترن أن يعودوا إلى بلادهم فى أعقاب الجيوش السوفيتية وأن يضطلعوا بالواجبات التى دربوا عليها وأعدوا لها من قبل فى موسكو . إن آل ديمتروف و بوكر وجوتوالد يستطيعون أن يستردوا وشاح الوطنية وهم يستعدون لحمل بلادهم إلى المجد الخالد مع الاتحاد السوفيتى .

وكما نعرف جميعا فإنهم لم يفعلوا سوى ذلك ؛ على الرغم من أنه مما يجدر بالملاحظة أنهم لم يتمكنوا من السيطرة إلا على الدول الواقعة على حدود الاتحاد السوفيتى والتى كانت مستهدفة على نحو مباشر لقوة الجيوش الروسية . و بينما يمكن أن تعد هذه الحقيقة شيئا مطمئنا لنا من حيث إنها تشير إلى أن الحديث المزدوج عن المثالية الشيوعية لم يكن من القوة بحيث يكفى لغزو أية دولة ، فإنه مما يجدر بالذكر فى نفس الوقت ، أن الاتحاد السوفيتى لن يتردد فى الوقت المناسب فى استخدام هذا العنصر الهام الذى يتمثل فى القوات العسكرية السوفيتية .

ولقد اعلن لينين منذ عهد بعيد أن « القوة .. هى خادم الثورة . »

ومنذ تم وضع هاته الصنائع الروسية المدربة فى دست الحكم فى الدول الخاضعة للنفوذ السوفيتى ، شهدنا العملية التدريجية التى تجرى لإعادة تشكيل هذه الدول فى صورة جزء متواضع من الجمهوريات السوفيتية .

وإننى لجد مقتنع بأنه لم يكن لدى ستالين ولا لدى المكتب السياسى « البوليتبيرو » أدنى نية فى السماح لأى مبدأ آخر من مبادىء الحكم بأن ينمو ويتطور داخل نطاق الدول الخاضعة للنفوذ الروسى، ولا فى احترام ـ إلى أى مدى أو بأية طريقة ـ الاتفاقيات المعقودة التى عقدوها مع بريطانيا أو معنا نحن والتى تقضى بالسماح لدول شرق أوربا بأن تختار فى حرية تامة لون الحكومة التى تشاء، وأن تقرر مصائرها بنفسها . لقد كان « الكرملين » مصمما ـ منذ البداية ـ على أن يحول بيننا وبين القيام بأى دور أو ممارسة أى نفوذ فى أوربا الشرقية ، وبمنعنا من المساعدة فى إعادة تعمير أوربا نكون قد فتحنا القارة الأوربية بأسرها فى وجه التوسع والاستغلال الروسيين .

وإن التاريخ لم يسجل من قبل مثلا آخر تحققت فى ظله الأهداف التوسعية العدوانية بسرعة كما حدث فى الاتحاد السوفيتى . ففى أقل من ثلاث سنوات من السلم استطاع الاتحاد السوفيتى عن طريق التسرب السياسى والضغط أن يستولى على جزء من الأرض يزيد اضعافا مضاعفة على الأراضى التى استولى عليها الجيش الأحمر خلال الحرب بأكملها .

وفى هذا الوقت كانت دول الغرب التى أبت شعوبها أن تعترف ، حتى فى وجه الأدلة الساحقة التى لا تنقض ، بأن آمالها فى إقامة عالم متحد قد تبددت فى الهواء ـ كانت تمر بفترة من القلق والحيرة والتردد .

وقد راح الجنرال مارشال يردد قوله : « إن الديمقراطيات لاتبدأ العمل سريعا ، ولكنها عندما تتحرك تعمل بقوة عظيمة وفى حزم وتصميم . »

وعندما اتضح فى النهاية للشعب الأمريكى أن الاتحاد السوفيتى والديمقراطيات الغربية تختلف اختلافاً واضحا فى أغراضها السامية ، وأن الاتفاقيات النبيلة السامية التى تمت فى جو يشوبه الأمل خلال الحرب أصبحت تفسر تفسيرات متناقضة على طول الخط ، بدأ يعمل على نحو إيجابى فعال .

ولم يلبث أن صدر قانون ترومان الذى ينص على تقديم المساعدة لليونان وتركيا ويتضمن فى مبادئه الوعد بمساعدة أية دولة تقاوم العدوان السوفيتى . وكان ذلك فى مارس سنة ١٩٤٧ ، ثم أعقبه بعد بضعة أشهر مشروع مارشال للمساعدة على الانعاش الاقتصادى فى أوربا .

وقد صرح لى أحد رجال الحكم والسياسة فى أوربا ، وهو ممن يمتازون بالحكمة وسداد الرأى فى ذلك الحين ، بقوله: إن مقترحات مارشال ضربة تتسم بالذكاء المطلق. ولو أنها اقترنت بادماج مناطق الاحتلال الانجليزية والفرنسية والأمريكية فى ألمانيا الغربية من الناحيتين القانونية والسياسية ، لكانت بمثابة رد قاس على القوة الروسية الحالية ولأدت إلى انسحاب الروس إلى الشرق بغير حرب .

وكان المؤتمر الأول الذى عقد فى باريس بمثابة الاختبار النهائى لنوايا السوفيت ، وعندما أبلغنى السفير الفرنسى فى نهاية شهر يونيه أنه قد منح التأشيرات اللازمة لمولوتوف ولأكثر من ستين خبيرا اقتصاديا لحضور مؤتمر تعمير أوربا الذى سيعقد فى باريس ، فكرت لحظات ، على الرغم من كل ما علمته فى عاصمة السوفيت عما إذا كان من الممكن أن يحدث تحول جديد فى سياسة الكرملين يهدف إلى التعاون ، على الرغم من أنه لم يحدث خلال العامين السابقين أن أدلى أحد زعماء الاتحاد

السوفيتى ببيان واحد أبدى فيه الاهتمام بأى مجهود مشترك لاصلاح الأداة الاقتصادية الأوربية .

ولكن عندما خرج مولوتوف من مؤتمر باريس بعد أن رفض التعاون مع المشروع الأمريكى ، وعندما أرغم الكرملين تشيكوسلوفاكيا على الانسحاب ، بعد أن كانت قد أعلنت قبوله ، وكذلك بولندا التى أبدت رغبتها فى المشاركة فى البرنامج ، عرفنا أنه لن يكون ثمة تعديل ، وأن العالم قد انقسم بالفعل بفضل القرار السوفيتى إلى معسكرين .

وقد يكون من المحتمل أن المكتب السياسى « البوليتبيرو » قد تردد بعض الوقت فى اتخاذ هذا القرار . فقد أخبرنى مستر بيفن أن موقف مولوتوف فى اليومين الأولين اللذين قضاهما فى باريس كان يبدو له مشجعا ، وأنه بينما كان مولوتوف يتحدث فى اليوم الثالث فى المؤتمر سلمه أحد مساعديه برقية ، فلم يلبث أن قطع كلمته ليقرأها ثم لزم الصمت ولم يقل شيئا طوال الاجتماع . وفى اليوم التالى ندد مولوتوف بالمشروع ، ومن الواضح أن البرقية التى تلقاها كانت تتضمن التعليمات النهائية الخاصة بموقف حكومته من هذا المشروع .

ولقد كنت دائم التطلع إلى ترجمة المقالات السياسية فى مجلات الأطفال السوفيتية، فقد كانت شيئا يستثير الاهتمام والعجب إلى حد كبير لأنها كانت تتضمن مبادىء الدعاية الفجة فى كلمات ذات مقطع واحد لايحدها النطق الشيوعى ، وهاك كيف وصف مشروع مارشال لأطفال الإتحاد السوفيتى :

« سأل كل من زديا دافيدوفا ، ومنصور كايوموف ولتيفولن وغيرهم من الأطفال : ما هو مشروع مارشال ؟ »

وفيما يلى يجيب الدكتور فيشينتف أستاذ العلوم الاقتصادية على سؤالهم :

« إن مارشال هو وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية (وهو يدعى فى بلادنا وزير الشئون الخارجية). وفى الصيف الماضى ألقى مارشال خطابا أعلن فيه أن دول أوربا يسودها فى الوقت الحاضر الفوضى الاقتصادية ، وأن الولايات المتحدة مستعدة لمساعدة هذه البلاد على اصلاح نظمها الاقتصادية ، واقترح مارشال على الدول الأوربية أن تتشاور فيما بينها أولا فى الوسائل التى يمكن أن تساعد بها بعضها البعض . ثم قال مارشال : لندع هذه الدول أولا تقدر بنفسها الموارد التى لديها وما تحتاج إليه . وعند ذلك ستقرر أمريكا كيف يمكن أن تساعد هذه الدول . وسرعان ما اثارت الصحف الأمريكية ضجة كبيرة حول هذا المشروع ، وفى أساليب متعددة راحت هذه الصحف تشيد « بعظمة » أمريكا التى قررت مساعدة الدول الأوربية التى دمرتها الحرب وشهامتها ...

« وعلى أن هذا المشروع المأكر كان فى الواقع يهدف إلى أغراض أخرى ، فالرأسماليون الأمريكيون يريدون أن يستخدموا المساعدة التى يقدمها مشروع مارشال للسيطرة على اوربا وجعلها خاضعة لهم . وقد أدركت حكومة الاتحاد السوفيتى فى الحال المعنى الحقيقى لمشروع مارشال فرفضت بصفة نهائية الاشتراك فى تنفيذه ، وكذلك فعلت حكومات الدول الديمقراطية الشعبية الأخرى كبولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ورومانيا والمجر وكذلك فنلندا. ولكن ست عشرة دولة من دول أوربا

قبلت المشروع على الرغم من ارادة شعوبها .

« ولنر الآن كيف تستعد الولايات المتحدة لتنفيذ مشروع مارشال وبماذا تعد الدول الاوربية التى التقمت الطعم الأمريكى .

« لقد اجتمع ممثلو هذه الدول الست عشرة معا وقرروا أنهم فى حاجة إلى مساعدة من الولايات المتحدة تبلغ قيمتها ٢٩ بليون دولار لكى تتمكن من اصلاح اقتصادياتها . وقال الأمريكيون إن هذا مبلغ ضخم وطالبوا بتخفيضه إلى ما يتراوح بين ٢٠ و ٢٢ بليون دولار .

« ومضى الامريكيون اكثر من ذلك فوضعوا الشروط التالية : أنهم هم أنفسهم سيقومون بتوجيه كل دولة من دول أوربا فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية التى ينبغى عليها أن تمارسها وبما يجب عليها أن تتحاشاه . فهم يقولون لبريطانيا مثلا : أنتم ايها البريطانيون عليكم أن تبنوا سفنا أقل لانفسكم ؛ وأن تشتروا منا السفن فى أمريكا .... وهم يقترحون على فرنسا أن تخفض انتاج السيارات . فإن فى استطاعة المصانع الأمريكية أن تصنع السيارات لفرنسا .

« وإنه لغنى عن البيان أن فى كل ذلك فائدة كبرى لاصحاب رؤوس الأموال الأمريكية . ففى أمريكا ينتظر كل شخص فى فزع الازمة الاقتصادية ؛ وهو الوقت الذى تغلق فيه كثير من المصانع والصناعات أبوابها فجأة . ويترك ملايين الأشخاص بلا عمل . وفى ذلك الوقت سيكون من العسير أن يتخلص المنتجون من منتجاتهم . فإن الرجل العامل لن يكون لديه مايشترى به منهم . وهكذا يبدى الرأسماليون الأمريكيون اهتماما كبيرا بالبحث عن طريقة لبيع منتجاتهم بطريقة مريحة فى أوربا . واكثر من ذلك أنه لن يكون هناك مفر من أن تصبح دول أوربا معتمدة على أمريكا .

وما دامت لا تصنع إلا القليل من الآلات والأدوات والسيارات فإن معنى ذلك أنها ستجد نفسها أرادت أم لم ترد وقد اسلمت قيادها للامريكيين .

« ولقد كان الرأسماليون الأمريكيون يريدون وفقا لمشروع مارشال أن يعمدوا جميع المصانع الكبرى فى غرب المانيا . وهم فى الدول الأخرى يعجلون باغلاق كثير من المصانع ، أما فى المانيا فانهم على العكس يعملون على فتحها . والغرض الذى يسعون إليه هناك أيضا مفهوم تماما وفى غاية الوضوح ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر المانيا الغربية مستعمرة لها ، وعن طريقة ادارة صناعاتها الكبرى التى تستطيع أيضا أن تصنع الأسلحة سيكون فى استطاعتها أن تبعث الرعب فى أوصال الدول الأوربية التى تعمد عليها .

« ويعتمد الرأسماليون الأمريكيون على استخدام مشروع مارشال فى إثارة الاضطرابات بين شعوب الدول الشعبية الديمقراطية وفى الاتحاد السوفيتى . ولقد كان الغرض الذى تقدم به الأمريكيون إلى هذه الدول يتلخص فيما يلى :

سوف نعطيكم الدولارات على شرط أن تتخلوا عن صداقتكم للاتحاد السوفيتى. فإذا لم تفعلوا ، فلن نعطيكم شيئا .

ولكن شعوب هذه الدول لم تقع فى الفخ الذى نصبه لها الرأسماليون الأمريكيون وأجابت على هذا العرض الأمريكى بقولها : اننا لن نستبدل الدولار بحريتنا واستقلالنا .

« ولقد اثار الشعب الأمريكى وشعوب دول أوربا الرأسمالية ضجة كبيرة حول مشروع مارشال ، ولكن الأمريكيين حتى الآن لم يعطوا أحدا دولارا واحدا من المبالغ التى اشير إليها فى المشروع . وإن كانت أمريكا فى نفس الوقت قد راحت

تطالب دول أوربا بأن تمنحها حق بناء القواعد البحرية فى أراضيها ومستعمراتها لإيواء وحداتها البحرية والمطارات للطائرات الأمريكية .

« إن بلجيكا تملك مستعمرة الكونغو فى أفريقيا . وهناك يتوافر عنصر اليورانيوم بكميات وفيرة . وهذا العنصر لازم لانتاج القنابل الذرية ، وفى مستعمرة كاليدونيا (الجديدة) الفرنسية توجد مناجم النيكل ، وهو معدن هام جدا لصناعة الأسلحة ، والأمريكيون يطلبون أن تقدم بلجيكا وفرنسا اليورانيوم والنيكل لأمريكا . »

« ولكن هذا ليس كل شىء . فإن للرأسماليين الأمريكيين هدفا دنيئاً آخر ، فبعد أن استخدموا مشروع مارشال لخفض الانتاج فى دول أوربا أرادوا أن يجمعوا بينها فى حلف عسكرى للاستعداد لحرب مستقبلة ضد الدول الشعبية الديمقراطية . فقد عاد مشروع مارشال على الولايات المتحدة بفوائد عظيمة ، أما بالنسبة لدول أوربا فإنه لم يجلب إليها سوى الفقر . فإن أية دولة تريد أن تتلقى « المعونة » فإن معنى ذلك أن تصبح خاضعة تماما لأمريكا . ولن تؤدى « المعونة » الأمريكية إلى تدعيم اقتصاديات مثل هذه الدولة ، بل إنها على العكس ستنحدر بها إلى اسوأ مما كانت عليه من الدمار لأن الدولة « المعانة » ستضطر إلى إغلاق كثير من مصانعها وصناعاتها وسيتعطل مئات الآلاف من أبنائها عن العمل . ومن أجل ذلك يقاوم التقدميون فى أمريكا نفسها وفى جميع الشعوب الأخرى مشروع مارشال بكل ما يسعهم من قوة . »

* * *

وكان رد الكرملين على مشروع مارشال هو إعادة إنشاء الكومنترن تحت اسم

« مكتب الاستعلامات الشيوعى » أو الكومينفورم . وكان ذلك فى اجتماع سرى عقد فى بولندا فى سبتمبر عام ١٩٤٧ ، كما أنشأ كذلك مجلس أوربا الشرقية للمعونة الاقتصادية المتبادلة . فى يناير عام ١٩٤٩ .

ويسرنى أن أقول أن اتخاذ هاتين الخطوتين لم يتسم بعنصر المفاجأة بالنسبة للسفارة أو لحكومة الولايات المتحدة . وعلى الرغم من أننا كنا بمعزل عن مصادر الأخبار الأصلية فى الاتحاد السوفيتى ، فإنه كان من المستحيل أن يتحاشى المرء ، عندما يقضى فترة طويلة فى الاتحاد السوفيتى تكفى لكى ينغمس فى تاريخ روسيا ومبادىء ستالين والأحاديث الشيوعية ذات الوجهين ، أن تنشأ لديه « حاسة سادسة » دقيقة للحكم على ما سيفعله الكرملين ، والسبب الذى من أجله سيفعله .

ولقد تنبأت بالفعل بما حدث . . فقد لاحظت أن موسكو كانت قد أبدت منذ بعض الوقت عزمها على تعزيز الروابط بين الأحزاب الشيوعية فى جميع أنحاء العالم ، وفى سبيل هذه الغاية لجأت إلى تنظيم مايعد فى الواقع مؤتمرات شيوعية دولية فى هيئة مؤتمرات وطنية محلية هامة .

ولقد كانت تكهناتى صحيحة . . فقد وجدت فى مذكراتى التى أعددتها فى أوائل عام ١٩٤٧ ، التى أشرت اليها فى تقريراتى إلى وزارة الخارجية الأمريكية ، ما يشير إلى أن المؤتمرات الشيوعية التى عقدت فى لندن فى ذلك الوقت يبدو أنها اتخذت فرصة لعقد اجتماع سرى ، واسع النطاق للكومنترن . وقد كان مفروضا أن يشهد هذه المؤتمرات مندوبون ذوو مكانة كبيرة فى العالم الشيوعى من جميع دول أوربا والشرق

الأدنى تقريبا . وقد شعرنا بأن هذا النشاط الشيوعى الدولى المتجدد قد يكون تمهيدا إلى إعادة إنشاء منظمة شيوعية دولية .

كل ذلك فضلا عن أن عودة الغرب إلى انتزاع عنصر المبادأة عن طريق برامج ترومان والتعمير الأوربى قد حملت « الكرملين » على اتخاذ موقف دفاعى . وعلى ذلك فإنه على الرغم من أن موعد ومكان الاجتماع الذى عقده الكومنترن فى روسيا قد ظلا سرا لم نستطع معرفته ، فإنها لم تكن مفاجأة لنا عندما أعلنت صحيفة برافدا فى ٥ اكتوبر عام ١٩٤٧ أن مؤتمرا لزعماء الأحزاب الشيوعية الذين يمثلون تسع دول قد عقد .

على أن الاعلان من انشاء الكومينفورم لم يزد على الأرجح من أثر أو قوة هذه الهيئة الدولية التى يوجهها « الكرملين » والتى ظلت قائمة دائما ومستمرة من وراء الستار . كما أن التنظيمات ليست كل شىء ، فإن المعركة فى سبيل السيطرة على أوربا هى معركة قائمة إلى حد كبير على العقول وعلى اخلاص الرجال لقضاياهم .

وفى مواجهة البرنامج الإيجابى الجديد الذى اتخذه الغرب أصبح الشيوعيون ، حتى المخلصين منهم ، فى حاجة إلى الإعلان عن برنامج ما يستطيعون أن يتعهدوا بالولاء له . وكان هذا البرنامج — فى نفس الوقت — بمثابة تعهد صريح ، يجعل من المستحيل على الزعماء الشيوعيين فى الدول الخاضعة للنفوذ الروسى وفى فرنسا وإيطاليا أن يستسلموا لأى إغراء قد يشعرون به ، أو رغبة فى ضمان الحصول على مساعدات أمريكية بقصد تعمير بلادهم وإصلاح جهازها الاقتصادى . وكان هذا بمثابة إعلان

الحرب الاقتصادية التى عززت الأجراء الذى اتخذه مولوتوف عندما انسحب من مؤتمر باريس .

وكان إعلان الكومنفورم ، مثله كمثل سائر جميع الوثائق الشيوعية المماثلة الأخرى ، متسما « بالحديث المزدوج » متميزا بتلك الصفة الروسية الخاصة ، التى طالما خبرناها فى السفارة ، والتى تتضمن اتهام الآخرين بعمل ما يعملونه هم أو ما يوشكون أن يعملوه .

فقد اتهمت مشروعات ترومان ومارشال بأنها « ليست إلا خدعة ، أوانها الفرع الأوربى من مشروع عالمى عام يهدف إلى التوسع السياسى تعمل على تحقيقه الولايات المتحدة الأمريكية . » ثم عمدت إلى إيضاح فكرة التوسع السياسى المزعوم الذى تضطلع به الولايات المتحدة ، بأن قدمت وصفا قصيرا للأمريكيين الاستعماريين لم تنسج الدعاية الروسية الشيوعية من قبل على منواله فى كل ما قرأته عنها فقد قالت :

« إن ترسانة الأسلحة الحربية (تعنى الولايات المتحدة) التى يستخدمها المعسكر الاستعمارى .

[وهنا يحسن أن يضع القارىء كلمة الشيوعى مكان الاستعمارى] لشديدة التعفن، فهى تجمع بين التهديد المباشر بالقوة والتهديد والارهاب ، وجميع أنواع الأحابيل الديبلوماسية والضغط الاقتصادى والرشوة واستغلال تضارب المصالح والخلافات فى سبيل تحقيق أغراضها وتعزيز مركزها ، وكل ما تخفيه وراء قناع من التحرر والتهدئة لكى تخدع وتبعث النشوة الخادعة فى أوصال الشعوب التى لاتتمتع بمهارة سياسية كبيرة » .

وحتى الاسم الذى اختير للمنظمة الجديدة (الكومنفورم) قد تعمد المسئولون الروس أن يكون خداعا . فهى إذ توصف بأنها مكتب للاستعلامات فإن البيان الذى حدد أغراضها أشار إلى أنها تتضمن : « تبادل الخبرة بين الأحزاب ، وفى حالة الضرورة تنسيق نشاطها . » وكان مما قاله البيان أيضا إن افتقار الأحزاب الشيوعية فى ذلك الوقت إلى الروابط التى تجمع بينها « هو عجز خطير فى الموقف الحاضر . »

وفى هذه الناحية بالذات ارتكب الزعماء الشيوعيون ، الذين كان يوجههم من الاتحاد السوفيتى (ا . ا . زامانوف) الذى توفى فيما بعد، وجورجى مالينكوف، الخطأ الكبير الذى أدى فيما بعد إلى وقوع الشقاق مع تيتو ، الأمر الذى أحدث أول انقسام فى الجبهة الشيوعية الدولية . فقد كانت الأحزاب الشيوعية التى كان يسيطر عليها الكومنترن قبل الحرب ، مجرد أحزاب غير قادرة — خارج روسيا — على الوصول إلى الحكم فى بلادها . ولكن الوقت بعد الحرب كان جد مختلف إذ كان الشيوعيون يسيطرون على بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوجوسلافيا وبلغاريا وألبانيا ورومانيا .

وقد زار المارشال تيتو موسكو مرة واحدة عندما كنت فيها . وكان ذلك فى أواخر مايو سنة ١٩٤٦ للمفاوضة فى إبرام اتفاقية تجارية مع الحكومة السوفيتية . وقد حضر عندما كان هناك وفاة « ميكاهايل كالينين » الزعيم الروسى القديم الذى كان يتمتع بمكانة كبيرة . وكان تيتو يقف فى المكان التالى للمكان المخصص لرجال السلك السياسى الأجنبى ليشهد الاحتفال المهيب الذى أقيم لتشييع جنازة الزعيم الروسى فى الميدان الأحمر . ولم يكن هناك ، بكل تأكيد ، أى دليل

ظاهر على وجود الخلاف ، فلم يكد ستالين و بقية أعضاء المكتب السياسى الذين اشتركوا فى حمل بساط الرحمة ، يصعدون إلى قبر لينين حتى دعى زعيم يوجوسلافيا إلى مغادرة مكانه الخاص لينضم اليهم فى المنصة التى تشرف على الميدان عندما بدأ الاحتفال .

ومن المؤكد أن أحدا منا فى موسكو لم يكن يتوقع حدوث ثورة فى صفوف الشيوعيين يتزعمها شخص على هذه الدرجة من الأهمية والمران كتيتو ، ولكننى سجلت فى مذكراتى ومحاضراتى قبل شهرين من إعلان الخلاف بين تيتو والكومنيفورم ، اعتقادى أن المحاولات التى تبذلها موسكو لفرض النظم الحديدية التى تفرضها على زعمائها فى الداخل ، وعلى أتباعها فى الخارج ،لابد أن يؤدى إلى بعض المتاعب .

وفيما يلى مقتطفات من هذه المذكرات : « إن من أخطاء السوفييت فشلهم فى تبين الفارق بين الموقف قبل الحرب و بعدها . »

« و يبدو أن «البوليتبيرو» ـ المكتب السياسى ـ يعتقدون أن «الكومنيفورم» هو « كومنترن » جديد سيمكنه من فرض إرادته على جميع الأحزاب الشيوعية الأخرى ، ومن الواضح أنه ينسى أو يتجاهل حقيقة هامة هى أنه بينما كانت هذه الأحزاب مجرد هيئات لا تمثل إلا الأقلية ولا سلطة لها ، فإنها أصبحت الآن ـ على الرغم من أنها لا تزال أقليات ـ تحكم دولا وترتبط بالتزامات إزاءها . ومن العسير أن يتحقق للحكومة السوفيتية ماتتوقعه من اخلاص تام من جانب الأحزاب الشيوعية الأجنبية بعد أن أصبحت تتولى الحكم فى بلادها » .

وعلى الرغم من ذلك ، فإننا قد دهشنا فى موسكو للاجراء المثير المفاجىء الذى اتخذ فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٤٨ والذى يقضى بطرد الحزب الشيوعى اليوجوسلافى من الكومينفورم ، ويدعو شعب يوجوسلافيا إلى إرغام تيتو وكبار أعوانه على التراجع أو طردهم من الحكم . وقد نشرت صحيفة «برافدا» البيان الذى أصدره الكومينفورم وحده . ولكن « صوت أمريكا » أذاعت باللغة الروسية تحدى تيتو العنيف للقرار الروسى ، وكان ذلك مدعاة لإثارة التعليقات التالية بين « رجل الشارع » فى موسكو عندما كان رجال السفارة يسألونهم عن رد الفعل الذى أحدثته هذه المسألة :

« لقد دبر الأمريكيون الأمر . »

« سيركع تيتو على ركبتيه ، أو يطرده الشيوعيون اليوجوسلافيون المخلصون من الحكم . »

« ما دام ستالين قد أزمع معاداة شخص ما ، فإنه لن يفلته ، ولن يرضى بأن ينتهى الأمر إلى لاشى . »

« إن البيان يتعارض مع نفسه ، فالشق الأول يتهم تيتو بأنه يمينى متطرف ، والشق الأخير يتهمه بأنه يسارى متطرف . »

« إن الحزب الشيوعى فى يوجوسلافيا لا يستطيع أن يعيش بغير مساعدة الاتحاد السوفيتى . »

« إن القوات الروسية ستدخل يوجوسلافيا عن طريق رومانيا وبموافقة هذه الأخيرة . »

« إن كل ذلك قد جاء فى كتاب ستالين (مشاكل اللينينية) كلمة كلمة » . !

على أن الدهشة من كل هذه التعليقات كانت تبدو أكبر لأن نبأ الشقاق قد أُعلن قبل أن يسوى الحساب مع تيتو نفسه، لا لأن خلافا قد وقع بالفعل .

وقد سأل أحد رجال سفارتنا مسئولا بأحد الأحزاب الشيوعية ـ وهو يعمل بسفارة أجنبية أخرى ـ عن الموقف الذى ستتخذه حكومته إزاء الشيوعيين اليوجوسلافيين الثائرين فتلقى الرد التالى : « يجب التخلص منهم بقوة السلاح » . وعندما أبدى الموظف الأمريكى ملاحظة مؤداها أن ذلك قد يكون دليلا على الاستعمارية والعدوان من جانب روسيا السوفيتية ، قال الشيوعى إن مثل هذه الملاحظة تعد تعليقا عدائيا بالنسبة للاتحاد السوفيتى .

* * *

ولقد كانت المسألة الأساسية فى هذه المعركة كلها هى محاولة السوفيت أن يسيطروا سيطرة مباشرة على الحزب الشيوعى اليوجوسلافى . أما ماعدا ذلك من المسائل فلم تكن له سوى أهمية ثانوية . وقد نشأت الأزمة من جراء مقاومة تيتو لحركات التجسس والتدمير السوفيتية داخل يوجوسلافيا ، ومقاومته للمعاملة الاقتصادية غير المتكافئة من جانب الكرملين . أما الخلاف الصريح فقد نشأ عندما وجد المسئولون السوفيتيون هناك أنهم غير قادرين على مكافحة منظمات الأمن اليوجوسلافية، وبعد أن فشلت محاولات السوفيت لبث الشقاق بين زعماء يوجوسلافيا ، واكتشف أمر الموظفين اليوجوسلافيين الذين يعملون كعملاء لروسيا داخل الحزب الشيوعى

اليوجوسلافى ، وألقى القبض عليهم باعتبارهم خائنين للبلاد وللحزب . وكان سحب الخبراء العسكريين والمدنيين السوفيت أول مظاهر هذا الخلاف .

ولقد وضح الآن أن الحزب الشيوعى السوفييتى يريد أن تكون له على الأحزاب الشيوعية الأجنبية نفس السلطة التى يمارسها على المنظمات التابعة له داخل نطاق الاتحاد السوفيتى ؛ كما يريد أن ترضى الحكومات الأجنبية حتى ولو كانت على رأسها الأحزاب الشيوعية الوطنية بأن تصبح مجالا لنشاط شبكات التجسس وأعمال الفوضويين .

أما الهدف الذى كان ينشده السوفيت فى يوجوسلافيا فهو جمع المعلومات فى حرية تامة ، وإنشاء شبكات المخابرات وإنماء روح الولاء للاتحاد السوفيتى فى نطاق الحزب الشيوعى اليوجوسلافى .

ولم يكن فى استطاعة اليوجوسلافيين أن يسمحوا بذلك وأن يحتفظوا فى نفس الوقت باستقلال حزبهم وبلادهم .

ولقد تضاعفت انذارات روسيا ووسائل الضغط التى لجأت إليها إزاء تيتو خلال الأشهر التى تلت طرد حزبه من « الكومينفورم » ، وتبودلت بين موسكو وبلغراد مذكرات عديدة شديدة اللهجة لم يسبق أن تبودلت مثلها بين دولتين فى زمن السلم . وكان الروس فى هذه المذكرات يشيرون صراحة إلى الحكومة اليوجوسلافية باعتبارها « عدوا » ويهددون ، بغير رجوع إلى الأمم المتحدة ، باتخاذ اجراءات شديدة لحماية المواطنين الذين زعمت أنهم يعاملون معاملة سيئة فى يوجوسلافيا . وكانت فرق المصفحات الروسية تقوم بمناورات مكشوفة على الحدود

الجوية اليوجوسلافيـة حيث كان لها حق الاقامة وفقا لأحدى مواد معاهدة الصلح التى تسمح للاتحاد السوفيتى بأن يحمى خطوط تموين قوات الاحتـلال الروسية فى النمسا .

وعندما بدأ واضحا أن تيتو المخلص قد رفض أن يطيع سادته ، بدأ شك الروس يزداد شيئا فشيئا فى ممثلى الدول الأولى الخاضعة لهم و بخاصة فى الممثلين الديبلوماسيين لهذه الدول فى موسكو . ولقد كان واضحا أن هؤلاء الديبلوماسيين الذين يمثلون بلادهم فى موسكو ليسوا هم « الأداة » الحقيقيـة التى تتم عن طريقها الاتصالات بين الحـكومة السوفيتية و بلادهم ، كما كان واضحا أنهم لا يعرفون إلا القليل مما يجرى . ولقد كان معظم الديبلوماسيين الذين يمثلون الدول الخاضعة لروسيا فى موسكو ، وهم ممن بعثوا فى هذه المهمة على عجل بعـد أن تمت تصفية البعثات الديبلوماسية البورجوازية القديمة عقب الحرب مباشرة ، من الـكتاب والأساتذة اليساريين المسالمين ، الذين يتمتعون بثقافة عالية ، ولـكن أحدا لم يـكن يثق فيهم ولم يكونوا يجرأون على الاختلاط بالسلك الديبلوماسى بصفة عامة ، كما أنهم لم يكونوا يلقون من الروس معاملة تفضل المعاملة التى كان يلقاها رجالنا ، بل الواقع فيما اعتقد ، أنهم كانوا يجدون من عدم الثقة أكثر مما نجده نحن ممثلى الغرب . و إذا كان الموظف الروسى العادى قد دُرِّب على الطريقة التى يعامل بها أى رأسمالى مثلا فإنه لم يدرب على الطريقة التى يسلـكها فى المجتمعات . وفى هذه المناسبات ، يعرف الروس جيـدا أن خير ما يفعلونه هو ألا يفعلوا شيئا وألا يقولوا شيئا ، وأن يأخذوا حذرهم . ولقد يحدث أحيانا أن هؤلاء الديبلوماسيين (الذين يمثلون الدول التابعة لروسيا) يغامرون بدعوة بعض الزملاء غير الشيوعيين الذين يعتقدون أنهم محايدون إلى حدما فى المآدب التى يدعون

إليها الموظفين الروسيين أو ممثلى الدول الشيوعية الأخرى . وقد سمعت أشياء طريفة عن مثل هـذه المناسبات . فإن أحدا من المدعوين لا يكاد يقول شيئا ، وإذا حاول أحدهم ـ بحسن نية ـ أن يكون خفيف الظل فأشار عفوا إلى الجو بـكلمة ما فإن الجميع لا يلبثون أن يجمدوا فى أماكنهم ، عندما يتذكرون أن هذه المعلومات قد أصبحت أخيرا من أسرار الدولة بحكم القانون الذى صدر فى شأنها . وهكذا تمضى السهرة إلى غير نهاية بين تناول الفودكا والـكافيار والحلوى الروسية فى جو من الصمت الحزين .

وأخيرا وفى ساعة مبكرة تتفرق الجماعة . . . فالمضيف يشعر بالارهاق التام ، والآخرون يبحثون فى قرارة نفوسهم ليروا ما إذا كانوا قد تفوهوا ـ خلال المحنة ـ بما يمكن أن يؤاخذوا عليه .

ولعل اكبر خطأ وقع فيه « زادانوف » و كبار معاونيه ـ عندما اختاروا هـذه المعركة السافرة ليثبتوا لزعمـاء الدول الشيوعية الأخرى أنهم لا يمـكن أن يكونوا أكثر من « زعماء من القش لا يشتغلون برأى و يخضعون لسلطة الـكرملين ـ هو أنهم اخطأوا الحـكم على شخصية « تيتو » . فإن تيتو ـ على الرغم من أنه قد درب إلى حدما فى موسكو ـ لم يكن أحد « التماثيل » الشيوعية التى ظلت فى موسكو خلال الحرب ثم أعيدت إلى بلادها على اكتاف الجيش الأحمر . فقد قضى تيتو سنى الحرب فى جبال بلاده وقام بدور جرىء فعال فى المعركة ضد العدو المشترك . وكان رجلا مستقلا صنع نفسه بنفسه ولم يفقد شخصيته الوطنية ، كما كان زعيما ناجحـا واثقا بنفسه . وكان يعرف تماما ماذا يريد الروس أن يفعلوا ببلاده ، ولم يكن فى استطاعتـه أن يسلم إلى الـكرملين بسهولة السلطة الخاصة التى شاد دعائمها بمجهوده الخاصة .

وعلى الرغم من كل ما اتسم به القرار الذى أصدرته دول الكومينفورم والذى نشرته صحيفة « برافدا » فى ٢٩ يونيه سنة ١٩٤٨ من الأكاذيب فإنه لم يُخْفِ الحقيقة الواضحة وهى أن المسألة لا تتعلق إلا بالسلطة ـ السلطة الفردية ـ التى يجب أن يتمتع بها الاتحاد السوفيتى فى يوجوسلافيا .

ولم يكن هـذا القرار اكثر من تأكيد رسمى جماعى فى ظاهره لقرار كان قد اتخذه « الكرملين » من قبل بصدد الخلاف الثنائى الذى استمر شهورا بين موسكو و بلغراد . ولقد كانت معظم الاتهامات التى وجهت إلى تيتو غير جادة ، وكان مثارا للسخرية أن يقال إن قرار استبعاد تيتو إنما صدر لارتكابه اشياء معظمها من الوسائل المعمول بها فى الاتحاد السوفيتى ، وقد تعلمها تيتو خلال فترة تدريبه فى موسكو .

ومن المؤكد أن « الكرملين » لم يكن يعنيه كثيرا أن ينشىء تيتو بوليسا سريا ، أو قوة عسكرية كبيرة . والحق أن رجال « البوليتبيرو » ـ المكتب السياسى ـ كانوا أحرياء بأن ينتقدوه لو أنه فعل خلاف ذلك . ولكنهم كانوا يستنكرون بشدة رفضه السماح لهم بادارة هـذه المنظمات عن طريق « مستشارين » من السوفيت .

ومن المؤكد كذلك أن «الكرملين» لم يكن يستطيع أن ينتقد تيتو بحق لأنه لم يعمل فى قوة وسرعة على تنفيذ نظام الزراعة الجماعية فى يوجوسلافيا . فهذه الخطوة تتطلب نظاما كاملا معدا وعددا ضخما من المعدات الآلية كالجرارات وغيرها من الآلات الزراعيه ، وقد اضطر الثوار الروس أنفسهم إلى تأجيل الأخـذ بالنظام الجماعى فى الزراعة قرابة اثنى عشر عاما حتى شعروا بأنهم قادرون على تحطيم مقاومة الملايين

من أصحاب الأراضى الزراعية الخاصة . ولكن « الكرملين » كان يستنكر بشدة القرار الذى اتخذه تيتو من تلقاء نفسه بالمضى فى تنفيذ المشروع ببطء

ولا شك أن الكرملين لم يكن يستطيع المخاطرة بقبول وجود حزب شيوعى فى الخارج لا يكون أداة طيعة للسياسة الخارجية السوفيتية ، ويمكن أن تنضم إليه القوى الوطنية الأخرى فى البلقان أو شرق أوربا ، فتبدل هذا الوضع معناه المجازفة بإنشاء حلف يضم دول البلقان ولا يخضع لإشراف « الكرملين » المباشر ، وهو مركز آخر للقوى كان الاتحاد السوفيتى مصمما على الحيلولة دون قيامه .

ولذلك كان على موسكو إذن أن تحاول القضاء على تيتو وحكومته وأن تقيم حكومة « صورية » خاضعة لها وأن تمضى فى بذل جهودها لازالته من طريقها سواء عن طريق المناورات السياسية أو الضغط الاقتصادى أو الاغتيال .

فقد كان الشقاق بين تيتو من جانب و « الكرملين » ودول الكومنيفورم التابعة له من جانب آخر عميق الأثر ، وكان بمثابة ضربة أصابت القلب من الهدف الستالينى الذى يرمى إلى بسط النفوذ الروسى عن طريق استغلال السيطرة الشيوعية الكاملة على العالم الشيوعى . على أن موقف تيتو ازاء الغرب ، من ناحية أخرى ، لم يهن إلا قليلا على الرغم من تحديه للكرملين . فقد استمر يهاجم ديمقراطيات الغرب ويصفها بالرجعية والاستعمارية والدعوة للحرب . وليس من المرجح أن يحيد تيتو أو كبار معاونيه عن عقيدتهم الشيوعية . فإن الحزب الشيوعى اليوجوسلافى قد ظل يربط بين يوجوسلافيا وكتلة الدول التى يطلق عليها اسم الدول المناهضة للاستعمارية « أو الديمقراطيات الشعبية » . ولكننا على الرغم من كراهيتنا للديمقراطيات الشعبية (الشيوعية) ـ وما من شك فى أن نظام الحكم الذى يأخذ به

تيتو إنما هو نوع من هذه الديمراطيات الشيوعية ـ فإنه ليس من مصلحتنا أن نجعل موقفه اكثر صعوبة ، والواقع أننا يجب أن نفعل العكس ، فإنه إذا حدث فراغ فى الحكم فى يوجوسلافيا نتيجة لضعف تيتو بسبب التدهور الاقتصادى ، فإن هذا الفراغ سيملؤه نظام شيوعى خاضع تماما لموسكو .

وسياستنا تهدف إلى عمل كل ما يمكن لمساعدة دول العالم التى تستعبدها النظم الشيوعية على تحرير نفسها . وتريد الولايات المتحدة بلا شك أن يكون الشعب اليوجوسلافى حرا فى اختيار حكومته بمحض إرادته . وعلى الرغم من أن ذلك يستتبع القول أننا نعارض من حيث المبدأ استبدادية النظام الديكتاتورى الذى يرأسه تيتو ، فإن الأمر الواقع سيظل قائما وهو أن تيتو قد تحدى الكرملين وسياسته التوسعية التى تهدف إلى السيطرة على العالم ، وأنه دمر فى الوقت الحاضر على الأقل أسطورة عصمة ستالين وتنزهه عن الخطأ . وهو لا يشعر بأنه مدين لموسكو ، ويرفض أن يصبح أداة فى يد الاستعمارية السوفيتية . وفى الوقت الذى نجده ـ وهو مايبدو تناقضا ـ مخطئا فى اعتناق مبادى ستالين ، فإن « ستالينيته » يوجوسلافيه ، كما أن مركز قوميته فى بلغراد لا فى موسكو .

ولقد انتعشت آمال الاتجاهات الوطنية فى البلاد الخاضعة للنفوذ الشيوعى التى اضطرت احزابها الشيوعية إلى قبول سيطرة موسكو الحديدية بفضل النزعة الاستقلالية التى أبداها تيتو ، والتى نجحت حتى الآن ، ولكن موقفه لا يزال محفوفا بالمخاطر .فإنه لم يُبْدِ أية نية لتوسيع أساس سلطته فى يوجوسلافيا عن طريق المفاوضة مع العناصر غير الشيوعية فيها ؛ ولعله لن يستطيع أن يُقْدِم على مثل هذه الخطوة لأن تخليه عن سياسته الحاضرة التى تقوم على أساس تركيز السلطة كلها فى يد الحزب

الشيوعى قد يكون معناه بداية نهاية نظام حكمه .

ولا شك أن جماهير الشعب اليوجوسلافى قد تظاهر تيتو ضد موسكو والكومنيفورم ، ولكنها لن تظاهره ضد الغرب . وتيتو يعرف ذلك . ولكنه يشعر كما يشعر مساعدوه بنوع من التقدير الشخصى يفوق على الأرجح ولاءهم للدين الشيوعى . وهم غير مستعدين للتخلى عن سلطتهم كما أنهم يواجهون الآن الاختيار بين تعديل معتقداتهم أو التنحى جانبا ، أو القضاء عليهم نهائيا . ولقد بدأوا ازاء هذه المسائل الثلاث ، يسايرون التعقل فى إيمانهم بالمبادىء الشيوعية ويبتكرون مُثُلا جديدة .

وكثيرون من كبار انصار تيتو ليسوا من مفكرى الشيوعية أو أصحاب المثل العليا ولكنهم من المواطنين اليوجوسلافيين الأشداء الذين وصلوا إلى مراكزهم العظيمة فى الحركة اليوجوسلافية الشيوعية عن طريق القوة لاعن طريق النظريات ، وهم واقعيون ومن أولئك الذين يتعذر أن ينتظر منهم أن يواجهوا نهايتهم من أجل المبادىء الماركسية . وسيتبع ذلك حتما أن تدفع القوى السياسية والاقتصادية والمثل تيتو وحكومته بلا هوادة صوب الغرب . ويخيل لى أن هذه القوى يجب أن تلقى تشجيعا ، وأن تتاح لها فرصة القيام بدروها ، وهذا يتطلب زيادة تبادلنا التجارى مع يوجوسلافيا وإلا فإن الاتحاد السوفيتى ، بفعل الضغط الاقتصادى وحده سيحطم قوة المقاومة فى شعب يعانى الجوع والبرد ، يبلغ تعداده الآن ١٥ مليوناً من السكان ، ويحكمه تيتو ، ومعظم أفراده يكرهون النظام الشيوعى سواء أكان من موسكو أم يحمل الطابع المحلى . اننا يجب أن نشحن السفن بالبضائع ليوجوسلافيا ، وهو أمر لن يهدد سلامتنا القومية . ولكنه ذو أهمية حيوية بالنسبة للاقتصاد اليوجوسلافى بغير معاونة السوفيت .

ولقد سبب تحول تيتو للروس صدمة شديدة ، كما أحدث فى جميع أنحاء البلقان رد فعل لا يزال يستثير أعمال الكبت والضغط الدامية فى قسوة بالغة . ومهما يكن الأمر ، فإننى لا أستطيع إلا أن أشعر بأنه ما دام تيتو باقيا فإن الصعوبات التى ستعترض الاتحاد السوفيتى فى سبيل تشديد قبضته و إتمام حلقة سيطرته على دول وسط أوربا سوف تزداد. ففى هذه الدول شعور عميق قوى بالقومية و بعضها مثل تشيكوسلوفاكيا و بولندا لا تزال تذكر الحرية وتقارنها بالشيوعية الدولية التى تتطلب خضوعا كاملا لسيد الحزب ،وحتى دول وسط أوربا التى تسودها اتجاهات شعبية قوية نحو الشيوعية ستتطلع إلى تعديل نظم الشيوعية بحيث تتلاءم مع مقومات شخصيتها وهذا، بالطبع يتناقض مع سياسة « الحكم أو الدماء » التى يتبعها الكرملين . وحتى فى روسيا يوجد نزاع — و إن كان غير ذى مغزى كبير — بين القومية والدولية .

ولذلك فإن الحزب الشيوعى الروسى قد بدأ الآن عن طريق منظمة الكومينفورم فى عملية تطهير شاملة بعيدة المدى للتخلص من دعاة الفرقة والعناصر الخطرة . والهدف الرئيسى هو أن تخلق باسرع ما يمكن فى دول العالم السوفيتى نواة صلبة من أتباع الشيوعيين الذين يخلصون اخلاصا لا تشوبه شائبة للكرملين ، والذين يسيطرون سيطرة تامة على بلادهم ، والذين يمكن أن يكونوا موضع الثقة فى حالة نشوب حرب بين الاتحاد السوفيتى والغرب .

ولما كان موقف السوفيت فى دول الغرب قد ساء إلى حد كبير ، فقد أدرك الاتحاد السوفيتى أن عليه أن يستغل الوقت الثمين المتاح له فى تنظيم بيته و بيوت الدول التابعة له . ولا شك أن الكرملين يدرك تماما أن الشعور الشعبى لا يناصره بسبب الشعوب التى تعتز بقوميتها فى الدول الخاضعة للنفوذ السوفيتى . و إدراك الكرملين

لهذه الحقيقة ، بالاضافة إلى معرفة مدى الشعور القوى بالقومية الذى طالما ساد هذه الشعوب ، سواء فى مقاومتها للاتراك أم للتيوتون أم للحكم الروسى . هذان العاملان يزدوجان معا و يجعلان أى شعور بالقومية إذا ما كان متعارضا مع الاستعمارية الروسية خطيئة كبرى بين الشيوعيين . وهذا ما يجب أن يقضى عليه بأى ثمن فهو فى وقت الأزمات قد يصبح مرادفا لعدم الولاء للاتحاد السوفيتى .

---

obeikandl.com

الفصل العاشر

مؤتمر موسكو

.....

إن الحرب السوفيتية تهدف إلى : « المساواة بين الدول وتقرير حرمة أراضيها ، وتحرير الشعوب المستعبدة وإعادة حقوق السيادة المسلوبة منهم إليهم ؛ وتقرير حق كل دولة فى تنظيم حياتها وفقا لرغباتها ، وتقديم المساعدة الاقتصادية إلى الدول التى لحقت بها الاضرار ، وإحياء الحريات الديمقراطية والقضاء على النظام الهتلرى : »

ستالين : من خطاب له
فى ٦ نوفمبر عام ١٩٤٢

إننا عند ما نذكر مؤتمر وزراء الخارجية الذى عقد فى موسكو فى ١٠ مارس عام ١٩٤٧ إنما نذكره لما واجهه من فشل أكثر مما نذكره لما حققه من نجاح ؛ وأنا شخصيا أنظر إليه باعتباره « فشلا » مفيدا جدا . فإن اجتماع وزراء الخارجية هذا على الرغم من كل ما نجم عنه من أسباب الفشل ، قد أوضح بما لا يدع مجالا لأى سوء فهم موقف السوفيت إزاء المانيا والنمسا ، وهذا بدوره أدى إلى توحيد سياسات فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة إلى حد كان من المستحيل أن يتحقق لولا ذلك .

ففى بداية شهر يناير بدأنا استعداداتنا لاستقبال أعضاء وفدنا ولتسهيل عملهم . وبينما شغل القسم الادارى فى السفارة نفسه بمسائل تدبير المأوى والغذاء والمواصلات ،

أخذ المستشارون تسهيلا لمهمة وفدنا القادم يعدون تقريرات واحتمالات استمدوها من خبرتهم السابقة عن الاتجاه الذى ينبغى أن تسير فيه المحاولات والاساليب التى يجب أن تتوقع من جانب ممثلى السوفيت . ولقد تقرر بالفعل أن تكون المسألة الرئيسية هى ألمانيا ، ثم مستقبل أوربا .

وكنا نعتقد أن التجربة التى مررنا بها فى النمسا تدل دلالة كافية على الطريقة التى تستطيع الحكومة السوفيتية أن تقضى على تأثير أية حكومة مركزية مهما بلغت قوتها . وقد قدرنا أن الاتحاد السوفيتى سيسعى الآن للوصول إلى اتفاق مماثل لانشاء حكومة مركزية فى المانيا على أمل أن يتمكن من سلبها كل سلطة على نحو ما حدث فى النمسا . أما الهدف الذى كان يسعى إليه الكرملين ـ كما كنا نعتقد ـ فهو الحيلولة دون تعمير المناطق الغربية ومنع العمل على الاتحاد إلا إذا كان ذلك فى نطاق النظام الشيوعى ذى الحزب الواحد . وكنا نعتقد أيضا أن الروس يطالبون بالاستفادة من المميزات التى تعود عليهم بها الطريقة التى يفهم بها الانجليز والأمريكيون معنى الديمقراطية ليعملوا على انماء منظماتهم المشروعة والسرية فى المناطق القريبة ، وأن يستمروا فى نفس الوقت فى الحيلولة دون منح امتيازات مماثلة فى منطقة الاحتلال السوفيتية .

وكان واضحا أن التعويضات ستلعب دورا كبيرا فى المناقشات . ولو أن الاتحاد السوفيتى استطاع أن يكسب المعركة وأن يحصل على رقم أكبر للتعويضات التى يطالب بها لكان معنى ذلك أن تحل مشاكله الاقتصادية فى الداخل إلى حد كبير وأن يعوق نمو الجهاز الاقتصادى نموا سليما فى مناطق الغرب الثلاث بالمانيا . وكذلك كنا نرى الأمر من حيث ازدواج المغزى فيما يتعلق بمسألة « الروبل »

وأشرنا كذلك إلى رد الفعل الشديد الذى حدث فى موسكو وبين الأحزاب الشيوعية الاجنبية نتيجة للمشروعات البريطانية والامريكية التى تهدف إلى توحيد

منطقتى احتلالها فى المانيا اقتصاديا ، فقد انتقدت هـذه المشروعات باعتبارها مضادة للاتحاد السوفيتى ، وزعمت أنها تنطوى على خرق صريح لاتفاقية بوتسدام من شأنه أن ينمى نظام الاقطاع ويقضى على وحدة البلاد من الناحية السياسية والاقتصادية .

ومهما يكن الأمر فإننا كنا حتى الآن قد تعودنا تماما الأساليب السوفيتية التى تهدف إلى اتهام الآخرين بنفس الاخطاء التى يرتكبونها هم أنفسهم . ولهذا السبب كنا نشعر شعورا أكيدا بأن « الكرملين » سيمضى فى تشويه اتفاقية بوتسدام لكى يستخدم الشيوعيون ما يقتبسونه من فقراتها ضد الغرب ، وللاستعانة بها على تحقيق أهدافهم . وكان يبدو محتملا أن يتهمنا المندوبون السوفيت بمحاولة تجزئة ألمانيا إلى شطرين فى الوقت الذى تدل الحقيقة الواقعة على أن زيادة الانفصال بين شقى هـذا البلد إنما هو نتيجة لا يمكن اجتنابها للأساليب الاستبدادية والاقتصادية والسياسية التى تستخدمها الحكومة السوفيتية فى منظمة الاحتلال الروسية .

أما فيما يتعلق بالسياسة الأمريكية فى المستقبل ، فقد كانت وجهة نظرنا تتلخص فى أننا يجب أن نكون على استعداد ، إذا لزم الأمر ، للفصل بصفة مؤقتة بين مناطق الغرب والشرق ، فإن ذلك خير من أن نسلم باتحاد أجوف من شأنه أن يؤدى ببساطه تامة إلى تحقيق الأهداف السوفيتية بصفة عامة فى المانيا .

وكنا نشعر بأن الشىء الوحيد الصحيح الذى يجب أن نفعله هو أن نزيد وأن نؤيد بالقول والفعل كل القوى الديمقراطية الحقيقة التقدمية فى منطقتنا ، وأن نعمل بكل ما فى استطاعتنا على حمايتها من التسرب والفوضى التى تبثها الأداة الاستبدادية من الشرق . وقد أكدت الحاجة إلى المساعدة الفعلية والدفاع باعتبارها شيئا يختلف عن المساعدة الأدبية وطريقة الدفاع اللذين كنت أشعر بأنهما كل ما قدمناه حتى الآن .

وبسبب هذه المسائل الأساسية كان يبدو محتملا لنا أن مؤتمر موسكو سيكون عملا طويلا . لقد كان المؤتمر فى بلادهم وكان فى استطاعتهم أن يجدوا الصبر فضيلة محتملة ، ولكننى كنت أشعر بأننا يجب أن نكون مستعدين لمقابلة الصبر بالصبر مهما تكن نتيجة هذه المحاولة . وكنت آمل أن يحضر وفدنا إلى موسكو مستعدا لقضاء فترة غير محدودة فى المداولات التى ستجرى فى المؤتمر إذا تطلب الأمر ، وأن نتخذ التدابير اللازمة للمضى فى المداولات على أن يتولاها أحد بالنيابة عن مستر مارشال وزير الخارجية إذا اضطر الأخير إلى العودة إلى واشنطون لأى سبب هام .

أما بالنسبة لأعضاء الوفد الرسمى نفسه ، فلم تكن ثمة صعوبات خطيرة ، فعلى الرغم من أزمة المساكن التى تسود موسكو كلها ، فقد خصصت الحكومة السوفيتية أعظم فنادقها وهو فندق « موسكو » وعددا آخر من الفنادق الصغيرة ، وأخرجت منها نزلاءها نصف المقيمين والعابرين لكى تدبر أماكن لأعضاء الوفود الزائرة . وقد جددت هذه الفنادق تجديدا شاملا من أول دور منها إلى أعلا دور ، وامتدت حملة التجديد والصقل حتى شملت تخصيص ثياب جديدة للبوابين والخدم الذين كانوا يسلكون بحذر شديد نظرا لعدم اعتيادهم مثل هذا الترف . وكانت آخر هذه المظاهر أن أعد أسطول من سيارات التاكسى الفاخرة من ماركة « زيس » التى ظهرت فجأة فى صف طويل أمام فندق موسكو الذى كان يقع فى الناحية الأخرى من الميدان الذى يطل عليه مبنى سفارتنا . ولقد كان ذلك فى الواقع بالنسبة إلى سكان موسكو الذين كانت كل تجاربهم السابقة عن سيارات التاكسى قاصرة على سيارات النقل التى تتراوح حمولتها بين طن ، وطن ونصف ، والتى كتبت كلمة تاكسى على بوابتها الخلفية ، بمثابة بدء العصر الألفى السعيد .

ولقد قلت فيما بعد لمدير مصانع ستالين للسيارات اننى أعتقد أن سيارات « موسكوفيتش » أو « بوبيدا » الصغيرة اكثر صلاحية لأن تكون سيارات تاكسى من سيارات « زيس » الفاخرة التى تتطلب دقة كبيرة فى صناعتها ، فأجاب بأنه كان يرى ذلك أيضا ولكن « الرفيق ستالين كان يريد الأخرى » .

وكان فى استطاعتنا أن نكفل وسائل النوم فى « سبازو هاوس» ـ مبنى السفارة الأمريكية ـ لوزير الخارجية وحده واثنين أو ثلاثة من معاونيه ، ولكننا أعددنا الطعام لتقديمه فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ، منذ علمنا أن الاجتماعات ستكون طويلة وأن معظم المساعدين والسكرتيرين سيعملون حتى ساعة متأخرة من الليل . ومرة أخرى أصبحت صالة الحفلات ، كما كانت فى وقت الحرب مقرا لجيش من المختزلين وفرقة من الآلات الكاتبة التى لا غنى عنها . وتحولت حجرات الاستقبال والبلياردو والصالات إلى مكاتب ، ومكتبات لحفظ الوثائق . كما تحولت غرفة المائدة ومخزن الطعام إلى مقهى ومطعم يقدم فيه الطعام على صوان . ولقد كان ذلك جديرا بأن يبدو بالنسبة إلى معظم السفارات الأخرى فى جميع أنحاء العالم مهمة متعبة ، أما فى موسكو ، وبالنسبة للعزلة التى كنا نعيش فيها فقد كان الأمل فى زيارة طويلة للاصدقاء الجدد والقدماء القادمين من أرض الوطن شيئا جميلا مثيرا تهون من أجله كل المتاعب .

وكانت الصعوبة الوحيدة التى واجهتها خلال فترة الإعداد هذه متعلقة بعدد المراسلين الأمريكيين الذين سيسمح لهم بالحضور إلى موسكو لنقل أنباء المؤتمر . ولقد كنت حاضرا فى مؤتمر لندن الذى اتخذ فيه القرار الخاص بعقد مؤتمر وزراء الخارجية التالى فى موسكو .وفى ذلك الوقت أثيرت مسألةمندوبى الصحفوالرقابة على الأنباء،

وقد قال مولوتوف إذ ذاك إنه لن تفرض على مراسلى الصحف أية قيود . وقد فسر الأمريكيون وغيرهم ذلك بأنه يعنى أنه لن تفرض أية قيود على عدد المراسلين الذين يستطيعون حضور المؤتمر ، وأنه لن تفرض أيضا أية رقابة على ما يكتبون . ومن الطبيعى أن كل صحيفة فى الولايات المتحدة أرادت أن تستفيد من هذه الفرصة لتوفد مراسلا إلى موسكو . ولقد لاقى قسم الصحافة بوزارة الخارجية الأمريكية ـ فيما أعتقد ـ شيئا من الصعوبة فى خفض قائمة الصحفيين إلى مائة ،وقد تصاعدت صيحات الغضب والاستنكار والاتهام بنقض العهد عندما قررت وزارة الخارجية السوفيتية ألا يزيد عددهم على عشرين مندوبا ومذيعا من كل دولة ،و بدأ سيل البرقيات المرسلة من وزارة الخارجية والاحتجاجات المرسلة من الصحف ينهال على السفارة فذهبت إلى مقابلة مستر فيشنسكى لأرى ماذا يمكن عمله . ولكنه ـ بالطبع ـ لفت نظرى إلى أزمة المساكن ، ولقد كنت اتوقع ذلك ، كما كنت أعرف أنها حجة صحيحة ، ولكننى كنت على يقين من أنها لم تكن السبب الوحيد،فقد كان « الكرملين »، ينظر إلى مراسلى الصحف والاذاعة باعتبارهم جواسيس ، أو على الأقل « مراقبين غير مرغوب فيهم » ، ستتاح لهم فرصة العمل بحرية ، نظرا لظرف الحرية غير العادية التى كان يجب أن تسود جو المؤتمر .

على أننى دهشت إلى حد ما عندما شفع مستر فيشنسكى حجته الخاصة بأزمة المساكن بقوله : « ويجب أن تدرك أن هؤلاء الناس الذين أخرجناهم من الفنادق ليسوا من طبقة أصحاب الحوانيت ؟ » . وفى استطاعة القارئ أن يتصور دهشتى عندما أسمع مثل هذه الملاحظة من أحد زعماء المجتمع الذى يزعم أنه لا يعرف الطبقات .

وعندما أفقت من هذه الصدمة ، قدمت إليه فى حذر الخطة التى رسمتها لتوفير بعض الأماكن ، فقلت لمستر فيشنسكى إننا لكى نتيح الفرصة لعدد كاف من الصحفيين

الأمريكيين سنخفض عدد أعضاء الوفد الرسميين من مائة إلى أربعة وثمانين ، وأن ذلك سيوفر ست عشرة حجرة فى الفنادق ، كما أننا سنجعل مقر عمل وفدنا فى السفارة ، و بذلك نوفر خمس حجرات أخرى لهذا العرض (ولقد كان ذلك سهلا ، فلم يكن فى نيتنا أن نعرض للخطر سرية مداولاتنا الخاصة بعقد الاجتماعات فى فندق سوفيتى .)

وقلت له أيضا: إننا سنفرد مكانا لإقامة وزير الخارجية وثلاثة آخرين فى «سبازو هاوس » . وأن المراسلين يستطيعون أن يقيموا معا كل اثنين فى حجرة .

وفى أدب جم استمر فيشنسكى متمسكا بموقفه وهو لا يفتأ يوافق بعد تردد وعلى كره منه ، على السماح بدخول مراسل آخر .. ثم ثان .. ويقضى وقتا طويلا فى كل مرة ، حتى استطعت أن أحصل منه على موافقة بدخول ١٦ مراسلا آخرين ، الأمر الذى سُرَّت له وزارة الخارجية الأمريكية . وكان معظم المراسلين الستة والثلاثين الذان يمثلون الاذاعة والصحف من أقدر وأعظم ممثلى الصحف والاذاعة، وقد استطاعوا أن يقوموا بواجبهم فى وصف أعمال مؤتمر وموسكو خير قيام فى هذه الفترة القصيرة التى أمضوها بلا رقابة .

وفى يوم ٨ مارس بدأ أعضاء الوفود يصلون . وقد قدم مستر بيفن ومسيو بيدو ، اللذان كنت أعرفهما بالقطار . وقد قابلت كلا منهما فى المحطة، كما قابلت جميع رؤساء الوفود الأخرى الموفدة إلى موسكو ، فقد جرى العرف الدبلوماسى على استقبال وزراء الخارجية ورؤساء الدول الكبرى أثناء زياراتهم الرسمية لاحدى العواصم الأجنبية .

ووصل وزير الخارجية جورج مارشال الطائرة فى ٩ مارس . وقد دخلت الطائرة الضخمة من طراز (س ـ ٥٤) إلى مطار موسكو الأوسط فى الساعة الثالثة والنصف

مساء وكانت الريح باردة والشمس مشرقة كالعهد بها فى كل يوم من أيام الربيع الروسية . وكان الجنرال مارشال يبدو فى حالة طيبة ، وقد أحدثت شخصيته الهادئة تأثيرا سريعا فى نفوس مستر فيشنسكى وسفراء الدول الأجنبية عندما قدمته إليهم . ولقد قضى رجال السلك السياسى فى موسكو بعض الوقت وهم يتساءلون عن الطريقة التى سيتمكن بها وزير الخارجية ـ الذى ليست له خبرة سابقة بالمؤتمرات الدولية ـ من مواجهة من أسماهم أحد هؤلاء الديبلوماسيين «هذه العصبة من تجار الحوانيت الأشداء فى الشرق الأوسط . »

على أننى لم تخالجنى أية ريبة . فقد رأيت الجنرال مارشال فى جميع المواقف الحرجة التى يسودها التوتر ولم أره أبدا يفشل فى السيطرة على أى اجتماع بفضل القوة التى يستمدها من سلامة موقفه ونزاهته المطلقة و بساطته الاخاذة .. زد على ذلك أنه قضى سنى خدمته كلها فى التحضير لاعمال المفاوضات العليا . وكنت أعلم أنه لن يقول إلا القليل حتى يصبح مالكا لزمام الموقف متمكنا من الحقائق كما كنت على ثقة من أنه لن يخطىء . وهو يستطيع أن يلوذ بالصبر إذا تطلب الأمر ، كما أنه لم يكن ممن يسمحون لأى شخص بأن يتجاسر عليه .

ولقد حد من سرورى برؤيته ما أبداه من عدم الاعجاب الواضح بقبعتى الرسمية الديبلوماسية ، التى اشتريتها من باريس على عجل وفى لحظة ضيقة عندما وجدت أننى لا أستطيع تحويل العملة الفرنسية الزائدة إلى دولارات ، والتى ارتديتها لأول مرة تكريما له ، على أننى عندما رأيتها فيما بعد فى إحدى الصور التى نشرت لنا أدركت رد الفعل الذى أحدثته فى نفسه .

وفى صباح اليوم التالى ١٠ مارس افتتح المؤتمر فى قاعة « صناعة الطائرات »

وهى تحتل مبنى جميلا يقع فى نفس المكان الذى كان يحتله من قبل أيام القيصرية مطعم « يار » الشهير .

وقد خُلدت ذكرى هذا الأثر الذى كان يرتاده شباب الأثرياء المتهورون من أبناء الأشراف بأغنية روسية قديمة جاء فيها :

أيتها الحبيبة لا تذهبى إلى البار
ولا تلقى بمالك عبثا
خير لك أن تشترى قيثارا
وتعزفى عليه طول اليوم

وبادخال تعديلات بسيطة على هذه الأغنية أعتقد أنها يمكن أن تصلح شعارا أيضا للجلسات الأربع والأربعين المملة الطويلة التى عقدت فيما بعد .

ولقد كان أول أعمال المؤتمر حاسما إلى حد كبير فقد وضع حدا لتاريخ الدولة البروسية الذى يتميز بالوحشية الدولية بوضع اتفاق بين وزراء الخارجية الأربعة يقضى باستئصال شأفة الروح العسكرية الألمانية . وقد تم ذلك بسرعة تركت معظمنا مبهورى الأنفاس ، حتى لقد كتب «درو ميدلتون» مراسل صحيفة «نيويورك تايمس» فى ذلك الحين ساخرا يقول : « إن هذا المحو الذى تم فى دقيقة واحدة لدولة دامت سنوات طويلة تهدد أوربا الوسطى، يبدو أنه فأل طيب لمؤتمر الدول التى ظلت تضرب الرايخ الثالث حتى ركع على ركبتيه . »

وقد جدد مستر مارشال وزير الخارجية الأمريكية الاقتراح الأمريكى لعقد معاهدة رباعية لمدة أربعين عاما لحماية العالم من أى عدوان ألمانى . وكان مستر بيرنز وزير الخارجية السابق قد اقترح توقيع هذه المعاهدة ـ من قبل ـ فى باريس فى يوليه عام ١٩٤٦ . وعلى الرغم من أن مستر مولوتوف لم يرفض هذا الاقتراح رفضا

قاطعا فإنه قد عارض فيه باعتبار أنه غير صالح . ولقد كان من الواجب أن يُختَبر مدى إخلاص الحكومة السوفيتية فى هذا الصدد . وإذا كان مولوتوف قد استطاع أن يتحاشى الأمر فى باريس ، فإنه رفض الاقتراح فى موسكو عندما تبين أنه لم يكن ثمة سبيل لتحاشى الأمر أكثر من ذلك .

ومضت ستة أسابيع كان المجلس خلالها يبحث كل يوم فى جلساته الطويلة المملة الرسمية وغير الرسمية المسائل الكبرى التالية :

كيف يمكن تحقيق الوحدة الاقتصادية فى ألمانيا .

نوع الحكومة المؤقتة فى ألمانيا وحدود الدولة الألمانية .

ما إذا كان للاتحاد السوفيتى أن يفوز بمطالبه من التعويضات من الانتاج الحالى لسداد ما يطلبه من تعويضات شاملة من ألمانيا تصل قيمتها إلى عشرة بلايين من الدولارات .

المدى الذى يمكن أن تخفض إليه قوات الاحتلال فى ألمانيا .

ما هى الدول التى ستشترك فى مؤتمر الصلح الذى سيضع معاهدة الصلح مع ألمانيا .

تحديد « الممتلكات الألمانية » فى النمسا ، وهى مسألة هامة ستحدد قيمة الممتلكات التى ستظل فى حوزة الاتحاد السوفيتى فى شرق النمسا .

مطالبة يوجوسلافيا بجزء من الأراضى النمسوية فى مقاطعة كارنيتا .

وفى الوقت الذى أمكن فيه أن يصل الطرفان إلى الاتفاق على بعض المسائل غير الهامة التى طرحت على بساط البحث بين وزراء الخارجية ونوابهم ، فإن اتفاقا جوهريا واحدا لم يتم حول أى مسألة من المسائل الكبرى .

ولعل مما يوضح الطريقة التى كانت تسير بها الأمور ، هـذا الحديث الذى جرى فى يوم ٢٨ مارس ـ فى الاجتماع السادس عشر ـ بين مستر بيفن ومسيو بيدو

تساءل مستر بيفن قائلا : « أين نحن ؟ » .

فاجاب مسيو بيدو : « الله يعلم . »

فقال مستر بيفن : « اننى لم أكن أعرف أن السيد بيدو عضو فى مجلس وزراء الخارجية » ! !

وفى ٧ أبريل بعد أن ظل المجلس مجتمعا شهرا كاملا تقريبا لخص مستر بيفن ما قام به المجلس فى قوله : « لا يبدو أن هناك اتفاقا على أى شىء » .

وبعد بضع لحظات ، وبينما كان الوزراء يتناقشون حول لائحة الاجراءات وأى المسائل يجب أن تُقدم على الآخرى فى جدول أعمال اليوم التالى صرح وزير الخارجية البريطانية الذى ضاق ذرعا بالموقف ، بعد أن ظل المؤتمر منعقدا لمدة أربعة أسابيع دون أن يصل إلى شىء قائلا : « اننى غير مهتم بأية مسألة قد تناقشونها غدا . »

ولقد أمكن ، بفضل إزالة قيود الرقابة ووجود عدد كبير من مندوبى الصحف أن ترسل أنباء مؤتمر وزراء الخارجية وأن يوصف المؤتمر خيرا من أى حدث مثير آخر من الأحداث التى وقعت فى موسكو إبان وجودى فيها . فلقد كان أعضاء الوفد الأمريكى وأعضاء الوفود الأخرى يلخصون لمندوبى الصحف التطورات التى حدثت فى كل اجتماع باستثناء الجلسات السرية القليلة أو غير الرسمية التى كانت تصدر عنها بلاغات مقتضبة لاتتضمن أية معلومات .

ولقد كانت تقع حوادث ذات مغزى من وراء الستار ، وكانت هذه الحوادث توضح بجلاء الصدام القائم بين السياسات المختلفة ، واتجاهات التفكير وأساليب التضليل والخداع المتزايدة التى اتسم بها المؤتمر الذى وصفه وزير الخارجية البريطانية

(حينذاك) ارنست بيفن بأنه ربما كان أهم اجتماع عقده مجلس وزراء الخارجية . وقد وقعت إحدى هذه الحوادث فى « سبازو هاوس » أثناء مأدبة العشاء الرسمية التى أقامها مستر مارشال لأعضاء الوفود .

وكان المؤتمر قد وصل إلى المرحلة الأخيرة فى سلسلة من المناقشات التى دارت حول النظام الذى يتبع فى السار ، وهى منطقة حيوية بالنسبة للصناعة الفرنسية إذ أنها مصدر رئيسى لتزويد فرنسا بالفحم . وكان مسيو بيدو قد اقترح فصل السار عن المانيا وانشاء اتحاد اقتصادى ونقدى بينه و بين فرنسا باعتبار ذلك خير وسيلة لتنظيم العلاقات المستقبلة بين المنطقتين . وانتهت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة بعد عدة مناقشات وعدة تعديلات إلى تأييد الاقتراح الفرنسى ، ولكن مولوتوف ظل يلعب به عدة أيام كما يلعب القط بالفأر ، وعلى الرغم من تعرضه للضغط ، فإنه لم يتخذ قط موقفا لا مع فرنسا ولا ضدها . ولقد كان من الواضح أنه كان يحاول أن يحتفظ برده لاتخاذه وسيلة للمساومة بغية الحصول على موافقة فرنسا على اشتراك السوفيت فى ادارة الرور وهى المركز الصناعى العظيم فى المانيا . ولا شك أن الاغراء كان شديدا بالنسبة إلى مسيو بيدو ، فإن مستقبل السار كان مسألة ذات أهمية حيوية بالنسبة إلى كل فرنسى . وأخيرا وفى يوم ١٠ أبريل أصر مسيو بيدو على الحصول على قرار . وأعلن مستر بيفن ومستر مارشال أنهما يقبلان الاقتراح وواجه مسيو مولوتوف الموقف بأن طلب الاجابة على المقترحات السوفيتية الخاصة بالرور . فقال مسيو بيدو: إنه على استعداد لبحث مسألة الرور ولكنه قال : إن مسألة السار معروضة الآن على المجلس وأنه قد طلب اتخاذ قرار فى هذا الصدد . ورد مولوتوف فى برود قائلا إنه ليست لدية أية أقوال أخرى . وكان ذلك بمثابة رفض للمقترحات الفرنسية ، إذ أن القرارات التى لا تحصل

على إجماع الآراء تعد فى حكم المرفوضة ، ولقد شعر أعضاء الوفد الفرنسى بمرارة الهزيمة التى لحقت بهم من جراء هذا الرفض .

وفى أثناء مأدبة العشاء التى أقيمت فى تلك الليلة ، لم يأكل مسيو بيدو شيئا . وعلى الرغم من أنه اشترك فى الحديث العام الذى جرى ، وحرص على أن يكون مجاملا كما حاول السيطرة على أعصابه ، فقد كان من الواضح أنه مازال متأثرا من الفشل الذى أصابه بعد ظهر ذلك اليوم .. وعندما جاء دوره ليقترح نخبا لم يفعل كما فعل الآخرون بابداء الملاحظات التقليدية عن الصداقة والمستقبل بل رفع كأسه وقال فى لهجة ملتوية إنه يشرب نخب : « أولئك الذين يحبون الحرية بيننا هنا » ولما كان كل من مولوتوف وفيشنسكى يعرفان رأى السياسى الفرنسى فى الحرية كما تصورها المبادىء السوفيتية ، فإن استثناءهما من النخب كان واضحا لا يخطئه الفهم .

ولقد كانت تقع كل يوم مآسى وكوميديات صغيرة بين أعضاء وفدنا . فإن أعضاءه كانو يعملون ست عشرة ساعة وثمانى عشرة ساعة كل يوم . وكانوا يشعرون شعورا دقيقا بعوامل الفشل التى تسود المؤتمر ، فكانت أعصابهم متوترة . وكانوا يفقدون السيطرة على أعصابهم أثناء المناقشات وأثناء الجلسات التى تعقد لتسجيل ما تم الاتفاق عليه . ولقد كنت أبذل آخر ما فى وسعى لصب الزيت على المياة المضطربة ، ولكن مسز سميث (زوجتى) هى التى كانت تقوم بالنصيب الأكبر فى تسوية « الريش المضطرب » والتأكد من أن « صوانى » الطعام الساخن قد وصلت إلى أولئك الذين لا يستطيعون أو لا يريدون أن يتركوا مكاتبهم ليحضروا إلى قاعة الطعام لتناول الغذاء مع زملائهم .

وليس ذلك لأن الاتفاق كان سهلا ، حتى على المسائل التى كان جميع الأمريكيين — بصفة عامة — على اتفاق تام بشأنها ، فلقد قضى كبار مستشارى الوفد جميعا — فى

ـ إحـدى المرات ـ ست ساعات لـكى يتفقوا على الـكلمات التى تحـدد معنى « الديمقراطية » . ولقد كان من أهم مصادر المتاعب التى كنا نلقاها فى التعامل مع الاتحاد السوفيتى فيما مضى اننا كنا نفترض أن كلمة « الديمقراطية » تعنى عند روسيا نفس الشىء الذى تعنيه بالنسبة لنا ، ولـكن الأمر كان جد مختلف . فقد كتب لينين الـكثير عن الديمقراطية .

وفى « مجموعة أعماله » نص على أن « الديمقراطية هى الحالة التى تعترف بخضوع الأقلية للأكثرية . أى أنها نظام يستخدم فيه العنف بنظام من جانب احدى الطبقات ضد طبقة أخرى ، ومن جانب فريق من الشعب ضد فريق آخر . »

ولقد كان الوقت قد حان لـكى يسجل هذا الخلاف الجوهرى الذى يبدو بعيداً عن اسس الاتفاق بين المبادىء الشيوعية والمبادىء التى ندين بها ، فإن حديث الـكرملين المزدوج عن الديمقراطية والحـكومات الديمقراطية عند تفسير الاتفاقيات الثلاث الـكبرى السابقه قد سبب الـكثير من الاضطراب .

ولقد كان البيان الذى القاه مستر جو رج مارشال وزير الخارجية ، والذى راجع عبارته بنفسه وحدد فيه معنى الديمقراطية كما يفهمه الأمريكيون أصرح بيان ألقاه فى روسيا على الاطلاق عن حقوق الانسان .

فقد قال إن حكومة الولايات المتحدة وشعبها يفهمون كلمة « الديمقراطية » باعتبار أنها تحـدد حقوقا ثابتة معينة لا يمـكن أن تعطى أو تؤخذ .. هـذه الحقوق تشمل « حق كل فرد فى أن يتيح لعقله أسبـاب التطور التى يختارها بنفسه متحررا من الخوف أو الضغط بشرط ألا يتدخل فى حقوق الآخرين » .

وقال وزير الخارجية أيضا : « وبالنسبة لنا لا يعد المجتمع ديمقراطيا إذا كان الأشخاص الذين يحترمون حقوق مواطنيهم ليسوا أحرارا فى ابداء معتقداتهم وآرائهم

دون ما خوف من أن يُنتزعوا من بيوتهم وأسراتهم — وبالنسبة لنا لا يكون المجتمع حرا إذا كان المواطنون الذين يخضعون للقانون يعيشون فى ظل الخوف من أن يُنكر عليهم حق العمل أو أن يُحرموا من الحياة أو الحرية أو البحث عن السعادة . »

ولقد ظللت اتساءل عندما توجهت إلى الكرملين مع الجنرال مارشال ومستر بوهلين فى مساء يوم ١٥ ابريل عما إذا كان ستالين قد قرأ تفاصيل الاجتماع الذى حدد فيه مستر مارشال الديمقراطية كما يراها . وكان الجنرال مارشال قد أرجأ عامدا طلب الاجتماع بستالين حتى تتحدد اتجاهات المؤتمر . ولما كان قد أصبح واضحا الآن أنه لا الوقت مهما طال ولا الطاقة مهما بذلت يكفيان لتزويد المؤتمر بأساس حقيقى للاتفاق فيما يتعلق بألمانيا ، فإن الوقت كان يبدو مناسبا لكى يوضح لستالين موقف الولايات المتحدة واستعدادها للتعاون وعزمها على ألا ترغم على أمر ما .

وكان كل من مستر بيفن ومسيو بيدو قد زارا بالفعل المارشال ستالين من قبل. ولم يكن فى الامكان أن تؤجل زيارة مستر مارشال له أكثر من ذلك دون أن يعد ذلك قلة ذوق .

وقد كان جو الاجتماع مشابها للجو الذى كان يسود اجتماعى الأول بالرفيق ستالين . فقد كان يصحبه مولوتوف وترويا فونسكى المترجم الشاب الذى يعمل بوزارة الخارجية . وعندما تبعنا أنا وبوهلين والجنرال مارشال إلى قاعة الاجتماعات الملحقة بمكتب ستالين الخاص ، حيا ستالين مستر مارشال بطريقة ودية وتحدث إلى بوهلين وإلىّ ثم اتخذ مجلسه المعتاد عند نهاية مائدة الاجتماعات وجلس مستر مولوتوف إلى يمينه وترويا فونسكى إلى يساره ، وتولى بوهلين وهو أحد خبرائنا البارزين فى الشئون الروسية وممن يجيدون اللغة الروسيه اجادة تامة الترجمة للجنرال مارشال الذى استعرض فى لهجة هادئة ولكنها قوية المشاكل التى أثارت قلقنا منذ مؤتمر

بوتسدام . وأضاف مستر مارشال إلى ذلك أن المفاوضات الحاضرة التى تقدم بها لا تتعلق عليها سلامة أوربا والعالم فحسب بل وانتعاش أوربا ومجدها أيضا ، وانه بينما تهدف البعثة الأمريكية الموفدة إلى موسكو إلى مهمة خاصة هى البحث فى شروط عقد معاهدة طويلة الأجل ، فإننا نواجه مسائل عاجلة تتعلق إلى درجة حيوية بشعب أوربا الذى يعانى مرارة الفقر والآلام .

وكان ستالين يصغى دون أن تبدو على وجهه دلائل التأثر ، بينما كان وزير الخارجية الأمريكية يستعرض الحالة السيئة التى انتهت إليها العلاقات بين الشرق والغرب ، والنتائج الفظيعة التى قد تحمل نذرها السيئة إلى العالم اجمع .. وكان ستالين من حين إلى حين ينفث دخان سيجارته الروسية أو يعبث ـ بقلم أزرق كان يحمله فى يده ـ فى الأوراق المتناثرة أمامه . ولم يعلق طوال الوقت بكلمة واحدة ، ولم يقاطع الجنرال مارشال وهو يتحدث ، ولكنه تبادل مع مولوتوف نظرة سريعة ثم همس فى أذنه بكلمات عندما أشار الجنرال مارشال إلى تلكؤ الاتحاد السوفيتى أو إهماله الرد على استفساراتنا الخاصة بتسوية مشروع الإعارة والتأجير أو غير ذلك من المسائل الهامة.

وعندما فرغ المستر مارشال من الادلاء بملحوظاته بدأ ستالين يتحدث فى لهجة هادئة ودية .

قال : « انه من الخطأ أن تعزى إلى خلافاتنا الحاضرة مثل هذه النتائج الخطيرة.

وقال إنه ينظر إلى الخلافات القائمة بيننا كما ينظر إلى الخلافات التى تحدث فى محيط الاسرة . أما فيما يتعلق بالمؤتمر الحالى ومشكلة المانيا فقد قال إن الخلافات التى حدثت ليست إلا المناوشات الاولى وأعمال الاستطلاع التى تقوم بها القوات الاستطلاعية » فى هذه المسألة .

وقال أيضا إنه حدثت خلافات فى الماضى حول مسائل أخرى وأنه ثمة قاعدة

هى أن الناس عندما يجهدون أنفسهم فى النزاع لا يلبثون أن يتبينوا مدى الحاجة إلى الاتفاق .

وقال إنه يحتمل أن يُحقق نصر كبير فى الاجتماع الحالى وأنه يعتقد أن الاتفاق ممكن على كل المسائل الكبرى بما فيها نزع السلاح من ألمانيا ، وتقرير مستقبلها السياسى والتعويضات وتحقيق وحدتها الاقتصادية . ثم قال إنه من الضرورى أن نتذرع بالصبر وألا نكون متشائمين .

واستطرد قائلا : « أما فيما يتعلق بتأخر الحكومة السوفيتية فى الرد على مذكراتكم عن المسائل المختلفة ، فإننى أود أن يذكر مستر مارشال بأنه منذ أكثر من سنتين قدمت الحكومة السوفيتية طلبا لعقد قرض مالى من الولايات المتحدة ، وأنها حتى هذا التاريخ لم تتلق أى رد أو إفادة من جانبكم . »

وعند هذه النقطة رأيت من الأوفق أن أدس أمام مستر مولوتوف مذكرة أذكره بها بأننى عندما قدمت إلى موسكو قد أحضرت معى الرد على هذا الطلب. وقد همس مستر مولوتوف فى أذن ستالين بهذه الملاحظة وتلقى منه نظرة « عائلية » خاصة . ولم يلبث ستالين أن صحح بيانه ، ولكنه قال إن تأخير سنة كاملة يبدو فى نظره تأخيرا كبيرا .

ومن المؤكد أن ستالين كان على حق فى هذا الصدد ولكننى أشك فى أنه قَبِلَ التفسير الحقيقى على الرغم من أنه قد يبدو شيئا لا يمكن أن يصدق ، فقد فُقِدت الرسالة السوفيتية فى وشنطون على نحو لم يُعرف بعد ، وكان هذا هو السبب فى أن الرد عليها لم يرسل سريعا .

وعندما نهض وزير الخارجية ليغادر قاعة الاجتماع تطلعت إلى ساعتى. فأدركت

أن تبادل وجهات النظر استغرق ٨٨ دقيقة . وكنت أشعر أننا لم نصل إلى شيء فقد سمعت من قبل تأكيدات مماثلة من ستالين ، وقد أصبحت أشك فى صحتها . فهناك مثل روسى قديم يقول : « إن ما تفعله يتحدث بصوت عال يجعلنى لا أستطيع أن أسمعك » ويبدو أن الروس كانوا يؤكدون معنى هذا المثل لنا .

ولم يكن فى مسلك الوفد السوفيتى فى الجلسات التالية للمؤتمر ما يدل على صحة تأكيدات المارشال ستالين .

وفيما يتعلق بالمسألة الهامة الخاصة بتوحيد ألمانيا اقتصاديا كان الاتفاق قد تم بالفعل من حيث المبدأ على هذه المسألة فى مؤتمر بوتسدام . ولكن خلافات واسعة دقيقة لم تلبث أن نشأت عندما بُدىء فى وضع الشروط الفعلية لتحقيق هذا الاتحاد . فقد رفض الوفد الروسى الذى كان أعضاؤه يؤكدون بأفواههم أنهم يعملون على تحقيق هذا المبدأ ـ رفضوا أن يدلوا بأية تعليمات عما يمكن إنتاجه من المواد الغذائية فى منطقة الاحتلال السوفيتية (التى ظلت طويلا بمثابة مخزن الغلال بالنسبة إلى ألمانيا) ، كما رفضوا أن يدلوا بأية معلومات حقيقية عن مقدار التعويضات التى حصلوا عليها من ألمانيا .. وفى الوقت الذى ظلوا فيه يحملون بعنف على تحقيق الاتحاد الاقتصادى بين منطقتى الاحتلال البريطانية والأمريكية باعتبار أنه يعد نقضا لاتفاقية بوتسدام ، وخطوة لتمزيق ألمانيا ، كانت السلطات السوفيتية ترفض باستمرار أى تعديل فى النظام الذى تدار به منطقة الاحتلال السوفيتية باعتبارها وحدة اقتصادية منفصلة دون ما اعتبار لاقتصاديات المناطق الثلاث الأخرى . وكان من الواضح أن الاتحاد السوفيتى يرفض تقديم أية امتيازات حتى فيما يتعلق بالورق ما لم توافق دول الغرب على أن تشترك روسيا فى الإشراف على الروزز .. ومثل هذه الموافقة ، من شأنها بالطبع

أن تجعل الكرملين فى موقف يساعده على تحطيم الأداة الاقتصادية فى ألمانيا كلها فى أى وقت يشاء .

وقد ظل مولوتوف صلباً فى معارضته لإنشاء أى نوع من الحكومات فى ألمانيا إلا أن تكون حكومة تكفل السيطرة الكاملة المركزية من ألمانيا كلها . وهذه المسألة الخاصة بمدى المركزية التى يجب أن تتمتع بها الحكومة الألمانية المستقبلة ذات أهمية كبرى ، فإن الافراط فى تركيز السلطة أمر خطر فى دولة كألمانيا ليس لها تقاليد قديمة فيما يتعلق بحقوق الأفراد والجماعة فى الإشراف على ممارسة السلطات الحكومية . كما أن الحكومة ذات السلطة المركزية المحكمة تكون أكثر عرضة للتسرب والهجوم والاستيلاء عليها من جانب أية أقلية سياسية لا تعرف المهادنة ولا تخضع للقانون .

وقد كان حلفاء الغرب يؤيدون قيام حكومة مركزية تتمتع بسلطات تتحدد بعناية ولا تتجاوز نطاقا معينا ، على أن تُترك بقية السلطات للولايات المتعددة . وقد ذهبت فرنسا إلى حد أبعد مما ذهبت إليه بريطانيا وأمريكا فى رغبتها الحد من المسئوليات الملقاة على عاتق الحكومة المركزية ، ولكن الدول الثلاث كانت متفقة من حيث المبدأ .

ومن الواضح أنه لم يكن فى الإمكان أن تنشأ الحكومة الألمانية قبل أن تعين حدود المنطقة التى ستتولى الحكم فيها . وهنا أيضا نشأ الخلاف صريحا بين الطرفين . فإنه عندما اجتاحت الجيوش السوفيتية شرق ألمانيا ، فر ملايين من الألمان إلى غرب نهر الأودر ، واحلوا المنطقة إلى حد كبير . وعمل الروس على نقل البولنديين إلى المنطقة . وفى مؤتمر بوتسدام قبل الرئيس ترومان هذا الوضع

باعتباره وضعا مؤقتا ، وقد اتفق هناك على أن « رؤساء الحكومات يؤكدون اعتقادهم أن التحديد النهائى للحدود الغربية لبولندا يجب أن يرجأ حتى توقع اتفاقية الصلح . »

وقد أصر مولوتوف على تجاهل هذا الاتفاق على الرغم من أنه كان دائم الرجوع إلى الاتفاقيات الأخرى التى وقعت فى بوتسدام وهى التى اتهمنا بنقضها . وقد احتج بقوله إن اتفاقا نهائيا على تعيين الحدود بين ألمانيا و بولندا قد تم فى بوتسدام وأن التصريح الذى ذكرته آنفا لا يعنى إلا أن اقرار الوضع النهائى للحدود التى تم الاتفاق عليها قدأرجىء إلى حين الاتفاق على معاهدة الصلح و بعد مناقشة النواحى الفنية المتعلقة بها فحسب .

ولم تكن ثمة أية حقيقة أو منطق أوقول معقول يؤيد هذا الموقف اللهم إلا تلك العبارات التقليدية التى درج السوفيت على استعمالها والتى تكاد تبعث على الجنون ومنها مثلا : « انه من المعروف . » أو « كما هو معروف بصفة عامة . » . واننى لعلى ثقة من أنه ما من رجل من رجال الحكم أو الساسة ممن اتصلوا بالروس إلا وقد اضطر فى مرة أو غيرها إلى الجلوس فى صمت ، وعوامل الحنق تضطرم فى أعماقه وهو يستمع إلى مندوبى السوفيت وهم يرددون احدى تلك العبارات المثيرة ليؤيدوا اقتراحا زائفا متهافتا لا يمكن أن يقوم على قدميه . وقد استُخدمت هذه العبارات فى إفراط يفوق كل ما عرضت له من قبل أثناء تجاربى الطويلة معهم ، وكنت دائم التفكير فيما اورده بنجامين فرانكلين من الصفات التى يجب أن تتوفر فى الديبلوماسى : « أسلوب حذر ، وهدوء لا يتأثر وصبر لا تهزه أية حماقة أو استفزاز أو أخطاء » .

وكانت مسألة الحصول على التعويضات من الانتاج الألمانى الحالى نقطة شائكة أخرى . فقد اجتمع المؤتمرون فى بوتسدام . . وكان نصب أعينهم الدرس القاسى الذى لقنتهم اياه معاهده فرساى فى عام ١٩١٩ واتفقوا على مبدأ الحصول على التعويضات من رءوس الأموال الثابتة أى بنقل أو بأزالة آلات المصانع الألمانية وأموالهم إلى دول الحلفاء صاحبة التعويضات . وقد أبدى الاتحاد السوفيتى ترحيبه بهذه الفكرة فى ذلك الوقت . فقد كان نقل آلات الصناعة الألمانية الحديثة الرائعة إلى الاتحاد السوفيتى كفيلا بأن يدخل تحسينا عظيما على الأداة الاقتصادية السوفيتية .

ولكن المفاوضين السوفييت ، فى موسكو ، أنكروا إنكارا صريحا أنهم وافقوا على ذلك وطالبوا بأن تكون التعويضات من الانتاج الألمانى فحسب ، وأنا أعرف لماذا فعلوا ذلك . فإن الوسائل المدمرة المجردة عن الخبرة التى استخدمها الجيش السوفيتى فى فك أجزاء الآلات بالمصانع الألمانية قد سببت خسائر جسيمة ، وأثبتت لهم تعذر إعادة تركيب هذه المصانع فى الاتحاد السوفيتى .

وقد ذكر الأجانب الذين سافروا بالقطار من برلين إلى موسكو إنهم شاهدوا فى كل مخزن من مخازن السكك الحديدية وعند كل ملتقيات الطرق عددا ضخما من الآلات الألمانية التى فسد معظمها من جراء التعرض للأمطار والثلوج . ومن هنا راح مولوتوف يطالب بالحصول على عشرة ملايين من الدولارات هى قيمة التعويضات الروسية المطلوبة ، من انتاج المصانع الألمانية (وقد رفض أن يدلى بأية بيانات عن قيمة ما حصلت عليه روسيا بالفعل من ألمانيا) . ومعنى ذلك أن نسبة كبيرة من الانتاج اليومى لجميع المصانع الألمانية سيخصص لسداد التعويضات المستحقة للاتحاد السوفيتى وحده خلال فترة طويلة من الزمن .

ولقد كانت الولايات المتحدة ترسل أموالها إلى المانيا على أمل أن يتمكن الاقتصاد الألمانى من الاكتفاء الذاتى خلال ثلاث سنوات ، ولكن المطلب الروسى من شأنه أن يؤجل إلى ما لانهاية اليوم الذى تستطيع ألمانيا فيه أن تكفى نفسها بنفسها . ولما كانت الأداة الاقتصادية الألمانية حرية بأن تنهار بغير معونة الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر ، فإن اجابة روسيا إلى مطالبها فى التعويضات كاملة سيكون معناه ببساطة أن دافعى الضرائب الأمريكيه يدفعون أموالهم لتشغيل خليط متشابك من الصناعات لكى تنتج بضائعها لحساب الاتحاد السوفيتى . وقد كنا على استعداد للبحث فى إمكان تقديم قدر محدود من المنتجات الألمانية لتعويض روسيا إذا تركوا المصانع التى كان مقررا أن تُزال أو تُنقل من قبل إلى الاتحاد السوفيتى . ولكن مولوتوف كان يريد أن يأكل كعكته وأن يظل محتفظا بها أيضا . ولهذا السبب لم يرد على اقتراحنا .

أما المناقشة الخاصة باقتراح أمريكا خفض قوات احتلال فى ألمانيا فقد قوبلت من جانب السلطات السوفيتية بمحاولة تعقيد الأمر بأن أعلنوا أنهم فى حاجة إلى مائتى ألف جندى فى منطقة احتلالهم ، وأن على البريطانيين والامريكيين أن يكتفوا بمائة ألف جندى لكل منهم فحسب ، أو بعدد من الجنود لا يزيد على مائتى ألف على أن يقسم بينهما لأن منطقتيهما مندمجتان . واقترح مولوتوف أن يحتفظ الفرنسيون بخمسين ألف جندى فى منطقة احتلالهم . وقد رد مستر بيفن على هذا الاقتراح بأنه تلقى تعليمات بالموافقة على وجود ١٤٥ ألف جندى فى منطقة الاحتلال البريطانية ، وأن العدد الذى يقترحه السوفيت جد منخفض . وقال مسيو بيدو إن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن توافق على وجود أقل من ٧٠ ألف من جنود الاحتلال فى المنطقة الفرنسية . ولما عجز وزراء الخارجية عن الاتفاق فيما بينهم عهدوا

بالمسألة إلى مجلس الاشراف المتحالف فى ألمانيا .

ويبدو أن الروس منذ البداية كانوا يعتزمون أن يحبطوا الاندماج الاقتصادى الذى تم بين منطقتى الاحتلال الأمريكية والبريطانية فى ألمانيا (وقد انضمت اليه فيما بعد منطقة الاحتلال الفرنسية) وأن يضعوا مطالبهم الخاصة بالتعويض الكامل والدفع من الانتاج الألمانى كثمن لقبول توحيد ألمانيا اقتصاديا وسياسيا بصفة عامة . وعلى الرغم من أنه كانت هناك خلافات فى ذلك الوقت بين الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين فيما يتعلق بأفضل الوسائل السياسية والاقتصادية التى تتبع فى ألمانيا ، فإن دولة واحدة من الدول الغربية الثلاث لم تستطع الموافقة على المطالب السوفيتية .

وقد أبلغ الجنرال مارشال مجلس وزراء الخارجية فى ٣١ مارس أن المقترحات السوفيتية لا يمكن أن تتم فورا إلا عن طريق خفض الواردات ، وهو أمر لا يمكن إلا أن يؤدى إلى خفض استهلاك الفرد الألمانى إلى ما يقرب من ١١٠٠ سُعْر حرارى فى اليوم : وهى كمية لا تكفى إذا طبقت لمدة طويلة للمحافظة على الحياة .

واستطرد الجنرال مارشال قائلا : « إن شعوب أوربا تنقصها الضروريات الأولية للحياة . وهذا النقص لا يمكن سده إلا بإنتاج جميع أنواع البضائع . ورفع مستوى الانتاج الصناعى فى ألمانيا إلى حد معقول من شأنه أن يساعد على مر الزمن فى إنتاج بضائع أكثر . وإذا ما تم رفع مستوى هذه الصناعة بعد توقيع المعاهدة الرباعية التى اقترحنا عقدها والتى تكفل استمرار تجريد ألمانيا من السلاح فإن ذلك لن يعرض أمن أوربا للخطر ولكنه سيساهم فى انعاش أوربا .

وأضاف الجنرال مارشال إلى ذلك قوله : إن الولايات المتحدة تعارض أية سياسة تؤدى إلى جعل ألمانيا بصفة مستمرة حيا حقيرا مزدحما بالسكان أو منطقة فقيرة اقتصاديا

فى وسط أوربا . ونحن ندرك فى نفس الوقت أن ألمانيا يجب أن تدفع التعويضات إلى الدول التى تعرضت لعدوانها . وفى ضوء هاتين الحقيقتين ، نريد أن نستخدم مصادرها الغنية بالأيدى العاملة الخبيرة والحيوية والمقدرة الصناعية لاعادة إنشاء الشبكة التجارية التى يعتمد عليها رخاء أوربا .

وبصفة عامة « إن الولايات المتحدة ترغب فى أن ترى ألمانيا مسالمة قد تعمقت فيها جذور الديمقراطية القوية تحتل مكانها فى جامعة الدول الأوربية والعالمية . »

ولم يدهش ممثلو الغرب تماما حول الصعوبات التى صادفوها فى محاولة الوصول إلى اتفاق حول المسألة الألمانية ، ولكنهم كانوا يتوقعون على أى الحالات أن يحرزوا بعض التقدم فى سبيل وضع الصيغة النهائية لمعاهدة الصلح مع النمسا . وقد سارت الأمور أول الأمر فى هذا الشأن سيرا حسنا ، وتم الاتفاق على كل شىء ماعدا بضع نقط .

ولكن هذه النقط كانت أساسية وذات أهمية جوهرية . فقد علق الاتحاد السوفيتى أهمية كبرى على تأييده لمطالب يوجوسلافيا الخاصة بالتعويضات واقتطاع جزء من مقاطعة كارنيثا النمسوية لضمها إلى يوجوسلافيا : ولكن الملاحظات التى كان يبديها أعضاء الوفد السوفيتى والاقتراح المتستر الذى قدمه فى النهاية المستر مولوتوف فى الأيام الاخيرة من المؤتمر كانت تدل على أن الاتحاد السوفيتى لن يتردد فى أن يتخلى فى الحال عن تأييده لمطالب يوجوسلافيا إذا ما قبل حلفاء الغرب اقتراح الكرملين الخاص بالاموال الألمانية فى النمسا ، والتى تدعى روسيا حق الحصول عليها وفقا للاتفاق السابق . ولكن الموافقة على وجهة النظر السوفيتية سيكون معناها انتزاع جزء ضخم من الاداة الاقتصادية النمسوية من تحت الاشراف النمسوى ، بحيث

تصبح الفرص المتاحة لهـذه الدولة الصغيرة لـكى تعيش كدولة مستقلة تكفى نفسها بنفسهـا ، تـكاد تـكون مستحيلة . وقد فشلت جميع الجهود التى بذلت للتوفيق بين وجهات النظر المتعارضة فى هذا الصدد .

وأبدى الوفد النمسوى الذى يرأسه وزير خارجية النمسا الشاب جروبر ـ على الرغم من أنه أصيب بخيبة أمل شديدة ـ جرأة شديدة وثباتا على الرغم من الضغط الروسى الشديد الذى تعرض له

والنمسويون يمثلون شعبا مرهقا لـكنه سريع الادراك . وقد تحرروا لبضع سنوات من سيطرة النازى ، وأصبح كل أملهم الآن أن يتحرروا من محرريهم ، ولـكن زعماءهم قد بلغوا من الحـكمة ما يجعلهم يدركون أن التحرير يجب أن يكون كاملا وإلا فلن تكون له قيمة .

ولم يكن فى موقف السوفيت ما يوحى بأى تغير فى تقديراتهم . وقد سجلت فى مذكراتى عام ١٩٤٦ ما يلى :

« إن الاتحاد السوفيتى يريد أن يعقد معاهدة مع النمسا تقر التدخل السوفيتى فى الشئون الداخلية للنمسا فى أى وقت تحت ستـار العمل على منع الدعاية المناهضة للسوفيت أو الداعية لألمانيا ، وعن طريق الاحتفاظ بالممتلـكات النمسوية التى يطالب بها الاتحاد السوفيتى باعتبارها من أموال الألمان . »

ولقد كان أفضل وصف للمؤتمر هو الوصف الذى أجمله الجنرال مارشال فى هذه الـكلمات :

« لقد اصبح الاتفاق مستحيلا فى موسكو ، من وجهة نظرنا لأن الاتحاد السوفيتى يمسك بمقترحات كان من شأنهـا أن تؤدى إلى انشاء حكومة مركزية فى المـانيا

بطريق لاتلبث معها أن تستولى على السلطة المطلقة فى بلد سيكون مقضيا عليه اقتصاديا بسبب ضيق المساحة وكثرة السكان ، وسيكون عليه أن يسلم جزءا كبيرا من انتاجه لسداد التعويضات ، التى تطلب روسيا الجزء الأكبر منها . وكذلك كان الوفد السوفيتى يريد تطبيق نفس « الرهنية » على النمسا فى صورة أخرى » .

ومثل هذه الخطة ، فيما يراه أعضاء وفد الولايات المتحدة لا تتطلب استمرار المعونة الأمريكية لألمانيا إلى مالا نهاية فحسب ، بل هى فى نظره لا يمكن أن تؤدى إلا إلى إفساد الحياة الاقتصادية فى المانيا وأوربا و إلى ظهور الديكتاتورية والاضطرابات من جديد .

ووقع الفصل الأخير من هذه المأساة فى « الكرملين » حيث أقام ستالين مأدبة عشاء لرؤساء الوفود الأربعة وكبار مساعديهم فى قاعة كاترين العظمى الفخمة . وكان المدعوون من أعضاء الوفد الأمريكى هم مارشال وزير الخارجية ، ومستر بن كوهين ، المستشار بوزارة الخارجية الأمريكية فى ذلك الحين ، ومستر بوهلن ، وأنا . وقد اجتمعنا فى الردهة الواسعة التى تكسوها الستائر المخملية الحمراء، حيث كان يجلس كبار موظفى وزارة الخارجية الروسية وعدد من مارشالات الاتحاد السوفيتى وجميع أعضاء البوليتبيرو « المكتب السياسى » باستثناء ستالين ومولوتوف اللذين لم يحضرا إلا بعد أن اكتمل الجمع . وعلى الرغم من اننى كنت قد قضيت فى موسكو ما يزيد على عام كامل ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى أشاهد فيها عن قرب وفى غرفة واحدة هذه المجموعة الصغيرة من الرجال الذين يحكمون الاتحاد السوفيتى . وكان موظفو وزارة الخارجية الروسية وضباط القوات المسلحة يرتدون ملابسهم الرسمية ويحملون أوسمتهم . وكان رجال البوليتبيرو ـ المكتب السياسى ـ بصفة عامة يرتدون ثيابا مدنية داكنة ذات صفين من الأزرار أو صف واحد . على أن مالينكوف كان

يلبس الزى الرسمى القديم لاعضاء الحزب الذى يتميز بالقميص الطويل ذى الياقة العالية المقلوبة . و بعد بضع لحظات دخل ستالين ومولوتوف، وكان الأول يلبس ثيابه الرسمية المعتادة على أنه لم يكن يلبس هذه المرة البزة العسكرية التى يميل لونها بين الأزرق والأخضر والتى يرتديها كبار ضباط ومارشالات الجيش الروسى ، بل كان يلبس حلة من ذلك اللون الذى يدعوه رجال جيشنا « Suntan ». أما مولوتوف فقد كان يلبس بزة مدنية زرقاء داكنة اللون بدلا من الثوب الرسمى لوزير الخارجية الذى كان لا يرتديه إلا فيما ندر . وكان كلاهما يصافح الحاضرين على حدة ثم دخل ستالين قاعة الطعام وتبعناه .

ولقد سمعت كثيرا عن مأدب الكرملين المبالغ فيها والتى يشرب فيها المدعوون انخابا لاعداد لها من الفودكا أو الشمبانيا ، ولكن هذه المأدبة كانت مختلفة كل الاختلاف . فقد كانت رائعة مكتملة النظام والتنسيق إلى حد بعيد ، ولم يكن بها من مظاهر الترف أكثر مما فى أية مأدبة عشاء رسمية أمريكية عادية ، بل لقد كان مستواها يقل عن كثير من المآدب التى شهدتها فى أوربا .

وكان ستالين ومولوتوف يواجهان أحدهما الآخر عند منتصف المائدة الطويلة . وكان مستر مارشال يجلس إلى يمين ستالين ومستر بيفن إلى يساره بينما كان مسيو بيدو يجلس إلى جوار مستر مولوتوف . وقد شعرت بشىء من العجب عندما وجدت أن زادانوف (توفى فيما بعد) الذى لم أقابله من قبل قط يجلس إلى يمينى . وكان يجلس فى مواجهتى فوزنسنسكى، أصغر أعضاء «البوليتبيرو » ـ المكتب السياسى ـ ، الذى أبعد عن منصبه فيما بعد دون أن يوضح موقفه . وقد لاحظت أن زادانوف لم يأكل شيئا على الاطلاق سوى قليل من « الشوربة » . وقد فسر ذلك بأنه يتبع « رجيما » خاصا فى غذائه . وكان يتكلم قليلا « ولكننا تبادلنا بضع كلمات عن طريق أحد

المترجمين ثم تبادلنا عبارةأو عبارتين بالفرنسية فيما بعد . وقد كان فوز نسنسكى يحاول أن يكون مرحا . وكان يبتسم دائمـا ويرفع كأسه كلما التقت عيناه بعينى أحد الضيوف الأجانب .

ولم نشرب على العشاء سوى خمسة أنخاب . اقترح أحدها ستالين فى صحة الرئيس ترومان ووزير الخارجية مارشال واقترح الثانية مستر مولوتوف تـكريما لزملائه الآخرين المشتركين فى المؤتمر ، أما الأنخاب الثلاثة الباقية فقد كانت ردا للانخاب من جانب وزراء خارجية دول الغرب الثلاث الذين أعربوا بطريقة أو بأخرى عن أسفهم للنتيجة التى انتهى اليها المؤتمر وعن أملهم فى المستقبل . وكان الجو الذى يسيطر على المأدبة مليئا بالجد والهدوء ، ولـكنه لم يكن عدائيا ، ولم تطل المأدبة فقد استغرقت ما لا يزيد على الساعة . وقادنا ستالين بعد المأدبة إلى حيث هبطنا بضع درجات مغطاة ببساط أزرق ثم دخلنا قاعة السينما التى تزدان بالستر الـكثيفة الزرقاء وتنتظم عددا من المقاعد المتناثرة من نفس اللون . وكانت المقاعد مزدوجة كل اثنين منها معا ، وأمام كل مقعدين منضدة صغيرة عليها صندوق من الشوكولاتة والسجائر وكوبان طويلان وزجاجتان من الشمبانيا . وكان « مضيفى الخاص » مستر ميكويان الأرمينى الذكى الذى يمتاز بحـكمته والذى كان فى ذلك الحين عضوا فى البوليتبيرو (المـكتب السياسى) ووزيرا للتجارة فى نفس الوقت . وكان الفيلم الذى عرض علينا هو الفيلم الروسى الذى أخرج بالألوان الطبيعية أخيرا « الزهرة الحجرية » . والذى فاز بجائزة الاخراج فى أوربا ، ومن الواضح أن ستالين كان فخورا بذلك الفيلم . وكنت أعتقد أنه على حق فى ذلك فالقصة ـ التى تتناول بعض أبناء الشعب الروسى فى جبال الأورال ـ جميلة والممثلون مجيدون ، كما أن تأثير المناظر الملونة كان رائعا فى معظم مشاهد الفيلم .

وعدنا عند منتصف الليل ، وهو رقم قياسى على الأرجح بالنسبة للمآدب التى

تقام فى الكرملين ، وكان يمكن أن تكون ليلة ممتعة لولا الشعور بالحزن والفشل الذى كان يسود الجانب الغربى . واننى لعلى ثقة من أن الكثيرين قد تساءلوا فى تلك الليلة ، عما إذا كان هذا الاجتماع سيكون آخر اجتماع يعقده وزراء الخارجية . فلقد وضح تماما أن هناك أحد بديلين ، إما أن تظل المانيا منقسمة ، أو أن تصبح خاضعة لسيطرة الاتحاد السوفيتى الاقتصادية والسياسية . كما أصبح الغربيون جميعا يواجهون الحقيقة المجردة ، فهم إذا أرادوا الحيلولة دون وقوع الاحتمال الأخير ، فإن رغبتهم فى إيجاد ألمانيا المتحدة لا يمكن أن تظل عذرا يبرر الجمود الذى يلتزمونه فى غرب المانيا ، التى كان يجب أن تنضم بطريقة فعالة إلى دول غرب أوربا عن طريق تسوية المسائل الاقتصادية وربما عن طريق التفاهم السياسى المشترك بصفة مطلقة .

ولا بد أن الكرملين قد أدرك بدوره تماما أن الأهداف التى يسعى اليها الاتحاد السوفيتى فى المانيا قد وضحت تماما فى النهاية لدول الغرب ، وانه من المستحيل الآن أن تتحقق تلك الأهداف عن طريق المناورات الدبلوماسية .

وهكذا أصبح المسرح مهيئا لأزمة برلين .